أحمد عبدالله

سميرة يعقوب

رواية

المكتبة العربية للنشر والتوزيع

سميرة يعقوب

اسم الكتاب:	سميرة يعقوب
اسم الكاتب:	أحمد عبدالله
المراجعة اللغوية:	منى آدم
تصميم الغلاف:	فريق المكتبة العربية
الطبعة:	الأولى
رقم الإيداع:	33222 / 2024
الترقيم الدولي:	978-977-9658-31-5

للنشر والتوزيع
Arabic Library

Gmail	almaktaba79@gmail.com
facebook	Facebook.com/almaktaba79
WhatsApp	01030365801 – 01014977934

جميع الحقوق محفوظة

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

سميرة يعقوب

رواية

أحمد عبدالله

للنشر والتوزيع
Arabic Library

إهداء

إلى الذين دهستهم الحياة تحت ثِقل جنازيرها الصدئة، فمزقت أرواحهم إلى أشلاء، ولم يعد لهم ذكر بين الأحياء. هم أولئك الذين سلبتهم الأيام أحلامهم، ومزقت آمالهم، ليصبحوا خيالات تتلاشى في كهوف النسيان.

لا يوجد أي تشابه بين أحداث الرواية وأبطالها، وبين الواقع وشخوصه. فكل ما يتجلى في الصفحات هو محض خيال خصب، وإبداع فني لا يهدف إلا إلى إثارة الفكر، وتحفيز الخيال، واستكشاف النفس الإنسانية.
لزم التنويه.

وقفت "سميرة" تنظر عبر اللوح الزجاجي إلى ابنها الراقد في براءة كملاك نائم. ألصقت يديها بالزجاج تود لو تتحسس جسده الساكن. تلك الخراطيم الرفيعة التي تتصل بجسده بدت في عينيها كأفاعٍ تلتهم منه سائل الحياة بدلا من أن تمنحه إياه. انهمرت الدموع من عينيها، لم يكن في أحلك كوابيسها أن تراه على هذه الحالة. دوّى في ذهنها سؤال مفاجئ: "كيف ستبدو نظرته لها حين يعود من سباته؟ هل سيرمقها بكراهية وبغض كما السابق، أم سينسى تلك اللحظة التي رآها عليها ويعود لحضنها الدافئ؟"

كان لا بد أن تسأل أحدًا عما يدور في ذهنها. هرعت إلى غرفة الطبيب وفتحت الباب دون استئذان، لاح في وجهه الضيق، لكنها تجاهلت مشاعره وهي تسأله:

"متى سيفيق "عمر" من غيبوبته؟".

" إنه على وشك أن يستيقظ في أي لحظة".

" كيف سيتذكرني عند استيقاظه؟".

قال في دهشة:

"إنه لن يتذكر شيئًا كما تعرفين".

سألته بقلق بالغ:

"أعني كيف سيتعامل معي في المستقبل".

قال كأنه يشرح أمرًا بسيطا:

"هذه العملية تسمى "نزع الحصين" وهي لا تكتفي بإفقاد المريض ذكرياته عن الماضي، بل تمنعه من تكوين ذكريات جديدة مستقبلًا، أي أن ذاكرته تصبح لا وجود لها".

لم تستطع قدماها أن تحملاها فخر جسدها على المقعد. خلا وجهها من الحياة فبدا كصحراء قاحلة، قالت:

"كيف أمكنك إجراء مثل هذه العملية لصبي في مثل عمره وأنت تدرك جيدا أنها ستدمر مستقبله! ".

زوى ما بين حاجبيه وقال:

"اعترضت في البداية بالتأكيد، لكنهم أخبروني أن العملية ضرورية لوالدته، وأنك على علم بنتائجها الخطيرة مسبقا".

نظر الدكتور "صلاح" إلى وجهها الذي اصطبغ بملامح وحشية، لكنه آثر الصمت لسلامته، هتفت:

"إذا حدث هذا بالفعل سأنتقم منكم جميعا".

مضت فترة من الصمت لم يقاطعها أثناءها مكتفيا بالنظر إلى وجهها في ترقب، قامت من مكانها مردفة:

"سأنتظر حتى يستيقظ، ثم أقرر بعدها ما يجب علي فعله".

غادرت المكتب دون أن تشفي غليله، سارت إلى الغرفة التي يقبع فيها "عمر" بخطوات واهية، وقفت أمام الفاصل الزجاجي دون أن تتحسسه هذه المرة، كان وجهها ينطق بانفعالات مجنونة ثائرة.

تابعت الجهاز الذي يترجم الإشارات الحيوية على شكل خطوط وأرقام، ركزت بصرها على عينيه، وفكرت أنهما تتمسكان بالانغلاق لكي لا تريا وجهها الخالي من معاني الأمومة والرحمة.

*****

"قبل إجراء العملية بنحو تسعة أشهر".

في الشرفة الواسعة وقفت "سميرة" يعلو محياها الكدر. ألقت نظرة على ساعتها التي أشارت عقاربها إلى اقتراب موعد الغروب، ثم رفعت بصرها إلى قرص الشمس الأحمر الذي بدا كمارد يراقب العالم من عليائه بعينين غاضبتين.

منذ اعتاد زوجها السهر خارج المنزل أخذت تساورها تساؤلاتٌ مؤلمة: "هل يتغير الرجل بين ليلة وضحاها دون سبب؟ أم أن وراء الأكمة ما وراءها؟" كانت تتمنى لو تعرف الجواب، ولكن كل فكرة تتسلل إلى عقلها كانت تتخذ شكل خيوطٍ من الشكوك والظنون، مما جعلها تعيش في دوامة من الحيرة والقلق، تتخبط فيها كفراشةٍ حائرة في ظلامٍ دامس.

أخرجت من أعماقها زفرة حارة ملتهبة، أعادت النظر إلى ساعتها فبدت عقاربها كأنما يتسابقن فيما بينهن بهدف استفزازها.
تركت الشرفة ودخلت إلى المطبخ لتعد الطعام، دخل "عمر" خلفها وأخبرها أنه أنهى واجبه المدرسي وبدأ يشعر بالجوع لكنه يفضل أن ينتظر والده، سألها متى يعود والده من عمله وسبب تأخره، قالت بنبرة مشحونة بالتبرم بينما تطفئ شعلات الموقد:
" لم أعد أعرف متى يعود والدك".
غادر "عمر" المطبخ وجلس أمام التلفاز بعد أن ضبط قناته المفضلة، عادت لإعداد الطعام، لكنها توقفت والتقطت هاتفها وأجرت اتصالا بزوجها لكن دون رد، غمغمت: "هل تخونني يا فهمي في تلك اللحظة أم أنك بالفعل محاصر بالعمل حتى هذه اللحظة.
بينما كانت تملأ الأطباق بالطعام وتضعها على المائدة سمعت صرير الباب.
ظهر "فهمي" بوجه يبدو عليه العبوس، لكنه تبدل إلى وجه باسم حينما استقبله عمر وقال:
"لقد ابتعتُ لك شيئًا، لكني لن أعطيك إياه حتى تستنتج ماهيته".
ظل "عمر" على صمته الحائر، ناظرا إلى السقف واضعا سبابته على ذقنه، ثم تسائل:
" أهي شوكولاتة "كيت كات"؟".
هز والده رأسه نفيًا، فنطق وجه "عمر" بخيبة الأمل، أخرج "فهمي" من جيب حقيبته الجلدية مسدسا بلاستيكيا، وجرابا يمتلئ بأسهم تنتهي أطرافها بقطعة من المطاط اللاصق، قال:
"هل نسيت أنك طلبت مني واحدا منذ يومين؟".
قال "عمر" وهو يتفحص لعبته الجديدة بسعادة:
" لا لم أنس يا أبي".
تدخلت "سميرة" قائلة:
"دع تلك اللعبة جانبا الآن يا "عمر"، وهيا لتتناول الغداء الذي تأخر كثيرا بسبب عودة والدك متأخرا".
قطب "فهمي" جبينه وقال:

"ألم أخبرك من قبل أن ذلك الموقع الجديد يتسبب في تأخيرنا رغما عنا".

أبدت "سميرة" استغرابها وتأففها من مواعيد عودته غير المعتادة، فقلب "فهمي" شفتيه وسار نحو غرفته سيرًا حانقًا، بدّل ملابسه وعاد إلى المائدة. عمّ الصمت المكان إلا ما يصحب تناول الطعام من أصوات في العادة. تأمل "عمر" وجه أمه المتكدر، أدار بصره ناحية وجه والده المربد، ثم حصر بصره بين أطباق الطعام أمامه محاولًا الإفلات من قبضة الحزن. مضت خمس دقائق منذ جلسوا على المائدة، قبل أن يقوم "فهمي" ويمشي نحو الحمام. تابعته "سميرة" بعينين صامتتين. همس "عمر:"

"ما بال أبي يبدو غاضبًا اليوم؟"

قاومت دموعًا حارة تهاجم عينيها للهروب خارج أسوارهما الملتهبة، قالت وهي تبرز ابتسامة زحفت بتهالك على محياها الحزين:

"كل ما في الأمر أن عمل والدك الجديد يسبب له إرهاقًا بالغًا."

بدا أن "عمر" سيرميها بسؤالٍ تلو الآخر، وستنهار هي تحت وطأته لا محالة، فتظاهرت بالانهماك في تناول الطعام حتى لا تمنحه فرصة لمزيد من الأسئلة.

*****

أنهت "نجلاء" الحصة ثم التقطت حقيبتها وغادرت الفصل بسرعة، دون أن تلقي نظرة على الطلاب الذين صنعوا هرجا مرجا بمجرد أن اختفت من أمام أعينهم، ركبت سيارتها الصغيرة وانطلقت إلى منزلها مباشرة، كانت عيناها مخنوقتين بدموع حبيسة، ولم تكن تسمح لنفسها بالبكاء في المدرسة أمام زملائها، فتماسكت حتى دخلت غرفتها ثم تركت لعينيها العنان، طفرت الدموع من عينيها وهي تسترجع تلك الرسالة التي أوصلها خطيبها علاء مع صديقتها مدرسة العلوم في نفس المدرسة، أمسكت الهاتف وطلبت رقمه، حاولت ألا تفعل لكن نفسها غلبتها، لحظات مضت قبل أن يأتيها صوته المشوب بالخجل، لم تمهله الفرصة ليفسر موقفه، قالت باستنكار:

" هل كنت تكذب عليّ حين كنت تحدثني عن حبك لي طوال فترة خطوبتنا التي استمرت لعامين كاملين؟"

"كلا، لم أكذب، لكني أدركت مؤخرًا أنه كان شعورًا مؤقتًا بالإعجاب وليس الحب كما تهيأ لي، ولا تنسي أن فترة الخطوبة تكون للتعارف".

بكت "نجلاء" وعلا نشيجها. تمتم "علاء" بصوت خفيض:

"آسف يا "نجلاء"، فلم أكن أريد أن أسبب لك أية مشكلة"

أغلقت هاتفها في وجهه دون أن تنقطع عن البكاء، تخيلت الدنيا عجوزًا شمطاء، سوداء البشرة، تحدجها بنظرات هازئة، وتقول لها بصوت قبيح: "لا تظني أنك ستجدين السعادة التي تطمحين إليها، نجوم السماء أقرب إليك، وحمل جبل كبير أهون عليك".

سدت أذنيها بكلتا يديها محاولة أن تمنع النزيف الذي يمزق جنبات روحها، تذكرت كلام طبيبها النفسي وهو يحذرها من التهاون في أخذ العلاج في وقته المعتاد. أسرعت نحو أحد الأدراج وفتحته، تناولت شريطًا وابتلعت منه قرصًا وأفرغت وراءه كوب ماء، جلست على طرف الفراش وهي تمسح دموعًا فرت من مآقيها.

دخلت عليها والدته حين سمعت بكائها فوجدتها منهارة، احتضنتها بقوة، ربتت على ظهرها، بدأت دموعها تجف، بكاؤها راح يخفت رويدًا رويدًا، لكن صوت العجوز لا ينقطع عن مسامعها وإن ابتعد صداه بعض الشيء. سألتها أمها عمّا بها، أخبرتها "نجلاء" عن فحوى المكالمة، حاولت أمها التماسك أمامها، أخبرتها أن الأمل دائما موجود فلا داعي لليأس، لكن نجلاء راحت تسترجع أمامها شريط حياتها، من أوله لآخره، أخبرتها أنها لا تذكر لحظات هنيئة عاشتها طوال أعوامها الخمس والثلاثين، فشلها في الارتباط أكثر من مرة جعلها تشعر بأنها غير مرغوبة، لا قيمة لها، كأنها عيب يجب التخلص منه. كل شيء حولها يعزز هذا الإحساس؛ نظرات الشفقة من أقاربها، همسات زميلاتها في العمل، لكن والدتها نهرتها قائلة:

" أنت لا تحتاجين لزوج لتثبتي قيمتك، ولا تجعلي نظرات وهمسات الآخرين يفقدونك ثقتك بنفسك، عهدتك فتاة قوية فكوني كذلك دائما".

شكرتها نجلاء على دعمها، مسحت دموعها ووعدتها أنها لن تتأثر بشيء وستكمل حياتها امرأة قوية كأمها.

منحتها أمها ابتسامة واسعة، قبلتها على جبينها وغادرت الغرفة بعد أن طلبت منها أن تستريح.

انتظرت نجلاء حتى أغلقت أمها الباب خلفها ثم مدت يدها إلى دفتر صغير تحتفظ به منذ سنوات، فتحت صفحاته بحذر، تخشى أن يخرج منها شبح الماضي ليتلبسها. بعض الصفحات تبدو مليئة بخطوط مائلة ورسومات عشوائية. وقفت عند إحدى الصفحات التي كتبت عليها بخط مرتجف منذ سنوات عديدة:

"أنا لست كافية لأحد، وربما لن أكون كذلك أبدًا"

أغلقت الدفتر بعنف كأنما تريد دفن تلك الكلمات بين ضلفتيه. نهضت من مكانها واتجهت إلى النافذة، كان الليل قد أسدل ستاره، والمدينة تشع بأنوار مبهرة، واجهات المحال براقة، الناس يسيرون قطعانًا أو فرادى، بخط مستقيم أو بخطوط عبثية، لكن أيًا من ذلك لم تتفاعل معه نفسها القابعة في ظلام دامس وساكن. همست لنفسها بصوت متهدج:

"هل سأظل هكذا للأبد مجرد ظل يمشي دون وجهة؟"

ذهبت إلى درج جانبي وفتحته بمفتاح صغير كان موضوعًا أسفل وسادتها، تناولت منه ألبوم يحتوي على كل صورها، منذ الطفولة وحتى خطوبتها الأخيرة. انتزعت منه الصور الخاصة بتلك المناسبة وأخذت تمزقها إلى فتات، أخبرها طبيبها ألا تحتفظ بما يذكرها بلحظات تؤلمها، وأشخاص خيبوا أملها.

أمسكت الدفتر مرة أخرى وكتبت: "أعلم أن البكاء، وتناول الدواء، وتمزيق الصور، لن يغير من الأمر شيئًا، وأن صوت المرأة العجوز لن يصمت في داخلي أبدًا، فلا أنا أستطيع مواجهة خوفي من الحياة، ولا الفرار من نفسي اللوّامة".

*****

مر شهر آخر على نفس الوتيرة دون أن تتمكن "سميرة" من فهم السبب وراء تغيّر زوجه، خشيت أن تكون هي السبب وراء الجفاء الناشئ بينهما، وأنها

لا تقوم بواجبها تجاهه كما يجب، فشرعت تصلح من نفسها وتقوّم ما تظنه قد اعوجّ منها، آملة أن يعود إلى سيرته الأولى. لكنه كان يزداد جفاءً وبعدًا، كلما ازدادت به اهتمامًا وقربًا. كان نتيجة ذلك أن نشب بينهما عراك متهمة إياه بأنه يخونها، اتهمها بالجنون وخرج من بيته غاضبا، ولكي لا تتطور الأمور إلى ما لا تحمد عقباه فضّلت الصمت المشوب بالخنوع على المواجهة، طمعًا أن تعود الأمور إلى سابق عهدها.

إلا أن شهرًا آخر قد نفد من حساب عمرها، ولم تتحسن الأمور قيد أنملة، بل زاد الطين بلّة عندما بدأ يبيت عند شقيقته _ كما أخبرها_ دون أن يبدي تفسيرًا. وعندما اتصلت بشقيقته لتطمئن عليه، كانت الصدمة، حين أخبرتها أنها لم تره منذ ما يقارب الشهر.

جلست في غرفتها تبكي بعيدًا عن عيني ابنها، وقد تأكد لديها أن ثمة شيء يحدث خلف ظهرها، فكرت أن تذهب إلى مكان عمله لتكلمه، لكنها لم تجده هناك، فلم تجد بدًا من الذهاب إلى شقيقته، لعلها تجده عندها أو تجد ما يريح قلبها.

استقبلتها "جيهان" بحضن دافئ، تأملت وجهها السادر وقالت:

"أما زلتِ حزينة بسبب فقد جنينك الأخير؟ لماذا لا تكررين المحاولة إذًا؟."

صمتت "سميرة" تقاوم دموعًا عنيدة، تمتمت بمرارة:

"أنا أحتاج لمعجزة كي أحمل من جديد."

ضغطت أصابع "جيهان" يدها وقالت:

"أخبريني ماذا هناك لأستطيع مساعدتك؟."

كفكفت "سميرة" دموعها، ثم أطلقت سراح لسانها وراحت تحكي لها تصرفات شقيقها منذ بدأ الجفاء يصدّع حياتهما. سألتها "جيهان:"

"لماذا انتظرتِ كل هذا الوقت حتى تخبريني؟."

"لأنني كنت أظن الأمر مجرد انفعال مؤقت سببه ضغط العمل، لكن معاملته الخشنة ومبيته خارج المنزل، جعلاني أشعر أن الأمور تنفرط من بين يدي بعنف."

طمأنتها "چيهان" قائلة لها أن ما يحدث لا يعدو كونه نتيجة إرهاق بالغ في العمل، وحزنه لفقدك الحمل للمرة الثالثة، ولكن سرعان ما سيعود كل شيء كما كان .

احتضنتها "سميرة" بقوة، ثم نزعت نفسها من بين ذراعيها وغادرت المكان.

قادت "سميرة" سيارتها دون تحديد وجهتها، ثم ارتأت أن تسير في منطقة "الأزهر" و"الحسين"، إذ ينتابها شعور بالسكينة كلما سارت في ذلك المكان بأجوائه التي يمتزج فيها عبق التاريخ مع صخب الناس، وذكريات لها طابع خاص عندها، فيمنحها دفقة من الأمل وراحة عميقة.

كانت تكتفي بإلقاء نظرة من داخل سيارتها دون أن تترجل منها؛ حيث كان المساء على وشك الحلول، والزوار يبدأون في الالتفاف حول المنطقة المحيطة بـ"الحسين"، على الأرض والبسطات والمقاهي، والمطاعم السياحية التي تنتشر بها هذه المنطقة. تطلعت إلى المتاجر المتنوعة من الحلي والملابس والأقمشة والألعاب والتحف. تذكرت حينما كانت تأتي مع زوجها في سنوات الزواج الأولى، يتمشيان طويلًا عبر الشوارع والأحياء، يتطلعان إلى مختلف الأشياء المعروضة للبيع، يشتريان ما يرغبان في شرائه، وعندما يشعران بالتعب يجلسان في مقهى "الفيشاوي" ويحتسيان قهوة سادة ترد إليهما نشاطهما.

عاودها الحنين لرؤية مقهى آخر شهد الكثير من جلسات السمر مع زوجها والأصدقاء. لم تتردد كثيرًا كعادتها كلما طاقت نفسها لخوض تجربة تجلب لها شعورًا بالسعادة. انحرفت بسيارتها نحو المقهى المحدد. لحظات وكانت تسير بتؤدة أمامه، تتأمل أركانه ورواده في حنين جارف. لكن بغتة، هالها منظر عبر اللوح الزجاجي للمقهى؛ كان زوجها يجلس هناك مع امرأة شعرها بلون

الذهب، يضحكان بقوة وهما يميلان بجذعيهما إلى الأمام حتى كادا رأسيهما يتلامسان، قبل أن يعودا إلى وضعهما الطبيعي وقهقهاتم لم تتوقف بعد.

اتسعت عيناها مع المشهد المزلزل، ظنت أن ما تحياه كابوس ما تلبث أن تصحو منه.

بطريقة آلية ضغطت دواسة الكابح فتوقفت السيارة مطلقة صريرًا مسموعًا. وبالرغم من التفات بعض رواد المقهى نحوها، إلا أن "فهمي" ورفيقته لم ينتبها لها، كأنما انفصلا عن الواقع المحيط وغاصا في واقعهما الخاص حتى النخاع. عمّ الصمت روحها فبدا أكثر إزعاجًا من قرع ألف طبلة جديدة، وأخذت الحسرة بخناقها، فلم ترضَ أن تتركها إلا جثة هامدة.

أرغمتها ذاكرتها على العودة إلى تلك اللحظة التي غيرت مجرى حياتها، حين قابلت زوجها لأول مرة؛ كانت تجلس على طاولة صغيرة داخل حرم الجامعة تنتظر صديقتها "چيهان" التي تأخرت بسبب زحام المدينة. كانت مشغولة بأفكارها، تتأمل في ما يدور حولها، حين لمحته يدخل قادمًا نحوها مباشرة، قامة طويلة ومشية واثقة تحمل لمسة من الجاذبية، ملامح وسيمة وابتسامة واسعة. قلبها أخذ ينبض بسرعة، أنفاسها تصاعدت عندما توقف أمامها وقال:

"أنتِ تنتظرين شقيقتي "چيهان"، أليس كذلك؟"

لم تكن تعرف أن "چيهان" لديها شقيق في الجامعة.

منعها الارتباك من الرد، وقفت تصافحه حينما مدّ يده إليها بلطف.

"أخبرتني عنك "چيهان" كثيرًا، لكن ألم تخبرك عني؟"

هزت "سميرة" رأسها بالنفي. ضحك وقال:

"يبدو أنها تخجل مني".

أشعرتها عبارته بالخجل، فأثقل عليها الرد. أردف مبتسمًا:

"هل تسمحين لي بالجلوس معك قليلًا؟"

أومأت برأسها، أخذ مكانه أمامها وبدأ يحدثها عن نفسه، والمواقف الطريفة التي واجهها في حياته، كانت تضحك دون توقف، ضحكاتها تتعالى، بينما تتدفق المشاعر بينهما كما لو كانا يعرفان بعضهما منذ زمن طويل.

تكررت لقاءاتهما في الأسابيع التالية، وكل مرة كانت تكتشف في شخصيته شيئًا جديدًا: طموحاته، أحلامه، واهتمامه العميق بالتفاصيل التي تهمها، حتى جاءت تلك اللحظة التي أفصح فيها عن حبه لها بينما يتأمل عينيها ويرى فيهما كل ما يتمناه في حياته. حدجته في دهشة، خفق قلبها بشدة بعد أن عثر على نصفه الآخر، وجدت نفسها توافق دون إبطاء، كأنها كانت تنتظر تلك اللحظة منذ وقعت في أسر حبه.

تزوجا في حفلٍ بسيط وسط الأصدقاء والأقارب، وعاشا قصة حب ملأتها الأحلام والآمال.

استفاقت "سميرة" من ذكرياتها وهي تتنهد في حسرة على نعيم لم يدم طويلًا؛ إذ سُحقت على صخرة الخيانة، قُربانًا لامرأة أخرى تجلس في تلك اللحظة بجوار زوجها، يرتشفان من كأس السعادة، دونما خوف أو قلق.

نظرت إلى زوجها من خلال دموعها الغزيرة، وبدا لها ذلك اللوح الزجاجي الفاصل بينهما كستار الختام نزل بتوقيع من القدر نفسه، أصدرت روحها المذبوحة حشرجة مؤلمة وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، ثم تحركت بسيارتها مبتعدة عن المقهى الذي عاصر في السابق أكثر لحظات حياتها بهجة، كما شهد أبشع لحظاتها قسوة.

*****

خرج "فهمي" من عمله مبكرا على غير عادته، ذهب لشراء هدية ثمينة، ثم قاد سيارته إلى منزل صديقته "شاهندا". كان يطلق صفيرًا منغمًا يقلّد إحدى الألحان الرومانسية. في خياله رأى ابتسامتها الرقيقة وسمع ضحكاتها الصاخبة، فتهز قلبه وتدغدغ حواسه. شعرها الذهبي يشعره بأنه يمتلك ثروة هائلة، جمالها الطاغي يسحر عقله، فيهيأ له أنه صار ملكًا، لكنه يرضى بأن يجعل نفسه أسيرًا عندها، عبدًا يشتغل في حقولها الخضراء الخصبة، المهم عنده أن يبقى إلى جوارها.

أعادته ذاكرته إلى أيام الجامعة، تحديدًا في السنة الثانية، حين رآها لأول مرة واقفة أمام كلية الصحافة والإعلام. لفتت انتباهه منذ أن وقعت عيناه عليها،

حتى أن صديقه "يسري" لاحظ شروده فالتفت ليعرف ما الذي يجذب انتباهه، طالعه مجموعة من الفتيات يتحدثن ويتضاحكن، لكنه أدرك بسرعة الفتاة التي استحوذت على اهتمامه.
بابتسامة ساخرة قال له:
- لا تحاول يا صديقي، فتلك الشقراء محجوزة بالفعل".
اربدّ وجه "فهمي" وهو يسأله بصوت جاف:
"هل هو زميل لها؟"
"بل رجل ثري يكبرها بعشرين عاما على الأقل، قدمه لها أستاذها".
كظم "فهمي" غيظه ورثى حظه البائس، لكنه لم يقل شيئًا، ربّت "يسري" على كتفه قائلا:
"لا تشغل بالك يا صديقي، فلقد رأيتها للتو، أنت أفضل حالًا من زميلنا "محمود" الذي بكى عندما علم بالخبر، حتى صار مادة للتندر بيننا".
لوّح "فهمي" بيده بلا مبالاة، لكنه بدا مضحكًا وهو يفعل.
جذبه "يسري" من ذراعه وقال:
"هيا لنذهب إلى الكافتيريا قبل أن يحين موعد محاضرتي الثانية".

استجاب "فهمي" لجذبته، لكن عقله كان لا يزال مشغولًا بها، أدار رأسه لينظر إليها لمرة أخيرة، ولدهشته، وجدها تنظر إليه مباشرة أو هكذا تخيل، التقت نظراتهما للحظة، وتسمر جسده، قبل أن يجذبه "يسري" مجددًا ليواصل طريقه.

مرت الذكريات أمامه كما لو كانت حلمًا سريعًا، لم يصدق انقضاء السنوات بهذه السرعة، ثم علم بوفاة زوجها الثري من "نجلاء" في منزله بينما كانت "سميرة" تعد العشاء. كانت "نجلاء" قد تعرفت على "شاهندا" في السنة الثالثة بشكل سطحي، وسمعت عن حب "فهمي" لها من خلال صديقاتها، وعجبت حين تقدم لصديقتها "سميرة" في نفس السنة، فلم تشأ أن تخبرها بأمر حبه لـ"شاهندا"، إذ اعتبرتها مجرد نزوة في حياته وانتهت بلا رجعة.

وبعد مرور أكثر من عشر سنوات على تلك الذكرى، أخبرته بوفاة زوج "شاهندا" بطريقة غامضة كأنها تفشي سرًا.

توقف سيل الأفكار مع وصول "فهمي" إلى البناية السكنية الفخمة التي تسكنها "شاهندا" وصعد الدرج قفزًا. عندما فتحت "شاهندا" الباب بدت متألقة، على أتم استعداد للخروج معه. أمسك بيدها وانحنى يقبّلها برقة. وبينما ينزلان الدرج، روى لها نكتة طريفة سمعها أثناء العمل فضحكت برقة. جلست إلى جواره في السيارة وقالت بابتسامة ساحرة:

"إلى أين سنذهب؟"

"قولي أولًا أنا أحبك وسأخبرك عن وجهتنا".

قالت بعناد:

" كلا".

هتف مازحًا:

" إذن لن أخبرك".

وانطلق بالسيارة، هددته بالنزول إذا لم يخبرها، وعندما رفض، فتحت باب السيارة وأوهمته بأنها ستقفز، فزع "فهمي" وصرخ:

"ماذا تفعلين يا مجنونة؟"

"أخبرني أو تخسرني للأبد".

تنهد وقال:

" حسنًا حسنًا، نحن ذاهبون إلى مقهى له مكانة خاصة في قلبي".

أغلقت الباب بينما تعلو وجهها ابتسامة مزهوة واثقة. عاد ليقول:

"هيا قوليها أيتها القاسية".

ضحكت "شاهندا" فرقص قلبه رقصة جمعت بين التانجو والسامبا. قالت:

" حسنًا... أحبك".

ضرب "فهمي" المقود بحماس، وهتف بسعادة:

" أخيرًا قلتِيها"!

وأكلت السيارة الطريق نحو المقهى.

*****

لم تعرف كيف قادت سيارتها إلى منزلها دون أن تتسبب بحادثة، بذلت مجهودًا لتعثر على مفتاح الشقة داخل حقيبتها. عندما دخلت، تمتمت بمرارة:

"هل هذا هو ما أستحقه منك يا "فهمي" بعد كل ما فعلته من أجلك؟."

حتى هذه اللحظة، لم تكن قد استوعبت ما حدث هناك عند المقهى، حتى أنها ارتابت أن يكون ما رأته هلاوس شيطانية، تركت دموعها تنسال دون توقف، راودتها فكرة أن تركض إلى المطبخ وتتناول سكينًا لتطعن قلبها الذي لا يتوقف عن الأنين مع كل نبضة.

وفي وسط جحيم المشاعر هذا، تذكرت أنها لم تعرّج على نجلاء لتلتقط "عمر"، جففت دموعها وذهبت لإحضاره. وهي تنزل الدرج قابلتهما وهما يصعدان نحوها، تلعثمت وهي تقول:

"لقد كنت على وشك المجيء لأخذ "عمر".

لاحظت "نجلاء" على وجهها آثار بكاء عنيف فسألتها:

"ما بك يا حبيبتي!"

" لا شيء، هل سنظل واقفين على السلم ونحن نتحدث؟"

"سأعود الآن لأني يجب أن أستيقظ باكرًا لأحضر الحصة الأولى، ولكننا سنجلس سويا قريبا لنتحدث."

غادرت "نجلاء"، صعدت" سميرة" إلى شقتها مع ابنها وهي تغمغم بمرارة:

" كيف أخبركِ بخيانة زوجي يا صديقتي العزيزة؟."

سألها "عمر":

"هل سيعود أبي إلى المنزل أم أنه ما يزال غاضبًا حتى الآن؟."

انقبضت ملامحها وهي تهتف:

"والدك لا يشعر بالغضب على الإطلاق، إنه غارق في السعادة حتى أذنيه."

طفحت الحيرة على وجهه بينما يحاول عقله الصغير الربط بين غياب والده الطويل وشعوره بالسعادة في الوقت ذاته، تركته أمه ودخلت المطبخ لتجهز عشاءه.

دخل خلفها وسألها بحزن:

"هل سبب غيابه أنه لم يعد يحبني؟."

قالت وهي تقطع الطماطم إلى شرائح رقيقة:

"والدك لا يحب أحدًا في العالم أكثر منك."

"إذا فهو لم يعد يحبكِ أنتِ."

استدارت إليه صارخة كمارد حطم قمقمه لتوه وانطلق غاضبا:

"وماذا صنعتُ ليخونني في نفس المقهى الذي تشاركنا فيه أجمل لحظاتنا؟."

صمت "عمر" والحيرة تغلف محياه الرقيق، لم يفهم مغزى حديث أمه عن الخيانة، وما الذي ارتكبه أبوه في حقها، لم يستوعب سر بكاء أمه وحزنها البالغ، لكنه أدرك بفطرته أن هناك شيئًا سيئًا قد حدث، غمغم:

"أنا آسف."

قالت بصوت مشروخ:

"أنا أشعر ببعض الإرهاق فقط، هيا اذهب وبدّل ملابسك لتتناول العشاء."

راقبته وهو يتناول طعامه وتساءلت في قلق: "ماذا ستكون ردة فعله إذا حدث انفصال؟ هل سيقف في صفها أم في صف والده؟."

كان "عمر" يلتقط شريحة طماطم متبلة بالشوكة ويلوكها بفمه حين سألته:

"أينا تحب أكثر؛ أنا أم والدك؟."

احمرت وجنتاه وهو يجيبها :

" أحب كليكما."

قالت بإصرار:

" ينبغي أن تختار أحدنا."

صمت "عمر" للحظات، ثم قال في صوت بالغ الخفوت وقد احنى رأسه:

" أحبك جدا يا أمي، لكني أشتاق لوالدي كثيرا لأني لم أعد أراه كثيرا."

لاح في وجهها سحائب رمادية تنذر بهبوب عاصفة رعدية، توقف "عمر" عن المضغ، نظر إلى عينيها الملتهبتين بترقب وهلع، خشيت "سميرة" إن بالغت في ردة فعلها أن يبغضها، فتخسر فرصتها في المنافسة، فشدت لجام غضبها، وجذبت ابتسامة خرجت من رحم فمها بعملية قيصرية عنيفة، لكنها لم تتحمل انفعالاتها التي تحاول وأدها عكس قوانين الطبيعة، فهرعت إلى غرفتها وألقت بجسدها على الفراش، تاركة دموعها تسيل على الوسادة حتى بللتها.

*****

بعد أن انتهى "فهمي" من عمله في اليوم التالي ذهب مباشرة إلى منزل شقيقته. وهناك أخبرته بمعاناة "سميرة" من جراء غيابه. لم يرد. دفعها ذلك لتقول:

"لا أدري لم تقسو عليها إلى هذا الحد، إنها تحبك يا "فهمي"."

"كاذبة.. كل ما يهمها أن يظل "عمر" قريبًا منها دون وضع اعتبار لشيء آخر."

"أنت مخطئ".

التقط أنفاسه كما لو كان يحمل جبالًا من الأسى على صدره، ثم اندفع في حديث طويل مليء بالشكوى، كل كلمة تخرج منه كانت تجر خلفها ألمًا مستمرًا، راح يسرد معاناته معها؛ "سميرة" تلك الأنانية المحبة ذاتها، تمثال جامد لا يرى سوى انعكاس وجهها في المرآة، لا تعير انتباهًا لشيء آخر،

كأن الحياة تمحورت حول ابنها وحده. أما هو، فقد صار مجرد طيف، لا مكان له في قلبها، ولا حتى على أطراف أفكارها.
استشهد بذكريات مريرة، مشاهد تتكرر في ذهنه دون انقطاع كأنها تُعرض على شاشة سينمائية، كل موقف كان جرحًا جديدًا يُضاف إلى سلسلة طويلة من الجروح، ثم أخذ في نحت كلمات قاسية يرسم بها ملامحها ببشاعة أكثر عمقًا، فتغدو في حديثه كلوحة مشوهة تفتقر إلى الإنسانية.
هزّت "چيهان" رأسها محاولة استيعاب كلماته، رأت وجهه يبدو عليه الإجهاد والتعب، كأن سنوات من الخيبة تراكمت عليه. تعرف أن "سميرة" قد مرت بفترات عصيبة، ثلاث مرات تفقد حملها، وكل مرة كانت تترك في نفسها جرحًا بليغًا، ربما ذلك ما دفعها لتتشبث بابنها الوحيد كملاذ أخير، وشيئًا فشيئًا بدأت تغلق أبوابها أمام الجميع.
قالت "چيهان" محاولة أن تجد تفسيرًا لسلوكها:
"إنها تتألم بسبب فقدانها لأجنتها الثلاثة ولا شك، لذا تتشبث بـ"عمر" على نحو يبدو مبالغًا فيه، شيء طبيعي في مثل حالتها، لكنها حالة مؤقتة وستزول."
لكنه لم يكن مستعدًا لسماع هذا التفسير، نظر إليها بعينين تملؤهما مرارة مكبوتة وقال:
"أيعني ذلك أنني الأناني في هذه المسرحية؟"
لم تكن في نيتها لومه، لكنها شعرت بأن كلماته تحمل شيئًا من الحقيقة، وقبل أن تتمكن من الرد، قاطعها بصوت حاد:
"أنا وحدي أعرف حقيقتها، وهذا يكفي".
تسلل الصمت إلى الغرفة يخفي وراءه أمواجًا من المشاعر المكبوتة. تسلل إلى أنف "چيهان" رائحة التبغ التي تفوح منه، سألته:
"منذ متى بدأت تدخن؟"
ابتسم، لم تكن ابتسامة حقيقية، مجرد حركة عصبية على شفتيه:
"منذ بضعة أشهر. لكن لا تقلقي، لن أستمر في ذلك طويلًا"
نظرت إليه محاولة قراءة ما وراء تلك الابتسامة، لكنها وجدت نفسها في مواجهة جدار من الصمت الداخلي.

ظهر على وجهه علامات الاستياء من تفحصها وجهه فـقال متأففا:
"هل ستبدئين بإعطائي نصائح الآن؟"
"لا، أردت فقط أن ألفت انتباهك إلى التغيرات التي بدأت تظهر عليك".
بدون أن ينبس بكلمة أخرى، قام من مكانه واتجه نحو الباب، كان واضحًا أن الحوار قد انتهى بالنسبة إليه، خرج من منزل شقيقته بخطوات عصبية ووجه مشحون بالغضب.
قاد سيارته إلى شقة "شاهندا"، التي صارت تمثل له قدره من السعادة المحروم منها، عازمًا أن يجد طريقة لينهي زواجه الذي بات عبئًا ثقيلًا، عبئًا لا يُحتمل.

*****

جلست "سميرة" بجوار ابنها وهو يؤدي واجبه المدرسي. كانت تبدو غارقة في أفكارها، يئن وجهها بمزيج من الحيرة والغضب.
انقطع تدفق أفكارها حين انفتح الباب قبل أن يظهر "فهمي" على عتبته، .
رأى "عمر" والده فـتهللت أساريره واندفع نحوه، احتضنه أبوه بين ذراعيه معبرا عن سعادته البالغة برؤيته، تأملت "سميرة" المشهد واستغربت الحنان البادي على وجهه، استقبلته بفتور لم تحاول إخفاءه، ألقى عليها تحية عابرة، عاد إلى ابنه وسأله بحماس:
"هل تستطيع استنتاج ما أحضرته لك هذه المرة أيضًا؟"
اربدّ وجهها وزحفت الغيرة على ملامحها مع قهقهات "عمر" الصاخبة. إنها لا تسمع تلك الضحكات الصافية إلا حين يكون في حضرة أبيه. كظمت غيظها بصعوبة حتى لا تنفلت الأمور من بين أصابعها.
عقدت ذراعيها أمام صدرها وقالت:
"صار لك أسبوعا تبيت خارج البيت، هل يمكن أن تخبرني عن المكان الذي تبيت فيه والسبب الذي يدعوك لذلك؟"
خلع حذاءه ومضى إلى الداخل دون أن يجيبها، صمتت هذه المرة طويلًا، اكتفت بمتابعته وهو يدخل الحمام حتى لا تثير الأمر أمام عمر، مكث فهمي في الحمام وقتًا أطول من المعتاد، ثم خرج وهو يجفف شعره بمنشفة

صغيرة، قبل أن ينزوي إلى غرفة النوم ولا يخرج منها. دخلت خلفه فرأته مضطجعًا على الفراش واضعًا يديه أسفل رأسه شاخصًا ببصره إلى السقف.

قالت بحدة:

"لماذا خنتني؟"

"من وضع في رأسك تلك الفكرة الغبية!"

هتفت محتدة:

"لقد ذهبت إلى شقيقتك البارحة، ثم خطر لي أن أسير في شوارع الأزهر والحسين قبل العودة إلى المنزل، وأثناء سيري في حي الأزهر، مررت أمام مقهانا المفضل لأتذكر لحظاتنا السعيدة فيه معًا، لكن كانت الصدمة الهائلة حين رأيتك تجلس مع امرأة أخرى في مكاننا المفضل وتضحك بملء فمك، لماذا خنتني يا فهمي؟ ."

اعتدل جالسا على الفراش وقال:

"إنها زميلة في العمل قابلتها مصادفة، حكت لي عن موقف طريف حدث مع أبيها فلم أتمالك نفسي وضحكت، فلا تتركي عقلك يهيئ لك أشياء لا وجود لها"

اتهمته بالكذب، والدليل على ذلك غيابه عن البيت بالأيام دون إبداء سبب واحد لهذا، أشاح بوجهه، انتظرته أن يدافع عن نفسه، لكنه ظل صامتًا، استطردت بصوت غاضب:

"عدت إلى المنزل وأنا أعاني انهيارًا كاملًا، حتى إنني نسيت أن أمرّ على "نجلاء" لألتقط ابني من عندها، ورغم حالتي النفسية الصعبة، قررت الاستمرار معك من أجل أن يحيا "عمر" في بيئة طيبة."

التفت إليها بحدة وهتف:

"كلا، ليس من أجل هذا، بل من أجل أن تظلي مسيطرة وتحوزين كل شيء، زوج مغفل، وابن بار."

أفصحت عيناها عن الاستنكار والحنق، هتفت:

"يجب أن ننفصل، لا أستطيع الاستمرار في الحياة معك."

"أنتِ انسانة أنانية لا تأبهين لأحد سواك، ولأنك اعتدت فعل ذلك تشعرين بغرابة أطواري وكأني يجب أن أكون طوع أمرك دائما."

وثب الذعر من عينيها، أردف:

" "بلى، المرأة التي تقرر الاستمرار مع رجل تعلم أنه يخونها هي لا تحبه، ولكن تحب نفسها فقط."

" حسنًا.. فهمت رسالتك، إذًا فلننفصل."

كان على وشك أن ينطق بكلمة الطلاق، لكن "عمر" طرق باب الغرفة فحال دون ذلك، قال وعيونه تلمع بالعبرات:

" هل ستطلق أمي يا أبي؟."

أسرع فهمي ينفي الأمر، أخبره أن هناك سوء تفاهم بسيط وقد انتهى تماما، طلب منه عمر أن يعده ألا ينفصلا، اربد وجهه، لكنه وجد نفسه مجبرا أن يمنحه ما أراد، عندما غادر "عمر" سألته:

"لما لم تخبره بما اتفقنا عليه؟."

قال بنبرة جافة:

" سأخبره بكل شيء عندما يأتي ليعيش معي."

"القانون لا يمنحك الحق في حضانة ابنك إلا إذا تزوجتُ، وأنا لن أفعلها أبدًا."

"إذًا، سنجعله هو من يقرر."

في تلك اللحظة، تجمدت ملامحها بين الصدمة والخوف، اتسعت عيناها، و .ارتجفت شفتاها دون أن تنطق بكلمة

*****

أسرعت "چيهان" الخطى عبر الرواق الواسع نحو غرفة مكتب مدير التحرير ودخلت دون أن تطرق الباب، رفع "أسعد" عينيه عن الأوراق التي أمامه في تساؤل، قالت بنبرة احتداد:

"لماذا كلفت "رانيا عاطف" ذلك التحقيق بدلًا مني؟ هل لأنني تأخرتُ لنصف ساعة فقط أخسر ذلك السبق الصحفي؟."

قال بنبرة حاسمة:

"نعم، في عملنا الدقيقة الواحدة تكفي لضياع فرصة ذهبية ربما لا يسمح القدر بتكرارها."

" لكني ما زلت أرى أحقيتي بذلك السبق الصحفي منها، خاصة وأننا منذ أن التحقنا بالجريدة لم تتفوق عليّ في خبر واحد."

تطلع إليها المدير لبرهة ثم قال:

"بالرغم من نبرتك الحادة المتعالية، إلا أن إصرارك الرهيب يصيبني دائمًا بالانبهار."

ابتسمت مزهوة وقالت:

"هل يعني هذا أنني سأقوم وحدي بذلك التحقيق؟."

"كلا، سأسمح لك بالمشاركة في تلك القضية جنبًا إلى جنب مع "رانيا"، ولنرى من منكما يمكنه جمع معلومات أكثر أهمية."

لاح في وجهها العزم والتصميم، قالت باسمة:

"أشكرك يا أستاذ "أسعد"."

ذهبت مسرعة نحو موقع الجريمة.. جريمة قتل امرأة لزوجها بتهمة الخيانة.

*****

جلست "سميرة" بمفردها ساهمة صامتة كتمثال من الشمع صنعه أحدهم بمهارة واقتدار، وجهها مشوب بالاحمرار، كانت تقدح زناد فكرها باحثة عن مخرج، فلم يعد لها جذور تتقوى بها بعد أن مات والداها وهاجر شقيقها الأكبر إلى أستراليا، والأصغر إلى ألمانيا، صارت كفرع شجرة سقطت أوراقه وأزهاره، بعد أن تيبس الجذع وانقطعت الجذور، تلك الجذور التي كانت في يوم من الأيام ممتدة إلى أعماق سحيقة.

استرجعت بذهنها أيام طفولتها البريئة، وحب والديها لها وتدليلهما إياها، خاصةً وأنها كانت الفتاة الوحيدة بين شقيقين. لكن بغتة.. انتهت تلك الأيام كومضة خاطفة، ثم وجدت نفسها زوجة قليلة الحيلة، يخونها زوجها ويهجرها، ولم يكتفِ بذلك، بل ينوي تطليقها وانتزاع ابنها من حضانتها رغمًا عنها.

شرعت تبحث خلال حياتها الزوجية الممتدة لعشر سنوات، عن أخطاء ارتكبتها هنا أو هناك، تراكمت وتفاقمت لتجد نفسها في هذا الوضع، لكن جاوبتها الحيرة بصمت ثقيل.

قامت وخرجت من المنزل، تاركة "عمر" نائمًا في غرفته بعد عودته مرهقًا من المدرسة، حملت حقيبتها ونزلت تمشي عبر الطرقات دون وجهة.
أطلقت بصرها وأذنها في كل مكان حولها باهتمام، مشت طويلا باتجاه منطقة شعبية، أول ما وصلت صدم مسامعها ضجيج سيارات يكاد يصم الآذان، بعض الأصوات الأخرى رفضت تهميشها لتدخل معها في منافسة حامية، أصوات باعة جائلين ينادون على بضاعتهم بأصوات رغم خشونتها لكنها تصنع لنحا شعبيا رائعا طربت له أذنيها، أغنية شعبية قادمة من نافذة مفتوحة في محل ملابس كبير، أرصفة تملأها شقوق تغمرها مياه متعكرة، أطفال يطاردون بعضهم وهم يطلقون صيحات عالية، قصاصات أوراق عالقة في الأركان أو تلتصق بإطارات السيارات أو مبعثرة تطارد الريح، مرّت بمحاذاة محل بقالة صغير يعج برائحة الخبز الطازج يتزاحم أمامه عدد من الأشخاص، متجر للملابس يعرض فساتين نسائية مختلفة الطرز والألوان، أحذية معلقة في واجهة زجاجية كبيرة.
وجوه كثيرة تمر عليها لا تعرف أصحابها، فتشعر أنها ذرة رمل وسط محيط من الرمال، رجل يسير الهوينى يتكئ على عصاه، امرأة تحمل حقيبة ثقيلة وتجر صبيها خلفها، وشاب يجلس أمام مكتبة صغيرة ينظر إلى هاتفه دون اكتراث بالعالم من حوله.
كل شيء حولها يبدو مألوفًا وغريبًا في آنٍ واحد، تشعر أن المدينة تنظر إليها، تراقبها، لكنها تؤثر الصمت.
في تلك اللحظة تعالى صوت أداة تنبيه سيارة خلفها، لم تلتفت خلفها فلم تكن تسد الطريق، لكن قائد السيارة بدا كما لو كان يتعمد استفزازها، دفعها الغضب لتلتفت إلى الخلف لتصيح به، لكنها فوجئت ب"نجلاء"، جلست بجوارها داخل السيارة، قالت لها:
" كنت قادمة إليك الآن، ما الذي تفعلينه هنا في هذا المكان وأين تركت سيارتك؟"
"شعرت بالملل فارتأيت أن أسير في الطرقات لأريح عقلي من التفكير".

لم تقتنع "نجلاء"، فقالت برفق يمتزج بعتاب:
"لن تخفي عني أسرارك، أنا صديقتكِ المقربة"
بعد لحظات ثقيلة من التردد، نطقت "سميرة":
" زوجي يخونني"
ارتسمت على وجه "نجلاء" دهشة بالغة، قالت:
"هل اعترف لك؟."
هتفت بعصبية:
"كلا بالطبع، لكني لا أحتاج دليل لهذا".
غمغمت "نجلاء "وسط دهشتها:
"من كان يظن أن "فهمي" يقدم على شيء كهذا؟."
لم تشاركها "سميرة" دهشتها، بقيت صامتة لفترة، ثم حكت لها بصوت متحشرج كل شيء منذ رأته يجلس مع تلك الشقراء، وحتى اللحظة التي تجلس فيها معها، الألم والحسرة كانا يتجليان في كل حركة من حركاتها، وفي كل تعبير جاثم على وجهها.
"ولماذا لم تطلبي منه الطلاق!"
"لأنني لا أريد أن أهدم ما بنيته طوال حياتي بسبب نزوة عابرة، أريد أن أمنحه الفرصة ليعود، ثم.. ثم إنني أخشى أن أخسر" عمر " إذا عرف أنني التي سعيت للطلاق وأفقدته الأمان الذي كان يتمتع به، وربما يبغضني لهذا فأخسر حبه للأبد.

طمأنتها "نجلاء" أنها ستكون الفائز في النهاية، وأن الزوج الخائن يخسر كل شيء بسبب خيانته، لذا ينبغي أن تبدو قوية أمام زوجها حتى لا يطمع فيها.
غمرت الدموع عينيها فاحتوتها "نجلاء" بين ذراعيها، لكن "سميرة" انتزعت نفسها من بين ذراعيها وقالت بنبرة حازمة:
"لن أسمح له بأن ينتزع "عمر" مني مهما حدث."
ردت "نجلاء" بامتعاض:
"القانون لن يسمح له بحضانته الآن إلا إذا تزوجتِ."

"أعلم ذلك، لكنه هددني بأنه سيترك القرار لـ"عمر"، وأنتِ تعلمين مقدار حبه لوالده."

" القانون هو الذي يقرر."

هزت "سميرة" رأسها، ثم همست بمرارة:

"بل "عمر" من سيقرر."

بقيت "نجلاء" تفكر للحظات، ثم سألت:

"وكيف ستتعاملين مع هذا الموقف؟"

قالت "سميرة" بنبرة قاسية:

"سأفعل كل ما يلزم، لكنني لن أتنازل عن ابني أبدًا."

تأملتها "نجلاء" بعينين جمعتا بين الدهشة والحيرة، فقد بدت لها "سميرة" في تلك اللحظة شخصًا لم تعرفه من قبل، رغم سنوات الصداقة الطويلة التي جمعتهما.

*****

عاد "فهمي" إلى منزله في المساء، باديا عليه الإرهاق. مسح على رأس "عمر" وهمس له بكلمات جعلته يضحك في غبطة. بينما تجلس "سميرة" على الأريكة تراقب المشهد في صمت.

تابعته بعينين حانقتين حتى دخل غرفته ولم يخرج، دخلت خلفه وسألته بتهكم لماذا قرر أن يبيت ليلته هنا ولم يبت عند عشيقته؟ قال بعصبية أنه يبيت عند أحد أصدقائه كما أخبرها في السابق، وأنه يفعل ذلك لأنه لم يعد يشعر بالسعادة معها، احتد صوتها عند سماعها عبارته الأخيرة وأصرت على الطلاق في التو واللحظة، هددته إذا ما حاول أن يأخذ عمر منها أنها سوف تدافع عن حقها في ابنها بكل شراسة، لكنه فضل عدم الدخول في جدال معها حتى لا يحتدم النقاش بينهما، وعدها بالانفصال في أقرب وقت، وأخفى رأسه تحت الوسادة، زفرت في غيظ، خرجت، حانت منها التفاتة نحو ابنها، الذي انهمك في تناول الحلوى التي أحضرها له والده، التمعت عيناها بالدموع، لكنها تماسكت، دخلت غرفتها وارتدت ملابسها، عادت إلى الردهة، طبعت قبلة خفيفة على جبين "عمر"

وأخبرته أنها ذاهبة إلى خالته "نجلاء"، هز رأسه بالموافقة وعاد ليستمتع بتناول الحلوى، همست بتهكم مرير:

" هذا الشبل من ذاك الأسد."

أخذت تتأمل الوجوه التي تقابلها أثناء قيادتها، متمنية أن تلمح تلك المرأة الشقراء فتدهسها بلا رحمة، لكنها وصلت المنزل دون أن تصادفها.

غمغمت وهي تصعد الدرج: "ماذا لو كنت صادفتها بالفعل، هل كنت سأتخلص منها لأزيحها عن طريقي إلى الأبد؟ أم كنت سأتوسل إليها أن تترك زوجي وتبحث عن رجل آخر؟."

فتحت "نجلاء" الباب ولم تستطع إخفاء دهشتها، دخلت "سميرة" وهي تقول:

"كنت أفكر في إنهاء حياتي، فقررت الهروب إليكِ قبل أن أفعلها."

ردت "نجلاء" مستنكرة:

"هناك ألف حل لمشكلتك، لكن الانتحار ليس من بينها بالتأكيد."

"امنحيني حلا واحدا".

"أنتِ بحاجة إلى طبيب نفسي."

هتفت "سميرة":

"وهل يستطيع الطبيب النفسي أن يعيد عقل زوجي إليه؟."

"الطبيب النفسي يرشدكِ لتسلكي الطريق الصحيح."

لم يبدُ على وجهها الاقتناع، فاستطردت "نجلاء":

"غدًا سأصحبكِ إلى الدكتور "جلال فوزي"، إنه طبيب لا يُشق له غبار."

لم ترد "سميرة"، أمسكت "نجلاء" بيدها وقالت:

" لا تتركي اليأس يسيطر عليكِ، أنتِ أقوى مما تظنين."

"لم أكن يومًا قوية، أنا فقط لم أخض تجربة حقيقية ليتكشف ضعفي."

ألحت "نجلاء":

" ما دمتِ اعترفتِ بضعفكِ، فابحثي عمن يشد من أزركِ ويقوي عزيمتكِ."

أومأت "سميرة" برأسها في صمت، ثم غادرت منزل صديقتها، لم تعد إلى منزلها مباشرة، بل ذهبت إلى المقابر.

في وسط الظلام، جثت "سميرة" أمام قبر والدتها، ومن بين دموعها المنهمرة وشهقاتها قالت:

"أعلم أنكِ في مكان أفضل يا أمي، فقد كنتِ امرأة صالحة، محافظة، لا تؤذين أحدًا، بينما أنا هنا في شر حال، أفكر في إنهاء حياتي لأدفن بجوارك وأهرب من شرور الحياة، لكني أدرك أنني إذا أقدمت على ذلك، فلن نكون متجاورين في الدار الآخرة، فالانتحار كفر، وأنتِ امرأة مؤمنة، لذا، أرجوكِ، ساعديني في الخروج من مأزقي قبل أن أفقد الأمل وأخسر كل شيء."

وقفت ببطء كأنما تقدم بها العمر عشرون سنة كاملة، ثم عادت إلى سيارتها، تاركة دموعها تنهمر.

*****

ألقت" شاهندا" كرة التنس إلى الأعلى، وتراجعت يدها الممسكة بالمضرب إلى الخلف قبل أن تقذف الكرة بقوة. اندفعت الكرة بسرعة نحو فهمي، الذي حاول صدها دون جدوى، فصاح:

"لا تظهري مهارتك على رجل غلبان مثلي يا حبيبتي، أنا ما زلت في المستوى الأول!"

أطلقت ضحكة صاخبة وهي تستعد لإرسال الكرة الثانية، وهتفت:

"لا تحاول إثارة شفقتي عليك يا حبيبي، فأنا قلبي جامد كالصخر، لا يحركه شيء."

ضربت الكرة بقوة أكبر، لكنه لم يتحرك من مكانه قيد أنملة لصدها. مطّ شفتيه وقال:

"لا أدري كيف لوجه ملائكي مثل وجهك أن يحمل بين ضلوعه قلبًا قاسيًا كهذا."

رفعت ذراعها استعدادًا لضرب الكرة الثالثة، وهتفت:

"أنا لا أشفق عادةً على من يتكاسلون عن أداء التمارين الرياضية حتى يصبحوا عاجزين عن الحركة!"

استفزه كلامها، فقفز بكل قوته نحو الكرة التي انطلقت نحوه كالصاروخ، لكنه تعثر مع الحركة المباغتة وتدحرج على العشب الأخضر. انطلقت من حنجرتها ضحكة صاخبة، وهي تتابع المشهد الطريف. تأمل جسدها الذي كان يهتز مع قهقهاتها القوية، ثم وقف واضعًا يديه على جانبيه، وقال معترضًا:
"أيسرك سقوطي المضحك إلى هذا الحد، أم عجزي عن ملاحقتك هو ما يصيبك بالزهو؟"

أشارت بإصبعيها نحوه وقالت بصوت ضاحك:
"كلاهما! أنت يا حبيبي، أمامك شوط طويل لتستعيد لياقتك البدنية التي حكيت لي عنها"
أمسك مضربه بحزم وقال:
"سأستعيدها في وقت قياسي، وسترين"

هزّت كتفيها النحيلين، رفعت المضرب وضربت الكرة التي كانت تسبح في الهواء ضربة عنيفة. نجح فهمي في صدها هذه المرة، لكنه أخفق في إرسالها داخل ملعب الخصم. شجعته بحماس لنجاحه في استقبال الكرة. جاء دوره لإرسالها نحوها، كان ينجح أحيانًا ويخفق أحيانًا أخرى، حتى هدّه التعب ولم يعد قادرًا على التقاط أنفاسه، فألقى المضرب وأشار لها أن تتوقف. استجابت له وألقت مضربها بدورها، وهي تنظر إليه بشيء من الشفقة.

سارا معًا حتى دخلا مبنى النادي لتغيير ملابسهما، ثم ركبت بجواره في السيارة، وانطلقا بها دون أن يتبادلا الحديث. التفتت إليه تتأمل وجهه السادر لبرهة، ثم قالت مازحة:
"هل هبطت عليك الحكمة بغتة فآثرت الصمت؟"

أخبرها عن نيته في تطليق سميرة وأخذ عمر ليعيش معه، بعد أن يوفر له حياة رغيدة. استعظمت شاهندا الفكرة التي تقوم على حرمان الأم من ابنها. كانت تعلم مقدار كراهية فهمي لزوجته واتهامه الدائم لها بالأنانية، لكن فكرة انتزاع الابن من أمه بدت لها قاسية للغاية. حاولت إقناعه بترك عمر مع والدته، لكنه كان عنيدًا في هذه النقطة تحديدًا.

سألها إن كانت ترفض الأمر لأنها لا تريد أن يعيش عمر معهما، فأقسمت له أن ذلك ليس السبب، لكنها اكتفت بأن أخذت حبيبها من زوجته، ولا تريد أن تبني سعادتها على تعاسة امرأة أخرى. في نهاية النقاش، أخبرها أنه سيفكر في الموضوع لاحقًا.

ذهبا مباشرة إلى مطعم شهير في وسط البلد لتناول وجبة غنية بالفسفور، قبل أن يعودا إلى شقتها الفاخرة.

***

استفاقت سميرة على رنين المنبّه الهادئ، مدت يدها وأطفأته، قاومت خمولها بعزيمة فاترة، ونهضت ببطء. فتحت الباب، فطالعها زوجها وابنها وهما يتناولان الإفطار. على مائدة الطعام، بدت لها الحياة وكأنها لا تنتظرها. هتف عمر بها حين رآها كي تأتي وتشاركهما الإفطار، نظرت إلى زوجها بعينين يملؤهما الترقب، لكنها لم تجد سوى البرود والتجاهل. تمتمت:

"سآخذ حمامًا دافئًا أولًا."

ناداها فهمي:

"سأصطحب عمر معي اليوم إلى الموقع."

تسلل الامتعاض إلى ملامحها، لكنها قالت بصوت هادئ:

"لا بأس."

أغلقت الباب خلفها، ثم احتلّ الامتعاض ملامحها بالكامل، وغمغمت بكراهية:

"لن أدعك تصل إلى مآربك يا فهمي، مهما حاولت"

اغتسلت، ارتدت ملابسها، تناولت إفطارها، كل ذلك وهي تبدو شاردة.
لاحقًا، ذهبت إلى نجلاء لاصطحابها إلى عيادة الدكتور جلال فوزي، الذي استقبلهما بحفاوة قائلا:

"يشرفني حضوركِ يا مدام سميرة، وأرجو أن أتمكن من مساعدتكِ في تخطي مشكلتكِ الراهنة."

رمقت سميرة نجلاء بنظرة لائمة لأنها أفشت سرّها قبل أن تلتقي بالطبيب، انسحبت نجلاء من أمامها والخجل يغطي ملامحها.
التفت الطبيب إلى سميرة، مرّر بصره سريعًا على وجهها المشوب بحزن لم يطمس عذوبته، ثم دعاها للجلوس. سألها عن حالها، فطمأنته. تأمل قلادتها المستقرة على نحرها، ثم قال باسمًا:

"هيا لنبدأ."

راقبته وهو يفتح ملفًا جديدًا ويكتب عليه اسمها بخط أنيق، ثم قال:

"السيدة سميرة يعقوب، خريجة كلية الآداب، قسم اللغة العربية. كنتِ تعملين بالتدريس، لكنكِ متوقفة عن العمل منذ فترة. لماذا؟"

"عندما فقدتُ جنيني للمرة الثالثة، سقطتُ في هاوية نفسية مظلمة.
توقفت عن العمل ريثما أستعيد طاقتي وشغفي، لكن هذا لم يحدث حتى الآن، للأسف."

هزّ رأسه متفهمًا، وضع الملف على مكتبه، وسألها:

"لماذا لم تلجئي إلى طبيب نفسي قبل الآن؟"

"لم أكن أظن أن حالتي تستدعي ذلك."

افتر ثغره عن ابتسامة خفيفة وهو يقول:

"أخبريني عن حياتكِ، ولا تخفي عني شيئًا، مهما بدا لكِ تافهًا، فكل تفصيلة قد تحمل بين طياتها الحل، إن أحسنّا استغلالها."

صمتت مترددة وهي تتأمل وجهه القمحي، شعره المنسق بعناية، وشاربه الأنيق، أخذت نفسًا عميقًا، ثم قالت بصوت مرتجف:

"حسنًا، سأخبرك بكل شيء."

"من البداية، منذ اللحظة التي بدأت عيناكِ تبصران الدنيا."
بدا على وجهها الريبة، لكنها سرعان ما دفعت الفكرة جانبًا وبدأت في سرد كل ما مر بها، منذ أن انفتحت عيناها على الدنيا حتى لحظة جلوسها معه.
ثم لاذت بالصمت. أما هو، فقد ظل صامتا لثوان، ثم رجع بظهره إلى الوراء، وقال بصوت هادئ:
"حسنًا، يمكنني تلخيص ما قلتِه في شعور واحد يسيطر عليكِ؛ غياب الأمان. خوفٌ يطاردكِ ويتشبث بكِ كظل ثقيل. أنتِ تعيشين في مقارنة دائمة بين حياتكِ السابقة، حين كنتِ تحت جناحي والديك، يغمركِ الاهتمام ويحيطكِ الأمان من كل جانب، وبين واقعكِ الآن، حيث يعصف بكِ الخوف تجاه زوجكِ، الذي يتهمكِ بالأنانية، ويزعم أنه وجد فتاة أحلامه، بعد أن يتخلص منكِ ويحرمكِ من ابنكِ للأبد."
ساد الصمت من جديد، بينما كان الغضب يرتسم على ملامح سميرة بوضوح.
تفحص "جلال" وجهها سريعًا، ثم قال:
"ولا أستطيع أن أنكر أيضًا أن لديكِ بعض الأنانية، كما وصفكِ زوجكِ."
حدقت فيه بذهول، فاستدرك برفق، وكأنه يحاول التخفيف من وقع كلماته:
"تلك الأنانية التي تحرّك رغبتكِ في السيطرة على من حولكِ، لتضمني أنكِ ستظلين موضع حبهم وعنايتهم. لكنه لم يفهم أن هذا لا ينفي حبكِ الحقيقي لهم، إنه فقط لا يستطيع رؤيته."
خرج صوتها حائرًا:
"لا أفهم ما تقوله."
استدار حول مكتبه وجلس أمامها مباشرة، نظر إلى عينيها، وقال:
"أنتِ امرأة جميلة، مرهفة المشاعر، نشأتِ في دفء عائلة تمنحكِ كل الحنان. وعندما تزوجتِ، كان الرجل الذي اخترته يظن أنه سيحتوي كل تلك الرقة، لكنكِ، بوعي أو بدونه، أحطتِ كل شيء حولكِ برعايتكِ الشديدة، فبدأ يشعر بالغيرة، ومن هنا ظن أنكِ تسعين للسيطرة عليه، فهرب إلى امرأة أخرى ظن أنها ستكون أسهل في قيادتها"

تسللت كلماته إلى أعماقها كماء يتدفق داخل أرض عطشى. شعرت براحة غريبة تتسلل إليها، كانت عيناها تغوصان في عينيه وتنجذب نحوهما، كمن يسقط في بئر بلا قاع، يشعر بالخوف لكنه لا يستطيع التوقف.

مال نحوها قليلًا، وقال:

"أخبريني عن زوجكِ."

وبلا تردد، راحت تحكي عن زوجها، وحين انتهت، سألته بلهفة:

"هل سيعود إليّ؟ هل سيترك تلك المرأة؟

"سأعمل على ذلك."

كانت نظرتها ملبدة بالأسئلة، لكنه تجاهلها. جلس خلف مكتبه مرة أخرى، قال باسمًا:

"إنه يعمل على إضعاف ثقتكِ بنفسكِ، وإذا استسلمتِ له، ستخسرين كل شيء. هل فهمتِ قصدي؟"

"نعم، فهمت يا دكتور، لن أمنحه الفرصة ليحطم ثقتي بنفسي"

قالت عبارتها بنبرة قوية، منحها ابتسامة واسعة، طلب منها زيارته الأسبوع القادم في الموعد نفسه. غادرت العيادة وهي عازمة على مواجهة التحديات بعزيمة لا تلين.

*****

وقفت "نجلاء" عند موقع انشائي تنتظر قدوم "فهمي"، أثناء وقوفها عادت بذاكرتها إلى نقطة بعينها، نقطة بدأت فيها ترى العالم بشكل مختلف عما كانت تألفه من قبل، كانت ما تزال في ريعان شبابها، تستقبل الدنيا بقلب فتي ونفس تواقة، تعشق التحديات، تتحدى المعوقات، وتراهن على الفوز، ثم التقت بحبيبها الأول، شعرت حينها لأول مرة بضعفها، واعترفت به، لم تكن تتخيل أن تقع تحت سطوة الحب، لكن هذا ما حدث، ولم تمهلها الحياة وقتا كي تراجع نفسها، وتتأكد من حقيقة مشاعرها، وصلابة موقفها، وعاشت قصة حب من طرف واحد، تقريبا، فلم يلتقيا إلا نادرا، ثم أنهت فترة الثانوية وتفرقا، ولم تعد تراه، وتفتت قلبها، لكنها قاومت ما كانت تشعر به حينها، جمعت الفتات وأعادت قلبها كتلة واحدة، لكن ليس بالصلابة ذاتها التي كان

عليها في السابق، وأكملت حياتها، امرأة بقلب مجمع من ذرات محطمة، لم تدر كيف اختفى هكذا دون مقدمات، وكأنه لم يكن له وجود إلا في خيالها، وبقي الشاب في ركن منزوي داخل قلبها يؤلمها كلما تحرك، وتبحث عنها كلما سكن، حتى قابلت حبيبها الثاني، و...

" نجلاء" كيف حالك؟"

انتزعتها العبارة الهادئة من بين مخالب أفكارها، هي تصبح أسيرة تلك الأفكار كلما اجتاحتها، وتشعر بالامتنان لمن يكون له الفضل في إعادتها إلى عالمها، حتى وإن كان عالم من الكوابيس المزعجة، لكنه يظل في نظرها أفضل من ذلك العالم المزيف الذي يمتص روحها دون رحمة، التفتت إليه عاجزة عن الابتسام، سألها "فهمي" إن كان هناك شيء، أخبرته أنها جاءت من أجل "سميرة"، تقلصت ملامحه، انقبضت أصابعه، حاول الهروب من الحديث حول ذلك الأمر محتجا بانشغاله بالعمل، لم تدع له الفرصة للفرار، قالت:

"لم أكن أظن أنك جاد في تركها من أجل"شاهندا"!"

"أنت تعلمين أنني معجب بها منذ أيام الجامعة"

"كان هذا قبل أن تقابل"سميرة" وتحبها"

"كان داخلي فراغ ملأته "سميرة" حينها، لكنها لم أحبها كما اعتقدت"

رمقته "نجلاء" بنظرة فاحصة، ثم قالت:

"وماذا سيكون مصير"عمر" بعد أن يفترق والديه"

"سيتألم ولا شك، لذا اعتقد أنه لو أتى للعيش معي سأنسيه مرارة انفصال والديه"

"و سميرة هل وضعتها في الحسبان، أم أنك ستتعامل معها كما لو كانت سرابا"

"لن أحرمها من رؤيته بالطبع في أي وقت تريده، إنها أمه، وأنا أريده أن ينشأ نشأة طبيعية"

"هل فكرت جيدا قبل أن تتخذ هذه الخطوة الخطيرة في حياتكما"

"بلى، وأظن أنني تأخرت في اتخاذ تلك الخطوة كثيرا"

حاولت "نجلاء" إعادته إلى صوابه، لكنه كان مصمما على الطلاق بشكل غريب، أما بالنسبة ل"عمر" فلم يكن لديه نفس الدرجة من التصميم لضمه إليه، حذرته أخيرا من أن تلك الخطوة ربما تقضي على "سميرة" التي لاذنب لها سوى أنها أحبته، وكانت دهشتها العارمة عندما قال أن "سميرة" كانت ناضجة كفاية لتكون عن تصرفاتها، وعندما لم تجد فائدة من الكلام معه ذهبت، بينما كان ذهنها يقارن بينها وبين "سميرة" في نفس المصير، الذي تأخر قليلا مع صديقتها، بينما لم يمهلها هي لتستمتع بحياة زوجية سعيدة، حتى لو كانت قصيرة.

*****

هتفت "چيهان" مستنكرة"

"لابد أنك مخطئة!"

"إنها الحقيقة"

بدمع متحجر في عينيها، وبأنفاس ساخطة، أخبرتها بما رأته في ذلك المقهى بعد أن غادرتها مباشرة. عندما انتهت، قالت "چيهان:"

" لكن هذا لا يعني أنه على علاقة بها"

أخبرتها "سميرة" بالنقاش الحاد الذي دار بينهما منذ يومين، وأنها صارت متأكدة أنه على علاقة مباشرة بتلك المرأة، وليس مجرد ميل عاطفي، وأن تلك المرأة سبب تغيره وكراهيته لها ونفوره منها، أفهمتها أن سبب تقربه من "عمر" تلك الأيام مجرد محاولات للتأثير عليه وكسبه إلى صفه، ومحاولة خسيسة أيضا لبث الخوف في قلبها وإضعاف ثقتها بنفسها، أكدت لها "چيهان" أن القانون لن يسمح له بأخذ ابنه للعيش معه، وأن خوفها من تلك النقطة بالذات يؤكد أنه نجح بالفعل في إفقادها ثقتها بنفسها، اعترضت "سميرة" على تلك النقطة وأن خوفها من فقده طبيعي وله أسبابه، ف"عمر" طفل مثل أقرانه يتأثر بوالده الذي يستغل حبه له للتأثير عليه.

كادت "چيهان" تنطق بما يدور في عقلها، لكن صوت طرقات خفيفة على الباب قطع أفكارها، وقف "فهمي" على عتبة الباب، في حين سار "عمر"

نحو أمه وعمته ليصافحهما، دعته شقيقته للدخول، رمق **"فهمي"** زوجته بنظرة سريعة وقال:

"ليس الآن"

أشار إلى **"عمر"** أن يتبعه قائلا:

"هيا، ما زال لدينا الكثير من الأماكن لنزورها."

هتفت **"سميرة"** في حنق:

"هل تظن أنك بهذه الأفعال المفضوحة ستنتزع **"عمر"** مني؟ أنت واهم، ابني سيظل معي حتى أموت."

بدا **"فهمي"** غير مكترث لما تقول، أشار إلى عمر إشارة صارمة، تردد الصبي للحظات، تبادل النظرات بينهما، لكنه في النهاية استجاب لوالده، الذي سحبه من يده بسرعة واختفيا من أمامها كشبحين.

غمغمت **"چيهان"** وهي تربت على كتفها:

"ستعود المياه إلى مجاريها، المهم ألا تفقدي أعصابكِ فتخسري كل شيء."

"كل المشاكل نبتت من تحت رأس تلك الأفعى، وإذا لم أواجهها، سأخسر كل شيء."

قالت **"چيهان"** محذرة:

"إياكِ أن تفعلي شيئًا تندمين عليه طيلة حياتك."

بابتسامة شاحبة أجابتها:

"اطمئني، لن يصل الأمر إلى حد القتل أبدا."

صمتت **"چيهان"** بينما كانت ترمقها بنظرة متوجسة، لم تنجح ابتسامتها الهادئة في خداعها ومحاولة إخفاء مشاعر الغضب أسفلها، لكنها لم تعرف بالتحديد ما تنوي **"سميرة"** فعله في هذه المرحلة الحرجة من حياتها، حيث كان كل شيء قاب قوسين أو أدنى من الانفجار.

بينما كانت "سميرة" عائدة إلى شقتها فكرت أنه ليس من الحكمة أن تتركه ينفرد بـ"عمر"، لا بد أن تميل الكفة لصالحها دون إضاعة الوقت.

استغلت اعتدال الطقس قبل حلول الشتاء لتصحب "عمر" في صباح اليوم التالي في رحلة يعشقها، محاولةً محو ما رآه مع والده من ذاكرته.
دخلت غرفته وأيقظته قائلة:

"هيا، سنسافر إلى الإسكندرية التي تلح على السفر إليها منذ عام!"

بالرغم من دهشته، تهلل وجهه، هب واقفا وأخذ يقفز على السرير والسرور يغمر وجهه، ابتسمت "سميرة" في سرور، ارتدت ملابس زاهية، انتظرت حتى تجهز "عمر"، ثم نزلا السلم بخفة وركبا السيارة. هتف "عمر":

"أنا واثق أن هذه الرحلة ستكون أفضل من نزهة أبي بالأمس!"

كانت كلماته سهمًا أصاب هدفه بدقة، إذ أثلجت صدرها ورقص قلبها طربًا، بان ذلك على ملامحها التي كانت تنطق بأمارات الظفر.

انطلقت في الصباح الباكر لتقضي اليوم بأكمله معه. عند الساعة التاسعة، وصلا إلى "سيدي جابر". توجهت مباشرة إلى مطعم يقدم الحواوشي الإسكندراني، جلسا يتناولان الطعام بشهية، وبدا "عمر" سعيدًا للغاية، يلتهم شطيرته بقضمات كبيرة، تتخللها ابتسامات دافئة من أمه كلما التقت أعينهم. طلب شطيرة أخرى، وبعد أن انتهيا، دفعت "سميرة" الحساب، ثم ضغطت على يده وغمزت بعينها قائلة:

"لم نبدأ متعتنا بعد!"

ضرب "عمر" الأرض بقدميه في غبطة، وانطلقا إلى ملاهي "المعمورة"، حجزت له عدة تذاكر وجلست تراقبه وهو يتنقل بين الألعاب المختلفة. كانت البهجة تغمر ملامحه، وتبعث الحياة في قلبها، لكن سحابة رقيقة من القلق كانت تعبر وجهها بين الحين والآخر.

بعد أن أشبعته الألعاب، اصطحبته للتنزه على شاطئ المعمورة، كانت تركض خلفه، ويزوغ منها، في مشهد ملأه المرح والبهجة، حتى أنهكهما التعب، فجلسا يستريحان، احتضنته برفق، انفرجت شفتاها لتسأله عن مقدار حبه لوالده، لكنها خشيت أن تسمع إجابة تخذلها فآثرت الصمت، نظرت إلى ساعتها وقالت باسمة:

"حان موعد دخول السينما، يا عمر!"

أطلق صيحة ابتهاج كبيرة، طلب مشاهدة فيلم "سبايدرمان" الأخير. أومأت برأسها موافقة، وذهبا فورا إلى سينما "الأميرات".
عند انتهاء الفيلم، كانت الشمس قد آذنت بالمغيب، فاستقلا السيارة عائدين.
كان وجه "سميرة" يرتسم عليه شعور عميق بالراحة، بعدما حظيت بهذه الرحلة القصيرة مع "عمر"، والتي قررت أن تستغل تأثيرها لكسبه إلى صفها، إذا جدّ الجد واحتدمت الحرب المستعرة منذ شهرين تقريبًا.
بينما كانت تقود السيارة عائدة، ألقى "عمر" رأسه على كتفها هامسًا:
"أحبكِ يا أمي"
ابتسمت وهي تربت على كتفه بحنان، لكنها لم تغفل عن تلك الغصة التي سرت في قلبها؛ فالحرب لم تنتهِ بعد، وما زالت تخشى أن تكون هذه الرحلة مجرد هدنة قصيرة قبل المواجهة الكبرى.

*****

عند حلول المساء، جاء "فهمي" للاطمئنان على "عمر" متجاهلًا زوجته التي تجلس في الشرفة، والتي تعمدت عدم الالتفات إليه بدورها. قال لابنه بصوت خفيض ماكر:
"غدًا سأصطحبك في جولة إلى القلعة والمنطقة المحيطة بها"
غمرت السعادة قلب الصبي، وبدأت أفكاره تحلق في السماء، وذهنه يتخيل تفاصيل الرحلة القادمة.
لم تسمع "سميرة" العبارة لكنها فهمت مراده فاكفهر وجهها، لم تتمالك نفسها أن صاحت أمام الصبي:
"ورقة الطلاق يجب أن تصلني في الغد، ولا أريد أن أراك هنا بعد الآن، هل تفهم؟"
طلب "فهمي" من "عمر" الدخول لغرفته، ثم أخبرها أنه سيفعل ذلك كما وعدها، ولكن يجب أن يحدث ذلك دون أن يحس الصبي بشيء حتى يكبر ويستطيع تقبل الأمر دون أن يقع أذى نفسي له، لم تأبه "سميرة" لقوله وألحت على طلب الطلاق حتى تنتهي تلك المأساة اللعينة، وهددته أنه إذا لم

يفعل فستوكل محاميا ليفعل ذلك، ولن يهمها ما سيقوله الناس، غادر "فهمي" المنزل وذهنه مشغول، ذهب إلى منزل "شاهندا" ليقضي ليلته هناك، وفي شرفة منزلها جلسا يتناولان أطراف الحديث وطعاما خفيفا حتى ساعة متأخرة، دون أن يفاتحها في موضوع طلاق "سميرة". وفي هدأة الليل، تبادلا نظرات تخفي شغفًا وولعًا، قاما على إثرها ودخلا غرفة نومها ليكملا السهرة، لكن مع أخذ منعطف آخر، منعطف لا يحمل بين طياته سكونًا.

في الصباح، وبعد أن تشاركا وجبة الإفطار، انطلق إلى عمله بروح مليئة بالنشاط والحيوية رغم الإرهاق الرابض في خلاياه. أنهى عمله قبيل غروب الشمس، التي تلونت بلون برتقالي شاحب استعدادًا لوداع هذه البقعة من السماء، والانتقال إلى بقعة أخرى في رحلة سرمدية. قاد سيارته عائدًا إلى منزله بسرعة رغم ازدحام الطريق السريع بالسيارات في هذا التوقيت.

كان ذهنه منشغلًا برسم مستقبل جديد، مستقبل رآه مشرقا إلا من وجود بعض الغيمات التي سوف يتعامل معها كما يجب.

بينما كان غارقًا في أفكاره انطلق رنين الهاتف، ألقى نظرة على الشاشة وابتسم، قال بمرح:

"أهلا بحبيبتي التي سلبت قلبي منذ أيام الجامعة"

ردت "شاهندا" بدلال:

"لو كنت صادق حقًا لما انتظرت كل هذه السنوات لتصارحني بحبك"

ضحك بصوت عال، قال:

"لم يكن لدي فرصة وسط هؤلاء المعجبين الذين كانوا يحيطون بك كأخطبوط عاشق"!

"دائمًا تفتقر إلى الثقة بالنفس"

هتف بحماس:

"سترين ما سأفعله لأجلك في الأيام القادمة"

لكن بغتة تحول صوته إلى صرخة رعب:

"شاهندا... سأموت"!

صك سمعها صوت ارتطام عنيف، تلاه صمت مرعب، ولم يبقَ سوى أصوات النيران وهي تلتهم شيئًا ما.

*****

وقع الخبر على رؤوس الجميع كالصاعقة. لم تستطع "چيهان" تصديق موت شقيقها فصرخت:

"لم يمت "فهمي"، إنه في غيبوبة وسيستيقظ منها قريبًا"!

أما "سميرة" فقد ألجمتها الصدمة، لم تستطع أن تستوعب أنه فارق الحياة بهذه البساطة، كأن القدر عاقبه سريعًا على الظلم الذي أوقعه بها.

في ركن منزوي، كان "عمر" يبكي بحرقة، يتمتم باسم أبيه وسط دموعه الغزيرة

عندما خرج الجثمان تبعه الجميع إلى مثواه الأخير. وبين الحشود وقفت امرأة تغطي رأسها بغطاء شعر أسود، لم ينجح في إخفاء خصلات ذهبية تمردت على الستر. ومن بعيد لمحتها "سميرة"، وعرفتها على الفور، وعلا وجهها نظرة غضب ناقمة. لوهلة كادت تهرع نحوها عازمة على دفنها بدلًا عن زوجها.

لكن وسط هذا الإعصار من المشاعر، تمكنت من كبح جماح نفسها بصعوبة بالغة، وتوعدت أن يكون انتقامها قاسيًا، لكن في الوقت المناسب.

في خضمّ هذا الغضب الذي يلتهمها تساءلت ذاهلة":كيف تجرأت تلك الوقحة على حضور جنازته وكأنها زوجته الشرعية؟"

ثم اقتحم ذهنها سؤال مرعب: "ماذا لو كانت في عصمته بالفعل؟"

ارتجفت أوصالها لبشاعة الفكرة، نظرت مرة أخرى إلى حيث تقف تلك المرأة، رأتها تبكي بينما تنظر إلى الجسد المسجى استعدادًا لدفنه.

حاولت "سميرة" طرد كل وساوسها وركزت في المشهد الجلل أمامها؛ جسد زوجها ملتف في أقمشة بيضاء كمومياء فرعونية، يحمله عدة رجال وينزلون به إلى فتحة في جوف الأرض، ليستقر بها ممددًا حتى النشور.

لم تتحرك من مكانها حتى أُغلقت الحفرة ووُضع الشاهد فوق القبر. نظرت بعينين دامعتين إلى الشاهد الذي كُتب عليه اسم زوجها وتاريخ ولادته ووفاته، وشعرت بمرارة عميقة تجتاحها.

رغبة مجنونة تدفعها للانقضاض على تلك المرأة، فتقبض على عنقها بأصابع مشبعة بالقسوة، ولا تتركها إلا جثة هامدة.
لكن عندما استدارت نحوها وجدت مكانها خاليًا، بحثت عنها بعينين محمومتين حتى يئست من العثور عليها، أدركت أنها فرّت من المواجهة.
جعلها اختفاؤها تتخفف من حزنها بعض الشيء، فانشغلت بتلقي العزاء، تصافح المعزين بأيدٍ مرتجفة وقلب مثقل بالأسى.
ثم فجأة، وكأن الزمن قد توقف قسرًا وغمر الكون سكون مهيب، حين وقفت أمامها المرأة وجهًا لوجه. تفحصت زيها الأسود، تجمد بصرها عند خصلات شقراء تنسدل من تحت غطاء الرأس، تبرق في تناقض صارخ مع الحزن المحيط بالمكان.
لوهلة ظنت أن عينيها تخدعانها، ولتتأكد مما تراه، مدت أصابعها وقبضت على كفها، عندها تيقنت، ودبّ الغل في قلبها كبركان ثائر، أرادت أن تلقي عليها حممه الملتهبة لتحترق وتستحيل إلى رماد، لكن شيئًا في عينيها الخضراوين الحزينتين دفعها لتوصد فوهة بركانها، مؤقتًا.
قالت "شاهندا" بصوت خفيض بالغ التأثر:
"البقية في حياتك، لقد كان مصابًا فادحًا لنا جميعًا."
سألتها "سميرة" بصوت مشحون بالانفعالات:
" ومن تكون تلك الفاتنة التي يظهر في عينيها كل هذا الحزن على وفاة زوجي؟."
بدا عليها الارتباك لحظة، ثم قالت متلعثمة:
"أنا زميلته في العمل."
على الرغم من الظرف الدقيق، سألتها "سميرة" في فضول:
"ما اسمك؟."
أحست بالخوف للهفتها لمعرفة اسمها، لكنها قالت:
"شاهندا".
أومأت "سميرة" برأسها وعيناها تلمعان بلمعة الظفر، تركت يدها بعد أن حفرت ملامحها في ذهنها بقوة، ثم همست بصوت لا يسمعه سواهما:
"لا أستطيع الآن لوم "فهمي" حين قرر هجري من أجلك."

اتسعت عينا "شاهندا" في خوف:

"كيف عرفتِ؟ هل أخبرك؟."

لم تكن "سميرة" تميل للكذب في العادة، لكن غيرتها الشديدة دفعتها لتقول:

"لم يكن "فهمي" يخفي عني سرًا."

انسحبت "شاهندا" من أمام غريمتها، أسرعت نحو سيارتها وانطلقت بها، مثيرة خلفها عاصفة من الأتربة. تابعتها "سميرة" بعينين متوقدتين، وأحست براحة حقيقية لأول مرة منذ بدأت نكبتها.

*****

جلس الدكتور "جلال" في عيادته، محاطًا بالهدوء الذي يُميّز المكان، أشعة الشمس تتسلل عبر النوافذ في خلسة، ترسم خيوطًا من الضوء على الأرضية، بينما كانت تجلس "يسرا" أمامه، تنساب دموعها بغزارة تعكس ما يدور في أعماقها من مرارة.

اخترقت عينيه صفحة وجهها الممتلئ بحمرة الغضب، راقب عواصف الانفعال التي تجتاحها، هبطت نظراته إلى رقبتها المكتنزة، حيث العروق النافرة تعكس انفعالها العنيف. لم يكتفِ بذلك، بل أخذت عيناه تتجولان، تستكشف بعنفوان جسدها البض، تتسلل عبر طبقات الألم التي تحتجب تحت سطحها.

بصوت عميق وحازم حطّم "جلال" صمت الغرفة:

"ما المشكلة يا مدام "يسرى"؟."

توقف النبض في قلبها للحظة، نشجت مرتين متعاقبتين، لتخرج الكلمات أخيرًا من بين شفتيها:

"اكتشفت أن زوجي يخونني، بالأمس هممت أن أذبحه وهو نائم، فمنعني هلعي من أن يكون جزاء قتله الإعدام، أخبرتني إحدى صديقاتي أن أذهب إلى طبيب نفسي، وأشارت إليك بالتحديد."

أومأ " جلال" برأسه متفهما، سألها:

"هل واجهتهِ بما عرفتيه عن علاقته السرية؟"

"كلا.. خشيتُ أن يؤدي الأمر إلى الطلاق وأخسر كل شيء."

قلب جلال شفتيه مظهرًا امتعاضه وقال بنبرة حازمة:

"نتيجة لكبتكِ مشاعركِ العنيفة، كان الأمر سيقودكِ إلى جريمة شنيعة، ستجدين نفسكِ أمام القاضي، ولن يلتفت لاتهامكِ له بالخيانة، ولا إلى توسلاتكِ وبكائكِ الحار."

" هل تنصحني بمواجهته؟"

"بالتأكيد. لا يمكنكِ العيش معه دون أن تواجهيه بجريمته، إذا لم تفعلي، قد تندفعين لقتله في لحظة ضعف، ثم ماذا؟ الإعدام! ."

هزت رأسها يمنة ويسارًا في ذعر، نهضت واقفة وقالت:

"أشكرك على نصيحتك الغالية يا دكتور جلال."

نظر إليها بعناية، ثم قال مبتسمًا وهو يقف بدوره:

"لكن علاجكِ لم ينتهِ بعد."

تطلعت إليه متسائلة، فأردف:

"الكبت الذي تعانين منه لن يختفي بمجرد المواجهة أو الطلاق، تحتاجين لحضور جلسات منتظمة لتفريغ هذا الضغط العاطفي حتى لا تتفاقم حالتكِ، فالطلاق بسبب الخيانة لا يكون سهلًا على أي امرأة مهما كانت صلبة."

شدد" جلال" على يدها، لكن "يسرا" شعرت بخجل وسحبت يدها بسرعة، لم تنمحي ابتسامته وهو يقول:

"سأنتظرك يومي الأحد والأربعاء من الساعة الرابعة حتى الخامسة، هل يناسبك هذا الموعد؟"

"نعم، مناسب تمامًا."

أجابت باسمة وهي تشعر براحة تسري في أعماقها، الشعور بالراحة لم يكن هو الشعور الوحيد الذي تملّكها؛ كان هناك انجذاب نحوه بشكل لم تفهمه تمامًا، رغم أنها لم تعرفه إلا منذ دقائق قليلة.

بدت لها نظراته وكأنها تحمل شيئًا جاذبًا، مثل شعاعين متسلطين يخترقان حواسها، تسيطران عليها بقبضة محكمة، صوته العميق كان يجذبها ليغرقها في قاعه، تمامًا كما حدث لها في السنة الماضية عندما كادت تغرق في شاطئ النخيل.

استمرت تلك المشاعر تتعاظم في داخلها، حتى ركبت سيارتها وانطلقت بها مغادرة العيادة.

عاد "جلال" ليجلس خلف مكتبه، فتح أحد أدراجه بمفتاح خاص وأخرج ملفًا يحتوي على عدة أوراق، اختار ورقة فارغة وبدأ يدون فيها بعض الملاحظات حول مريضته الجديدة باهتمام بالغ.

بعد ذلك أغلق الدرج بحرص، أمسك هاتفه ليجري اتصالًا بـ"نجلاء" وسألها عن "سميرة"، قالت:

"هي الآن أفضل بعض الشيء، لكن لا تنسَ أن الحادث كان له تأثير قاسٍ عليها."

"أعلم ذلك، لكن عليها أن تنهض من كبوتها وتعود أفضل مما كانت عليه، ويجب أن تحضر عدة جلسات هنا في أقرب وقت."

"حسنًا، سأرى ما يمكنني فعله."

أغلق الهاتف ووضعه أمامه، التقط سيجارة وأشعلها بقداحته الذهبية، وعاد بظهره إلى الوراء في استرخاء تام.

*****

دفنت "شاهندا" وجهها بين ذراعيها، تبكي كما لم تبكِ من قبل. لم تصدق النهاية السريعة لـ"فهمي". تساءلت في حيرة: "هل هذه عدالة السماء؟"

لقد كانا يعيشان حياة سعيدة لم تشعر بها من قبل في زواجها التعيس، ذلك الزواج الذي قضت فيه عشر سنوات من حياتها مقابل لا شيء. فالملايين التي تملكها في حسابها البنكي لم تستطع أن تمنحها جنينًا مكتملًا، ولم تستطع علاج زوجها من العقم، ولم تمنحها السعادة التي كانت تتوق إليها. كل ما شعرت به هو الوحدة والحرمان.

هناك عند قبره، حاولت أن تبدو صامدة أمام "سميرة" حتى لا تشعر بضعفها، لكن ذلك كان أكبر من طاقتها. فبمجرد أن عادت إلى المنزل، انهارت. لم تؤذها نظرات غريمتها، فهي لم تختطفه منها، بل هو من جاء إليها وعبّر لها عن حبه، وهي لم ترفض، ولم تكن لتفعل، فلكل مخلوق فرصة واحدة فقط، ولو أضاعها، فليس من حقه أن يعترض، وهذا -في نظرها- خطيئة "سميرة"

أنها لم تحافظ على نصيبها من السعادة، وعندما جاءها الحظ على طبق من ذهب، لم تكن لتسمح بإضاعته، حتى لو كان ذلك على حساب سعادة امرأة أخرى. فهكذا الدنيا، لا ترحم أحدًا.

لكن القدر لم يمهلها كي تنعم بحياة سعيدة تاقت إليها طويلا. إنها لا تفهم لماذا حدث هذا، هل أخطأت في شيء؟ هل أخذت ما لا تستحقه؟ أم أن "فهمي" كان نصيبه من الحياة ضئيلا؟ إنها لا تشعر بأي ندم، بل تشعر بالظلم تجاه الحياة التي أخذت منها أكثر مما تستحقه.
نشجت مرتين متتاليتين، ومسحت دموعها الغزيرة. بدا وجهها كخرقة بالية بعد بكاء استمر لساعات. قاومت خمولها لتنزل من الفراش، نجحت أخيرًا. دخلت الحمام، غسلت وجهها بالماء، ثم جففته بمنشفة صغيرة. نظرت إلى وجهها في المرآة، فتبدى لها وجه امرأة أخرى غير التي تعرفها، امرأة أكبر سنًا، يائسة، فزعة، لم تعرف السعادة قط. طفرت الدموع من عينيها، ففتحت الصنبور وغسلت وجهها مرة أخرى، ثم غمغمت وهي ترمق انعكاسها في المرآة:
"لماذا تبكين؟ ألستِ أنتِ من وافقتِ على ذلك المسن من أجل أمواله؟ رحتِ ترددين عبارات خادعة مثل؛ ليس المهم في الرجل عمره، الأهم هو خبرته، الرجل البالغ يكون جادًا بخلاف الشاب الذي ينظر إلى الحياة نظرة عابثة، الرجل البالغ يفهم احتياجات المرأة، لكن الشاب يفهم احتياجاته فقط"

رمقت انعكاسها في المرآة بنظرة مبغضة، قالت من بين أسنانها:
"ما الذي استفدتِه من وراء تلك المقولات الفاسدة؟ لا شيء، إلا بضعة أموال كانت سبب شقائك وحسرتك. اللعنة عليكِ وعلى طمعكِ الذي لا حدود له! تحسري كما تشائين، فلن تنفعكِ الحسرة، ولن يغير الندم شيئًا. لن يعيد لكِ شبابكِ، ولن ينجب لكِ ابنًا. ستظلين هكذا وحيدة، دون أنيس، ولا محب."

شعرت بألم حاد مباغت في بطنها، فمالت إلى الأمام وهي تتأوه. لأول مرة تشعر بألم في هذا الموضع. استفرغت ما في جوفها في حوض الوجه،

خرجت من الحمام بصعوبة، التقطت هاتفها واتصلت بطبيبها الخاص. بعدما شرحت له حالتها، طلب منها أن تستخدم أداة فحص الحمل. لم تصدق ما سمعته، طلبت منه أن يعيد على مسامعها عبارته الأخيرة، فأعادها وهو يضحك. شهقت من الفرح، ثم كتمت شهقتها بكف يدها، طفرت الدموع من عينيها. أغلقت الهاتف، وألقته على الأريكة، ثم عادت أدراجها إلى داخل الحمام.

حملقت في المرآة، هالها وجهها المبتهج الساطع كالشمس. تناولت من أحد الأدراج أداة فحص الحمل، أغلقت الباب خلفها رغم أنها بمفردها. خلعت ملابسها، وأجرت الفحص. لحظات، ثم أخرجت الأداة وقلبها يرجف. نظرت إليها، ثم انطلقت من حلقها شهقة فرح عارمة. انساب السرور من وجهها، تمتمت من بين دموعها: "حبيبي يا فهمي، ابنك يرقد في بطني الآن، ينتظر الخروج إلى النور، ليته يشبهك تمام الشبه، حتى يذكرني بك دائمًا."

انهمرت دموعها تغسل نفسها من الأحزان، ثم هدأت واستكانت. ارتدت ملابسها، غسلت وجهها جيدًا، صففت شعرها بعناية. انتصبت قامتها في اعتداد، وقالت وهي تنظر في المرآة:

"لا بد أن أزور قبر فهمي، لأخبره يقرب مجيء ابنه إلى الدنيا، حتى يهنأ."

حاولت "سميرة" احتواء ابنها الذي كان يبكي دون توقف، احتضنته هامسة:

" والدك لا يحب أن يراك على هذا النحو أبدًا."

لم تنجح كلماتها في حبس دموعه، فغمغمت:

"لقد ذهب إلى مكان أفضل من هنا.. الجنة."

"أريد أن أذهب إليه."

اجتاح وجهها الامتعاض، قالت:

"والدك سعيد للغاية هناك، لكنه سيكون أكثر سعادة إذا توقفت عن البكاء وعدت لمدرستك وناديك."

صاح بعناد:

"لن أتوقف عن البكاء، ولن أعود إلى مدرستي حتى يعود أبي أو أذهب إليه."

أشاحت بوجهها حتى لا يرى سحنتها الغاضبة، تجاوزت مشاعرها بصعوبة قائلة:

"سأعد لنا الطعام، فلم يدخل جوفنا شيء منذ البارحة، وسنصاب بالإعياء إذا استمررنا على هذا النحو."

وافق "عمر" مرغما، وأثناء إعدادها الطعام، توقفت لتسترجع ذكرياتها مع زوجها. كانت الأسئلة تتخبط في عقلها: "لماذا انقلبت حياتها رأسًا على عقب بعد أن كانت تسير على أكمل وجه؟."

لم تذكر يومًا أن "فهمي" أبدى نحوها شكوى واحدة، بل كانت تشعر أحيانًا أنها تعيش حلمًا جميلا، وكان هذا سر تعاستها؛ الخوف من أن تُسلب سعادتها. ورغم حذرها البالغ حدث ما كانت تخشاه دومًا، واختطف القدر سعادتها، وذاق "عمر" مرارة الفقد.

فكرت بغيرة: "هل كان سيحزن عليها "عمر" كما حزن على والده؟" لكن سرعان ما زجرت نفسها: "لا ينبغي أن أشعر بالغيرة من رجل رحل عن الدنيا بأسرها."

لكن هذه المشاعر لم تكن لتزول حتى تعرف كيف حدث هذا الانقلاب الهائل في حياتها، فكرت أن تنشب مخالبها في جسد المرأة التي اقتحمت حياتها واختطفت زوجها من بيته كالأفعى الرقطاء. إنها لا تستطيع أن تنسى وجهها، وكذلك ماركة سيارتها ورقم لوحتها.

عادت إلى الصالة حاملة صينية الطعام، لكن وجهها احتقن عندما رأت "عمر" قد استسلم للنوم، حاولت إيقاظه فلم يستجب. حملته إلى غرفته وأرقدته على الفراش. لم تكن لديها الرغبة في تناول الطعام فنامت بجواره، دون أن يبارح ذهنها وجه "شاهندا" أبدًا.

استيقظت "سميرة" مع تباشير الصباح، حملت العشاء الذي لم يُمس، وشرعت تعد طعاما جديدًا بينما تشعر بدوار يغريها لتسقط، عادت إلى الغرفة لتوقظ "عمر، الذي قال بصوت متناوم :

"أكلت مع أبي بيتزا."

بُحّ صوتها وهي تطلب منه أن يعيد ما قال، كرر عبارته، فذرفت عيناها دموعًا غزيرة، تركته يعود لنومه ونامت بجواره تاركة الطعام على المنضدة الصغيرة. وبعد ثلاث ساعات استيقظت بفعل الجوع الذي ينهش أحشاءها.

أيقظت "عمر" الذي لم يستغرق إلا ثوانٍ هذه المرة قبل أن يفتح عينيه. ساعدته ليغسل وجهه، أسندته ليجلس أمام المائدة. قالت في عتاب:

"هل رأيت ما فعله بك عنادك؟ أنت لا تستطيع السير لأنك لم تأكل منذ مساء أمس"

صاح مبتهجًا:

"لقد أكلت مع والدي بيتزا في المطعم الذي اعتدنا أن نأكل فيه."

"كان هذا حلمًا."

"كلا."

ناولته شطيرة جبن وطلبت منه برفق أن يشاركها الطعام، قضم قضمة صغيرة وقال بحزن:

"أكلت مع أبي ثم رحل فجأة، لكنه لم يخبرني إلى أين سيذهب."

منحته ابتسامة حانية وهي تخبره أنه ذهب إلى الجنة، سألها:

"وهل سنذهب إليها أيضًا؟."

أومأت برأسها، تهلل وجهه وصاح:

"أريد أن أذهب أولًا."

انقبضت ملامحها، قالت بعصبية:

"والدك رحل ولن يعد، وأنت بحاجة إلى الطعام حتى لا تصاب بالإنهاك وتسقط مغشيًا عليك."

حدّق في وجهها الغاضب، ثم تناول طعامه باستسلام. لكنه نظر إليها مجددًا وقال بعناد:

"أريد أن أزور قبر أبي."

اغتصبت ابتسامة قائلة:

"أنهِ طعامك بالكامل وسأصطحبك لتزور قبر والدك."

لم تكن على استعداد لتزور قبره، لكن "عمر" لم يكن ليهدأ حتى يرى المكان الذي يضم رفات والده.

وأمام القبر الصامت، عاودها صخب ذكرياتهما معًا، رغم إصرارها على الجلد، هزمتها دموعها وانهالت مدرارًا. لكن "عمر" سألها بغتة:

"لماذا كان أبي يبيت خارج البيت؟."

مزقتها كلماته بخنجر بارد لا يعرف الرحمة، استحالت مشاعرها في غمضة عين من الحنين إلى البغض، حتى إن عينيها جفتا من الدموع من تلقاء نفسها.

رسم خيالها صورة كبيرة لغريمتها التي حولت حياتها من النعيم إلى الجحيم، كأنما أصابتها لعنة إبليس المطرود من السموات.

اخترق سكون المكان صوت اصطكاك حذاء نسائي محطمًا هدوء اللحظة، كصوت زجاج يتشظى في فضاء فارغ. التفتت بدهشة نحو مصدر الصوت، التقطت عيناها صورة غير متوقعة في تلك اللحظة بالذات. لكن ما لبثت تلك الدهشة أن انقلبت إلى غضب جامح، واشتعلت عيناها بمزيج من الحقد والغيرة، وهي ترى غريمتها تقترب منها ببطء مقيت، كل خطوة تخطوها نحوهم كان يزداد معها صدى صوت حذائها في أذني "سميرة" كأنه طبول حرب.

توقفت "شاهندا" أمامها ومدت يدها تصافحها، لكن "سميرة" بقيت جامدة، نظراتها تحمل ألف لعنة، تخيلت نفسها ممسكة بخنجر تزرعه في جسد تلك المرأة، طعنة تلو الأخرى، حتى يخر جسدها صريعًا، ثم تدفنها بجوار زوجها الخائن، لتسدل الستار على حكاية خيانته للأبد.

أحسّت "شاهندا" بالإحراج فسحبت يدها. استدارت نحو "عمر" وقبلته بحنان، وقالت:

"كيف حالك يا عمر؟."

"بخير عمتي "شاهندا"."

حدجته أمه بدهشة وهي تسأله:

"أتعرفها؟."

قال بوجه يقطر بالسعادة:

"نعم، أخذني والدي إلى منزلها في ذلك اليوم الذي زرنا فيه الأهرامات."

رمقتها "سميرة" بنظرة مفعمة بالاحتقار، سألتها:

"ما الذي كان يفعله "فهمي" عندك؟."

تلعثمت "شاهندا" وهي تقول:

"نحن أصدقاء، وكان يريدني أن أتعرف على "عمر" عن قرب."

قبضت "سميرة" على يدها بأصابع قاسية، وقالت بصوت مفعم بالمقت:

"منذ أن دخلت حياة "فهمي" انقلبت حياتنا إلى جحيم، من أنتِ؟."

تأوهت "شاهندا" وهي تحاول يائسة تخليص يدها من قبضتها، عندما عجزت عن الفكاك، صاحت:

"لقد اختارني "فهمي" بمحض إرادته، وتركك بسبب أنانيتك وسعيك المستمر للسيطرة عليه."

زادت "سميرة" من ضغطها على يدها، كقطة جائعة تتشبث بحصتها من بين أنياب قطة جشعة أخرى. علت تأوهات "شاهندا"، لكن "سميرة" تجاهلت أنينها قائلة:

"أنتِ تتهمينني بالأنانية وحب الذات، وكأنني ارتكبت خطيئة لأنني أردت الحفاظ على بيتي، لكنكِ نسيتِ أن تصفي نفسك بالجشع، عندما أردتِ أن تسلبيني زوجي وابني."

أفلتت يدها بحركة عنيفة مستطردة:

"لقد مات "فهمي" نتيجة ما أراد أن يفعله بي، ولو أنني اتبعت مشاعري، لكانت نهايتك في الجحيم الذي يحتله أمثالكما، لكني سأتركك تعيشين لتتجرعي عذاب ضميرك كل يوم، قبل أن ينالك العقاب الإلهي العادل في الآخرة."

تحسست "شاهندا" رسغها في ألم، رمقت "سميرة" بنظرة عدائية. أثار ذلك حفيظة "سميرة" فصاحت:

"إياك أن تقتربي من قبره بعد اليوم، هل تفهمين؟."

ردت "شاهندا" بجرأة:

"لقد تزوجنا أنا و"فهمي" سرًا منذ ثلاثة أشهر، ولي الحق في زيارته مثلكِ تماما."

هتفت "سميرة" وقد اختنق وجهها بغضب أعمى:

"كاذبة."
لم تجبها "شاهندا"، لكن حدجتها بنظرة تفيض بالتحدي، سألتها "سميرة:"
"وكنتِ تطمعين بالطبع أن تأخذي "عمر" مني لتكتمل صفقتك الرابحة، كان الأسهل عليك أن تقتليني بدلًا من تلك الخطة البائسة."
قالت "شاهندا" وهي تستدير لتغادر:
"ما لا تعرفينه أنني كنت أحاول إقناعه بألا يأخذ "عمر" منكِ، حتى لا يجردك من كل شيء."
ابتلعت "سميرة" ريقها المر مع عبارتها المهينة، اكتفت بالوقوف مكانها وهي تشاهد "شاهندا" تبتعد بفخر واعتزاز.

*****

قضت "چيهان" الأسبوع الذي أعقب وفاة شقيقها في حزن بالغ. بدت الدنيا في عينيها بالغة القتامة، كأن العالم أطفأ نوره وارتدى السواد حدادًا على رحيله المفاجئ. راحت تجتر ذكرياتها مع شقيقها والمواقف التي جمعتهما سويا، في السراء والضراء، تتذكر جيدا التواريخ الهامة في حياته، يوم تخرجه من كلية الهندسة، يوم زواجه، يوم استقبل مولوده الوحيد، تتابعت أمامها كل مشهد جمعهما معا، حتى جاء ذلك اليوم الذي فقدته فيه. لم تستطع التجلد أكثر من ذلك فبكت بحرقة، لم تتباطأ عن زيارة قبره والدعاء له كل ليلة منذ وافته المنية.

بعد مرور الأسبوع الثاني، وتحت ضغط أصدقائها وزملائها، عادت إلى عملها، أثناء قيادتها للسيارة داهمها سؤال منطقي: كيف رحل "فهمي" بهذه السهولة؟ لقد كان بارعًا في القيادة، لدرجة أنها كانت تتمنى أن تصل لنصف مهارته، فكيف انتهى به الحال محشورًا في سيارته بعد أن ارتطم بشجرة؟ إنها لا تعترض على القدر، لكنها شعرت أن الأمر يشبه غرق سمكة يافعة في حوض سمك صغير.

ولشدة أسفها، لم يتمكن الخبراء من فحص فرامل السيارة بسبب تهشّم الجزء الأمامي تمامًا، وعلى أية حال، لم يعد التفكير يجدي نفعًا في استعادة ما فات.
تمتمت بأسى:
"لقد رحل فهمي إلى خالقه، ولم يبقَ سوى الدعاء له."
وصلت إلى مبنى الجريدة، دخلت إلى مكتبها فتلقفها زملاؤها بالعزاء الحار، ثم دخلت إلى مكتب مدير التحرير تعلمه بعودتها، طلب منها الأخير أن تجلس، ثم أخرج ورقة من جيبه وناولها إياها قائلا:
"هذه معلومات جديدة بخصوص القضية"
أخذتها "چيهان" بشغف، التهمت السطور قبل أن تسأله:
"ما هذا؟"
"كما هو مكتوب أمامك؛ السيارة تعطلت فجأة في وسط الطريق، نزل السائق لإصلاحها، ليتفاجأ بسيارة شقيقك القادمة نحوه بسرعة مفرطة، حاول شقيقك تفادي الاصطدام به، لكن سيارته انحرفت واصطدمت بشجرة فتحطمت و... صعدت روحه إلى خالقه"
ظهرت على وجه "چيهان" علامات الاستياء وهي تقول:
"هل يُعقل أن تقف شاحنة كبيرة في منتصف طريق سريع بحجة عطل مفاجئ؟"
أشار إلى الورقة قائلا:
" لم يوضح التقرير سبب ذلك العطل، لذا علينا انتظار التقرير التالي لتتضح الأمور"
صمتت "چيهان" لبعض الوقت، غارقة في التفكير، ثم قالت:
"أين يمكنني العثور على هذا السائق؟"
"لن تتمكني من العثور عليه، فقد سافر إلى" ليبيا" للعمل هناك فور إطلاق النيابة سراحه".
قالت متشككة:
"هذه السرعة في الرحيل توحي بأنه يحاول الهرب من شيء أو... من شخص ما"
لوح بذراعه قائلا:

"الكثير من المتسببين في الحوادث المميتة يخشون انتقام أقارب الضحايا، فيلجأون للاختفاء أو السفر"

"أريد اسم السائق وعنوانه"

منحها المدير الاسم والعنوان وهو يسألها:

"ما الذي تنوين فعله؟"

"ما أفعله دائمًا في عملي... البحث عن الحقيقة".

نظر إليها بتعاطف وقال:

"تذكري أن شقيقك لم يكن له أعداء، وما حدث لا يبدو أكثر من حادث سير عادي، كمئات الحوادث التي تحدث يوميًا في بلدنا للأسف"

ردت بحدة:

"لكنني لم أسمع من قبل عن شاحنة تقف فجأة في منتصف طريق سريع بغتة، ثم ينزل السائق لإصلاح العطل دون وضع ما يشير إلى وجود سيارة معطلة، الطريقة التي وُضعت بها السيارة في منتصف الطريق تبدو وكأنها متعمدة"

ارتفع حاجباه في دهشة وقال:

"أنتِ تبالغين في وصف الأمر كثيرًا، أعلم أن الحادث وقع منذ أسبوعين فقط، وأنك ما زلت تحت تأثير الحزن، لكن لا ينبغي أن يدفعك ذلك لتخيل أشياء لم تحدث"

بدت لهجتها حاسمة وهي تقول:

"التحقيقات التي سأجريها ستكشف الحقيقة، إما أن يكون الأمر حادثًا عرضيًا، أو جريمة مدبرة ومكتملة الأركان"

*****

"من الجاني الحقيقي؟"

كان سؤال ألقته "سميرة" على مسامع "نجلاء" وقد حمل صوتها مرارة الحيرة واليأس معًا.

"ألا يمكنكِ نزع تلك الذكرى المريرة من خيالك أبدًا؟"

حركت "سميرة" رأسها نفيًا. بالنسبة لها، لم يكن الأمر مجرد ذكرى عابرة، بل حقيقة دامغة ظهرت أمامها عند القبر. وجودها كان صاعقًا، ومؤثرًا في نفسها تأثيرًا بشعًا.
قالت "نجلاء" بنبرة حاسمة:
"سأحاول الوصول إلى عنوانها وأطلب منها الابتعاد عن طريقك، وإذا لم تفعل، سيكون الرد قاسيًا"

لم تستطع "سميرة" منع نفسها من العودة بالذاكرة إلى الشهور القليلة الماضية، حين كان منزلها مستقرًا وهادئًا، ثم انفجرت الفوضى بداخله، كأن قنبلة موقوتة كانت مخبأة في ركن مظلم، وانفجرت، واستحال كل شيء إلى دمار. كل زاوية من المنزل باتت تروي قصة الألم والفقدان.
بينما كانت "نجلاء" تراقب صمت "سميرة" أدركت أن لا فائدة من النقاش للحيلولة دون الرجوع لتلك الذكرى. فكرت للحظة، ثم قالت بصوت خافت:
"ما رأيك لو ذهبتِ إلى الدكتور جلال، هو الوحيد القادر على إخراجك من هذه الأزمة التي تعيشينها".
"لا أشعر بالارتياح... هناك مزيج متناقض من المشاعر تجاهه".
رفعت "نجلاء" حاجبيها في استنكار وقالت:
"تتحدثين وكأنك تصفين شخصًا لا أعرفه".
قالت "سميرة" بحيرة:
"نظراته لم تكن مريحة، كان ينظر نحوي بنظرات تشبه تلك التي ينظر بها المحققون إلى المشتبه بهم".
"أعتقد أن الضغط النفسي هو الذي يجعلك ترين الأشياء بهذه الطريقة، قد تكون هذه مجرد هلاوس بصرية".
"ربما... لكني لا أرى جدوى من الذهاب إليه، الأمر انتهى، ولا يمكن تغيير الواقع"

" أنتِ تتوهمين، الدكتور" جلال" يقول إنك إذا لم تستمري في العلاج ستتفاقم الأزمة".
ترددت "سميرة" لثوانٍ، ثم قالت:
"حسنًا سأذهب إليه غدًا، وسأصطحب معي "عمر" أيضًا، فهو بحاجة إلى طبيب نفسي أكثر مني".
"هل لا يزال عمر يعاني من جراء فقد والده بعد كل هذا الوقت؟"
انكسرت نبرة صوتها وهي تجيب:
"لقد مر أسبوعان كاملان ولم يستوعب وفاة والده حتى اللحظة، إنه لا يأكل إلا مرغما، ولولا ذلك لهلك من الجوع".
"إذا خذيه معك، فهو قادر على مساعدته أيضًا".
قالت "سميرة" بحيرة:
"أحيانًا يخيل لي أن علاقتك بالدكتور جلال ليست مجرد علاقة طبيب بمريض، بل عاشق بمعشوقه"
توردت وجنتا "نجلاء"، تمتمت بصوت مضطرب:
"أنتِ لا تدركين حجم المساعدة التي قدمها لي عندما كنت على حافة الانتحار ذات يوم".
ابتسمت "سميرة" وقالت:
"حسنًا يا معجبة، سنذهب إليه غدًا، وسنرى ما إذا كان لديه الحل لهذه المشكلة التي لا أرى لها نهاية".
كانت ترى مستقبلها كصورة ضبابية لا تحمل ملامح واضحة، حيث القلق من المجهول يعصف بكل أفكارها.

*****

عند الظهيرة اصطحبت "سميرة" "عمر" إلى عيادة الدكتور "جلال"، الذي استقبلهما مبدياً تعاطفه مع مصابهما. قالت "سميرة":
"أصرت نجلاء على أن نحضر إليك خوفًا من أن تتدهور حالتنا النفسية، كما تزعم"
"نجلاء تميل إلى المبالغة أحيانًا".

سألته بلهفة:

"   هل هذا يعني أننا لا نحتاج إلى تقييم نفسي؟"

حافظ "جلال" على ابتسامته قائلا:

"لم أقصد هذا، ما أعنيه أن" نجلاء" تبالغ أحيانًا في وصف الأمور، في حالتكم، فحص شهري سيكون كافيًا لأطمئن أنكما لا تعانيان من أية اضطرابات نتيجة ما مررتما به".

شعرت "سميرة" ببعض الخيبة، طلب منها "جلال" أن تتركه مع "عمر" لدقائق، منحت ابنها ابتسامة مشجعة قبل أن تنهض وتقول:

" تحدث مع الدكتور "جلال" بحرية، ولا تخشَ شيئًا".

لاحظت علامات التردد على وجه "عمر". أشار لها" جلال" إشارة خفية، فخرجت على الفور.

تابع "عمر" والدته حتى اختفت، ثم رمق الطبيب بنظرة ترقب. ابتسم "جلال" بلطف وقال:

"أنا أعلم أنك كنت شديد الارتباط بوالدك، ولكن يجب أن تعرف أنه ذهب إلى مكان أفضل، يفعل كل ما يحلو له؛ يلعب، ويأكل، ويشرب، ويمرح، هذا ما يفعله الجميع في الجنة".

التمعت عينا "عمر" حزنا، سأله بصوت متهدج:

"لماذا لم يأخذني معه إذن؟ ألا يحبني؟"

رد جلال بلطف:

"بلى يحبك، لكن وقته انتهى هنا، وعندما ينتهي وقتك، ستذهب إليه أنت أيضًا".

"ومتى ينتهي وقتي؟"

"سينتهي عندما يأذن الله بذلك، لكن حتى ذلك الحين، عليك أن تعيش حياتك كما كنت تفعل قبل وفاة والدك؛ تأكل، تلعب، تذاكر".

نصحه بعدة نصائح مستخدمًا أسلوبًا بالغ اللطف، مؤكداً على طاعة والدته حتى يرضى عنه والده. هز عمر رأسه باستسلام، فيما واصل جلال الابتسام قائلا:

"الآن استدعِ والدتك، وانتظر في الخارج حتى ننتهي".
دخلت **"سميرة"** تسأله بلهفة:
"هل سيتحسن؟"
"الأمر ليس سهلا، ذاكرته متشبثة بوالده بشكل قوي".
"وما الحل إذن؟"
فكر للحظات قبل أن يرد بحسم:
"الحل هو تخفيف هذا التشبث تدريجيًا، علينا أن نجعل ذكرى والده تتلاشى بمرور الوقت، حتى لا تبقى عالقة في ذهنه بطريقة تسبب له ألمًا مضنيًا".
سألته بنبرة يائسة:
"وكيف يمكن أن نفعل ذلك؟ يبدو الأمر مستحيلا"
ابتسم بثقة:
"لا يوجد شيء مستحيل إذا طبقنا العلم بطريقة صحيحة".
"كيف؟"
"أزيلي من حوله كل ما يذكره بوالده، صوره، ملابسه، حتى أحذيته، كل شيء".
بدا على وجهها الفهم، فقالت:
"كما ترى يا دكتور، المهم أن يعود لحياته الطبيعية"
*****

خرجت **"نجلاء"** من المدرسة بعد أن انتهاء اليوم الدراسي، ذهبت مباشرة نحو بناية سكنية في حي المهندسين، صعدت حتى الطابق السادس، طرقت الباب، انتظرت لبرهة، طرقت مرة أخرى بعصبية، كادت ترحل، لولا أنها سمعته يقترب من الباب في تثاقل، مرت لحظات، عرفت أنه ينظر من خلال **"العين السحرية"** لمعرفة القادم، ثم انفتح الباب وبدا خلفه رجل أسمر البشرة، تحت عينيه هالات سوداء مثل دب الباندا، نبتت لحيته على خديه كشوك مبعثر، هالها منظره، تراجعت بحدة، ثم أظهرت التماسك، التقطت من حقيبتها كيس بلاستيكي وناولته إياه في صمت، حمل وجهه ابتسامة مهيضة

وهي يتناول منها الكيس دون أن ينطق بدوره، أرادت أن تمنحه ابتسامة مشجعة، لكنها عجزت، فبدت كما لو كانت تعاني مغصا خفيفا، نطق أخيرا بصوت أجش:

"هل تودين الدخول؟"

هزت رأسها نفيا، قالت وهي تشير إلى الكيس:

"أنت بالطبع تعرف كيف تتناوله، أليس كذلك؟"

"أعرف"

لم يقل كلمة زائدة، أغلق في وجهها الباب، وسمعت خطواته المتثاقلة وهو يعود إلى الداخل، التقطت نفسا عميقا، ثم استدارت ونزلت السلم بخطوات شبه متثاقة كأنما أصابتها العدوى منه، كل مرة تأتي إلى هذه الشقة تشعر أنها تحمل فوق رأسها حملا ثقيلا. لم تعرف أين تذهب، لم تود أن تعود إلى البيت، ولا تشعر بالرغبة بالذهاب إلى "سميرة"، ولا إلى أي شخص تعرفه، أو حتى لا تعرفه، إنها تود أن تبتعد عن البشر، كل البشر، ارتأت أن تذهب إلى مخلوقات من نوع آخر، مخلوقات بريئة، حتى لو كانت متوحشة، قادت سيارتها إلى حديقة الحيوان، وهناك، انتقلت من قفص إلى قفص، تراقب طباع الحيوانات، وحركاتها، عراكها المستمر على الطعام، غيرتها من أن يظفر شريكها بالطعام دونها، لكنها في نظرها بريئة، فهي لا تقتل، من أجل نزوة عابرة، لا تعذب الأضعف منها، لا تحكم بالحديد والنار، لا تضع القوانين الجائرة، لا تتسبب في مجاعات عارمة، هي فقط تسعى للحفاظ على نفسها، ونسلها، من أجل ذلك فقط تقتل، وقفت تتأمل الأسود، شدها منظرها المرعب وعينيها المخيفتين ورائحتها العطنة، تساءلت في دهشة بالغة: كيف يمكن لإنسان لا يملك قوتها وهيئتها وأنيابها ومخالبها أن يتفوق عليها في الشر تفوقا كاسحا، طالما كان يحيرها الإنسان وقسوته، إن نقطة تفوق الانسان تكمن في كتلة دهنية أعلى رأسه تسمى المخ، به يحتل أعلى السلسلة الغذائية، بل ويهدد كل المخلوقات بالفناء.

المخ، المخ، المخ.

راحت الكلمة تتردد في ذهنها طويلا، حتى إنها لم تسمع الحارس وهو يعرض عليها أن يلتقط لها صورة مع شبل صغير، وعندما انتبهت سألته:

"وهل يوافق هذا الشبل المسكين على أن يلتقط له صورة معي أم أنكم أجبرتموه على هذا؟"

حدجها الحارس بنظرة جمعت بين الحيرة والدهشة، لم تتركه "نجلاء" يرمقها طويلا، شكرته بلطف، ثم غادرت الصالة الواسعة التي تضم عدة أقفاص متجاورة، ثم غادرت الحديقة كلها.

****

في مساء نفس اليوم رأت "سميرة" أن الوقت قد حان لمواجهة غريمتها، لم تستطع تحمل فكرة أن تتجول تلك المرأة بحرية وكأن شيئًا لم يكن، قررت أن تأخذ زمام الأمور بنفسها، فاختارت بعناية فستانًا أسود أنيقًا يبرز أنوثتها، وأعدت نفسها لتكون في أفضل هيئة. نظرت إلى "عمر" الذي كان جالسًا في زاوية الغرفة يعبر عن ضجره من فكرة الذهاب إلى عيادة الطبيب النفسي، قالت:

"لن نذهب إليه، بل ستأتي معي لشراء بعض المستلزمات".

بينما كانت تستعد للخروج، رن جرس الباب، كانت "چيهان"، سمحت لها بالدخول وهي تحاول السيطرة على هدوئها، منحت "چيهان" "عمر" قبلة حانية، اطمأنت عليه، تأملت "سميرة" بملابسها الأنيقة وسألتها عن وجهتها. أخبرتها عن نيتها الذهاب إلى منزل شاهندا، وقصت عليها ما دار بينهما عند قبر "فهمي" أثناء زيارتها الأخيرة، وأن نجلاء استطاعت الحصول على عنوانها عن طريق رجل يعمل في إدارة المرور بعد أن أملته رقم لوحة السيارة، ظهر على وجه "چيهان" الصدمة، غمغمت:

"وماذا كنتِ ستفعلين حينما تواجهينها؟"

"كنت سأخبرها أن تبتعد عن حياتي وكل ما يخص زوجي الراحل، وإلا فلا تلومن إلا نفسها".

قالت "چيهان" بنبرة متفهمة:

"أدرك تمامًا ما مررتِ به يا حبيبتي، لكنها لم تكن تنوي إيذاءك، كل ما كانت تود فعله هو زيارة قبر فهمي"

انفجرت "سميرة" هاتفة:

"بأي صفة تزور قبر زوجي؟"!

انفرجت شفتاها، لكنها تراجعت، ثم قالت:

"على أي حال، لم آتِ لنتناقش بشأنها، بل لأخبرك أنني حصلت على عنوان السائق الذي تسبب في وفاة فهمي"

لاح في وجهها اهتمام بالغ وهي تسألها عما تنوي فعله، قالت "چيهان" أنها ستذهب إلى منزله في محافظة المنيا، وستحاول العثور على أي معلومات من أسرته تؤكد أو تنفي تورط هذا الرجل في ذلك الحادث، أبدت "سميرة" استغرابها من طريقة تفكيرها، قالت "چيهان":

"ربما لعملي الصحفي أثر على طريقة تفكيري، فأنا لا أستطيع أن أستريح إذا نبت في داخلي شك تجاه أمر ما، حتى أحفر عميقًا وأجتثه من جذوره"

"هل تريدين أن أصطحبك إلى هناك؟"

ردت "چيهان" بحزم:

"كلا، لا داعي لذلك، سأذهب غدًا وسأعثر على الحقيقة"

همّت بالمغادرة، لكنها استدارت قائلة:

"يجب أن تنزعي وجه تلك المرأة من مخيلتك، وتبدئي حياة جديدة خالية من المنغصات"

قالت "سميرة" بوجه خلا من الشفقة:

"هل تستطيعين نزع فكرة مقتل" فهمي" من رأسك، وبدأ حياة جديدة خالية من المنغصات؟ "

اتسعت عينا "چيهان" كأنها بوغتت بالسؤال، صمتت، أطرقت برأسها إلى الأسفل، قالت بصوت خرج ضعيفا:

"كلا"

قالت "سميرة" بحزم:

"وأنا أيضا لا يمكنني نزع وجه تلك المرأة من رأسي والعيش كأنها لا تحيا في نفس المدينة.

لاحت ابتسامة باهتة على وجه" چيهان" وهي تقول:

"يبدو أن كلانا أصيب بلعنة النبش في الماضي فلا نستطيع العيش بسلام مثل باقي الناس"

ثم غادرت المكان بسرعة قبل أن تلمح "سميرة" تلك الدمعة التي سقطت من عينها سهوا.

*****

"ما اسمها؟"

"شاهندا حسن".

"هل تشعرين بالغيرة منها؟"

هبط عليها السؤال كفأس اخترق أرض قلبها الخربة، احتقن وجهها للحظات، ثم سرعان ما قالت وهي تحني رأسها قليلا:

"نعم"

"لماذا لم تذهبي إليها بعد أن أعطتكِ نجلاء عنوانها؟ هل خشيتِ المواجهة؟"

"خشيت أن يتطور الأمر إلى ما لا يحمد عقباه، وخشيت أيضًا أن يكون قد تزوجها بالفعل قبل موته"

"هل رأيتِ عقد الزواج بعينيكِ؟"

"كلا"

"أشك في أنه موجود من الأساس"

قالت باستغراب بالغ:

"كيف تكون متيقنًا من عدم زواج "فهمي" من تلك المرأة؟"

"لأنه لم يكن يخفي بغضه لكِ، بل صرّح برغبته في الانفصال عنكِ عدة مرات، فما الذي كان يمنعه إذن من إعلان زواجه منها؟"

عضّت "سميرة" شفتها السفلى، تابع "جلال" حديثه:

"لقد كانت مجرد عشيقة استطاعت استمالته إليها مستغلة عزوفه عنكِ، لكن أمر الزواج منها كان مستبعدًا"

غمغمت بنبرة حائرة:

"لكنه كان ينوي بالفعل طلاقي وأخذ ابنه معه أيضًا"!

أشار "جلال" بإصبعه نحوها، وقال:

"وهذه هي اللعبة".

"اللعبة؟"!

اعتدل في جلسته قائلا:

"دعيني أشرح لكِ الأمر من البداية، قرر زوجكِ طلاقكِ بسبب شعوره بشخصيتك الطاغية، وعندما ابتعد عنكِ، لم تكن أمامه سوى تلك المرأة التي تعرف عليها أثناء فترة دراسته الجامعية، لكنه كان يود الاحتفاظ بها كعشيقة دون الزواج منها، حتى لا يتكرر الأمر نفسه كما حدث معكِ. ولأنه أراد تحطيمكِ منذ البداية، قرر انتزاع "عمر" منكِ مستغلًا حبكِ له، وهو يعلم جيدًا أنكِ لن تتحملي ذلك، فتتحطم أعصابكِ وتأتين إليه راكعة تستجدين العفو منه".

لم تستطع "سميرة" السيطرة على مشاعرها الثائرة، تجلّت على وجهها ملامح الكراهية بوضوح، تساءلت بصوت يغلفه الصدمة:

"هل تعني أنها تسعى لاستكمال مهمة فهمي؟"

أخبرتها عينا "جلال" الوامضتان ببريق الحقيقة. استفزها ذلك لتقول:

"إذن سأذهب إليها وأواجهها بحقارتها ودناءتها، سأحذرها إن هي اقتربت من "عمر"، أو من أي شيء يخص زوجي الراحل، فستندم على ذلك أشد الندم".

أومأ "جلال" برأسه موافقًا وقال:

"لا تتركي النار مشتعلة، ثم تظني أنها لن تصل إلى ملابسكِ وجسدكِ لتحرقهما، بل ستصل إلى أحب الناس إليكِ أيضًا".

زمّت "سميرة" شفتيها وقد عقدت العزم على التخلص من هذه الأفعى السامة للأبد.

*****

بعد رحلة طويلة وشاقة، وصلت "چيهان" إلى قرية "ابو جرج" التابعة لمركز "بني مزار". كان الجو حار رطبا، الشوارع ليست مزدحمة بالناس، عربات كارو تسير متمهلة في الشوارع الضيقة غير المستوية، الأطفال يلهون

أمام بيوتهم، يستخدمون ما يجدونه في الشوارع من طوب وطين وزلط وقطع خشبية صغيرة، نهيق حمار يعلو كل دقيقة من أماكن شتى، ونباح كلاب لا يتوقف حتى يعود من جديد. بدت الدهشة على وجه "چيهان" التي لم تزر الصعيد من قبل، فشعرت أنها غادرت قارة بأكملها خلفها، وأتت عالم يختلف كليا عمّا خلفته وراءها. بدأت تتجول في شوارع القرية وتسأل المارة عن منزل "عبد السلام بيومي فتوح"، حتى دلّها أحدهم على المكان. ببطء، مشت عبر شوارع ضيقة غير مستوية حتى وصلت إلى منزل كبير مبني من الطوب النيئ. شعرت بالتوتر يتسلل إليها، لكنها تماسكت، وقفت أمام الباب الخشبي وطرقته عدة مرات، وانتظرت، دقائق قليلة مرت قبل أن تسمع حفيف خطوات تقترب من الداخل، انفتح الباب ببطء كاشفًا عن وجه امرأة سمراء، ممتلئة الجسد، ترتدي جلبابًا واسعًا وتلف رأسها بغطاء أسود.

ابتسمت لها "چيهان" بود وهي تحييها، فردت المرأة التحية بلهجة صعيدية، بادرتها "چيهان" بابتسامة دافئة:

"أنا "چيهان عبد العزيز"، صحفية من القاهرة، جئت لأستفسر عن زوجكِ "عبد السلام بيومي"."

لاح في وجه المرأة علامات الذعر وهي تجيب بتوتر:

"عبد السلام سافر إلى "ليبيا" للعمل هناك، هو لم يفعل شيئًا يستحق العقاب، الحادث كان قضاء وقدر، وعبد السلام بريء".

سارعت "چيهان" في محاولة لتهدئة الموقف، وأنها لا تتهم زوجها وإنما تريد معرفة بعض التفاصيل حول الحادث، قالت لها المرأة بنبرة صارمة أن تأتي عندما يرجع " عبد السلام" من ليبيا بعد سنة.

هزت "چيهان" رأسها بتفهم، بينما تفكر كيف يمكن أن تستغل قدومها إلى هنا، قالت بلطف:

"هل تسمحين لي بالدخول لشرب الشاي معكِ ثم نتحدث قليلا عمّا قاله لكِ زوجكِ قبل سفره؟"

ظهرت على وجه المرأة علامات القلق وقالت:

"أنا وحدي في الدار، وحماتي لا تسمح لي بإدخال أحد عندما تكون غائبة"

لم تيأس "چيهان"، قالت:

"لا بأس، يمكننا التحدث هنا دون الدخول، ولا داعي لشرب الشاي"

رفضت المرأة بعناد:

"ليس عندي كلام أقوله لكِ غير الذي قاله زوجي للنيابة عندكم في القاهرة".

"وما الذي قاله زوجكِ في النيابة؟"

توجست المرأة نحوها، شعرت بأن الغريبة تحاول إيقاعها في شرك، استدارت بسرعة وقالت وهي تتجه إلى الداخل:

"لا أعرف غير أن العربية تعطلت فجأة ونزل زوجي يصلحها، والباقي قضاء وقدر"

تابعت "چيهان" المرأة بنظرة غاضبة، بينما الباب يغلق ببطء، تاركًا شقًا صغيرًا يظهر منه جزء من وجهها، كان خوف المرأة واضحًا في عينيها، رغم أنها لم تغلق الباب بالكامل لالتزامها بتقاليد القرية في عدم إغلاق الباب في وجه الزوار.

أحست "چيهان" بأنها تفقد الخيط الوحيد للوصول إلى الحقيقة، قررت في تلك اللحظة أن تكشف عن هويتها الحقيقية، علّها تؤثر في المرأة وتفتح لها قلبها، قالت بلهجة حزينة:

"لقد قلت لكِ إنني صحفية، لكن ما لم أخبركِ به هو أنني شقيقة الرجل الذي مات في الحادث"

اتسعت عينا المرأة عن آخرهما، سمعت "چيهان" صوت ولولتها من خلف الباب الذي أُغلق بعنف هذه المرة، ليغلق في وجهها باب الأمل. تراجعت بخطوات بطيئة وقد احتل اليأس قلبها. عادت إلى سيارتها وغادرت القرية تجر أذيال الخيبة، وهي تشعر أن مهمتها باءت بالفشل، وأنها فقدت الخيط الوحيد الذي كان يمكن أن يقودها إلى الحقيقة.

*****

مضت "سميرة" نحو منزل "شاهندا"، كانت ملامحها تحمل تعابير لبؤة تسعى لاسترداد حقها المفقود. الكلمات التي قالها طبيبها النفسي لا تزال تتردد في ذهنها، تنير لها طريق الصواب الذي عزمت أن تسلكه.

وصلت إلى الشارع المؤدي إلى مسكن "شاهندا"، لكنها توقفت بالسيارة عندما رأت حشدًا كبيرًا يتجمع في منتصف الطريق. وسط الصخب والهمسات، التقطت أذناها صوت رجل يصيح مشيرًا إلى بناية قريبة:

"كانت واقفة هناك، حين صدمتها سيارة زرقاء بلا لوحة أرقام ثم فرّت هاربة"

داخلها الرعب، لم تجرؤ على النظر من مكانها إلى الجسد المسجى على الأرض. في تلك اللحظة ذاتها صك أذنيها صوت سيارات الشرطة المسرعة نحو المكان. ثم شعرت بيد تلمس كتفها، التفتت خلفها مذعورة، طالعتها "چيهان" تنظر إليها بعينين تملؤهما الدهشة.

نزلت "سميرة" من السيارة وسألتها بصوت حائر:

"هل أنتِ هنا لتغطية الحادث؟"

تجاهلت "چيهان" سؤالها، أو لم تسمعه، وهي تسألها بنفس الدهشة عن سبب مجيئها، أخبرتها "سميرة" أنها كانت آتية لمقابلة "شاهندا" لكن الحشد منعها من المرور.

نظرت إليها "چيهان" باستغراب، ثم قالت بلهجة آسفة:

"لم يعد بإمكانكِ مقابلة "شاهندا" في هذه الدنيا"

انتفضت "سميرة" بعنف، أشارت "چيهان" نحو الحشد وقالت:

" لأن جثتها هي تلك الملقاة هناك"

ظهرت علامات الارتياع على وجه "سميرة" كأشد ما يكون. تراجعت خطوة إلى الوراء، بحّ صوتها تمامًا وهي تقول:

" كيف حدث هذا؟"

قالت "چيهان" بصوتها الحزين أن الشهود يقولون أن سيارة بلا لوحة أرقام صدمتها عمدًا عندما كانت تهم بركوب سيارتها، ثم فرت هاربة.

صمتت "سميرة" وقد ألجمتها الصدمة. أشارت "چيهان" إلى المحفة التي يحملها رجال الإسعاف وقالت:

"لن تقضّ مضجعكِ "شاهندا" بعد الآن، بعد أن رحلت عن عالمنا للأبد"

تطلعت "سميرة" إلى الجثة المغطاة على المحفة، تمتمت بعد أن استعادت بعض هدوئها:

"لم تستطع الابتعاد عن عشيقها الخائن طويلا"

استفز ذلك الوصف "چيهان" فقالت بحدة:

"لقد تزوجها "فهمي" بالفعل، رأيت عقد زواجهما بعيني، لكني لم أشأ أن أخبركِ حينها، فالزوجة قد تغفر لزوجها علاقة عابرة، لكنها لا تسامحه أبدًا إذا تزوج بأخرى"

اندلع الغضب من عيني "سميرة" وهي تهتف:

"لقد زوّرت عقد الزواج! "فهمي" لم يكن ليتزوجها عليّ، ثم إنك لن تفهمي ما أشعر به أبدا، لأنك لم تجربي شعور الحب قط".

أحست "سميرة" بالندم قويا يتغلغل داخل مسامها، تمنت أن لو عاد الزمن لثوان حتى تمسك لسانها، لدهشتها، رأت "چيهان" تبتسم ابتسامة صافية، وقالت:

"لقد تقدم إلي الكثيرون كما تعلمين، لكني لم أعثر على من يستحق قلبي بعد"

باغتهم صوت أنقذ "سميرة" من ورطتها:

"ما الذي تفعلانه هنا؟"

طالعهما وجه "نجلاء" ينطق بالدهشة. سألتها "چيهان" عن سبب وجودها هنا، قالت:

"كنت آتية لمقابلة "شاهندا" حين حدث ما حدث"

"أليس من الغريب أن تأتي أنتِ أيضًا في نفس وقت الحادثة"!

قالت "نجلاء" بحدة:

"وهل يختار الموت الوقت المناسب قبل أن يزور ضحاياه؟"

تدخلت "سميرة" قائلة:

"هذا النقاش الحاد بينكم لن يعيد أحدًا إلى الحياة"

قالت "چيهان" متغاضية عن الأسلوب الحاد:

"لا داعي للبقاء هنا، لقد أرسلت سيارتي للصيانة بعد عودتي من "المنيا"، لذا سأركب معكِ"

قادت "سميرة" سيارتها بصمت، غارقة في أفكارها، ثم سألت محاولة تغيير الموضوع عن ما حدث معها في "المنيا"، سردت "چيهان" على مسامعها ما جرى لها مع زوجة السائق التي تخفي أدلة هامة في القضية لذعرها، وأنها باتت متأكدة أن الحادثتين مدبرتين؛ ففي كلتا الحالتين، كانت نية القتل واضحة، في الأولى تعطلت السيارة لتسد الطريق أمام شقيقي، وفي الثانية استُخدمت سيارة بدون لوحات للتغطية على الفاعل، وستبذل المستحيل لتصل إلى الفاعل الحقيقي"

تمتمت "سميرة" في حيرة:

"لا أستطيع أن أصدق أن "فهمي" يموت في حادث مدبر، فلم يكن له أعداء في حياته".

ردت "نجلاء:"

"هذا تفكير غارق في الخيال، فكما قلتِ الآن، لم يكن له أعداء"

لم يعجب "چيهان" ما تسمعه فقالت بكل صرامة:

"لن نعرف الحقيقة إلا إذا سعينا خلفها بكل طاقتنا"

غرق الثلاثة في صمت كئيب، راحت "سميرة" تفكر في حياتها التي خلت فجأة من "شاهندا"، تخللت عقلها أفكار متشابكة حول الأحداث التي مرت بها، شعرت براحة غريبة تحيط بها، راحة لم تكن لتشعر بها لو كانت "شاهندا" على قيد الحياة، وكأن الحياة أعادت لها التوازن من جديد بعد رحيل تلك التي كانت مصدر قلقها على الدوام.

هدّت "سميرة" جدار الصمت الثقيل قائلة:

"أتعلمان... منذ وفاة "فهمي" وأنا أشعر أن حياتي لم تعد كما كانت، لم أعد أستطيع النوم بسلام... وكأن هناك شبحًا يطاردني في كل مكان"

تأملت "چيهان" كلماتها لحظة وقالت بهدوء:

"أعتقد أن الشبح الذي تتحدثين عنه هو مشاعركِ تجاه "فهمي" وما حدث بينكما، الأمور التي لا نواجهها تستمر في ملاحقتنا أينما كنا"
سألت "سميرة" بصوت خافت:
"لكن... هل أستطيع حقًا البدء من جديد بعد كل ما مررتُ به؟"
أجابتها بثقة:
"نعم تستطيعين، كل ما تحتاجينه هو قرار واحد".
تدخلت "نجلاء" التي كانت صامتة منذ البداية:
"چيهان معها حق، يمكنكِ استكمال حياتك كما كانت من قبل، القرار يعود إليك في النهاية".
نظرت "سميرة" إلى الطريق أمامها، كأنها تبحث عن ذلك القرار في الأفق، القرار الذي يمكنه أن يمنحها الأمان والراحة.

*****

ذهبت "چيهان" إلى مدير التحرير وقصّت عليه ما حدث معها، فقال:
"يبدو لي تصرف تلك المرأة عاديًا، بل ومنطقيًا للغاية".
رمقته بنظرة مستنكرة، فأردف:
"ربة منزل بسيطة، تعيش في قرية من قرى الصعيد النائية، علمت أن زوجها قد تسبب في حادث أدى إلى مقتل إنسان، ثم سافر زوجها مباشرة بعد انتهاء التحقيقات إلى خارج مصر، وبعد عدة أيام تأتي إليها امرأة لتسألها مباشرة عن زوجها، بل وتخبرها أنها شقيقته، ماذا كنتِ تتوقعين ردة فعلها بعد أن تسمع منكِ هذا؟"
قالت "چيهان" بثقة:
"كان من الممكن أن أقبل هذا التفسير قبل موت "شاهندا"، لكن الآن صرت على يقين بأن شقيقي قُتل في حادثة مدبّرة".
أشار بسبابته قائلا:
"لا نستطيع تأكيد أمر تلك الحادثة أيضًا".
انعقد حاجباها بشدة وصاحت:

"سيارة تسير بدون أرقام تدهس سيدة تهم بركوب سيارتها من أمام البناية التي تقيم بها ثم تفر مبتعدة، لا أدري ما هو الشيء غير المفهوم في هذا الأمر"!

"عشرات السيارات تسير بدون لوحات معدنية ويتلقى أصحابها مخالفات مرورية بهذا الشأن، وربما كان مرتكب تلك الحادثة شابًا حديث السن ارتكب فعلته ولاذ بالفرار".

أسقط في يدها فلم تدرِ ما تقول، لكن عنادها غلبها فقالت:

"من السذاجة أن نظن أن المصادفة هي التي تحكم الحادثتين".

شعرت بالندم بعد عبارتها الأخيرة، قامت واقفة والخجل يغمر وجهها وتمتمت:

"آسفة لزلة لساني، لكن الأمر أوضح من أن نتجادل بشأنه".

"عودي إلى عملك ودعي التحقيقات تسير في مجراها الصحيح".

قالت بأسى:

"لقد عدت من النيابة الآن، ولقد أخبرني وكيل النيابة أن قضية شقيقي أغلقت لعدم توافر أدلة جديدة".

بان على وجهه الضيق، لكنه لم ينبس ببنت شفة، استأذنت وغادرت مكتبه دون أن تعود إلى مكتبها، فضلت أن ترجع لمسكنها وتلقي بجسدها على الفراش بدلًا من الانكباب على العمل، فسفرها إلى "المنيا"، ثم عودتها إلى مكان الحادث مباشرة، وعدم تناولها الطعام طوال النهار سبب لها إنهاكًا بالغا، ركبت سيارة أجرة بعد أن أملت السائق عنوانها. وعلى الرغم من ذهنها المكدود راح وجه شقيقها يتضخم في مخيلتها وهو يبتسم بحزن وأسى. ترقرق في عينيها الدمع وتمتمت بمرارة:

"سامحني واغفر لي تقصيري يا شقيقي العزيز، فأنا لم أستطع الوصول إلى دليل قوي في حادثك الأليم".

ألقى السائق عليها نظرة من خلال المرآة الداخلية حين سمع همساتها، لكنه فضل تجاهل الأمر برمته واستغرق في التركيز على الطريق.

فكرت "چيهان" كيف يمكنها أن تعيش مع فكرة أنها لم تفعل ما يكفي لتثأر لشقيقها؟ كان ذلك الثقل يثقل كاهلها، وهي تدرك تمامًا أنها لن ترتاح حتى تكتشف الحقيقة.

عندما وصلت إلى شقتها أخذت نفسًا عميقًا وحاولت التركيز على ما تحتاج للقيام به. قررت أن تبدأ بالبحث عن أي دليل قد يساعدها في فتح القضية من جديد. جلست إلى مكتبها، أخرجت الأوراق التي جمعتها، أخذت تراجعها واحدة تلو الأخرى.

كانت هناك تفاصيل غامضة تلاحقها، وأحداث غير متناسقة. ما زالت تتذكر الشهادة التي حصلت عليها من الشهود، وأفكارها حول الحادث وأحداثه. كانت على يقين بأن هناك شيئًا مفقودًا، شيئًا لم يتمكن أحد من رؤيته بعد.

*****

"كيف ماتت؟"

"صدمتها سيارة مسرعة، ثم فر السائق بعيدًا عن مكان الحادث".

"سيتمكنون من تحديد هويته عاجلًا أو آجلًا".

"الشهود قالوا إن السيارة لم تحمل أرقامًا، فكيف سيكتشفون من كان يقودها؟"

استبدل "جلال" سؤالها بسؤال آخر:

"هل تشعرين بالراحة الآن بعد أن اختفت غريمتكِ عن الساحة؟"

فاجأها سؤاله، حدجته بدهشة لثوان، ثم قالت:

"لم أتمنَّ لها الموت، كل ما أردته هو أن تبتعد عن طريقي".

"لكن ألم تهدديها من قبل بأنكِ ستتخلصين منها إذا لم تبتعد؟"

اعترضت "سميرة" هاتفة:

"كانت كلمات وليدة لحظة انفعال، لا أستطيع قتل إنسان".

"يبدو أن القدر قرر أن يفعل ما عجزتِ أنت عن فعله، فخلصك من تلك الشريرة، كما فعل من قبل مع زوجكِ الخائن".

تسمرت "سميرة" أمام تلك العبارة، لم يبد على وجهها بالغضب، بل الحيرة والارتباك، تساءلت: كيف أصبحت بهذه السلبية؟ كيف سمحت لرجل غريب أن يصف زوجها بالخائن دون أن تصيح في وجهه مهددة؟

تجاوزت مشاعرها المضطربة بصعوبة وسألته:

"أنت قلت إنهما لم يتزوجا، لكن "چيهان" أكدت لي أنها رأت عقد الزواج".

هز "جلال" كتفيه وقال:

" من الطبيعي أن تدافع عن شقيقها، فهي لا يمكنها أن تقبل أن تطاله إهانة، خاصة بعد موته"

" لكن لم ألاحظ عليها الكذب من قبل".

"أحيانًا نضطر إلى الكذب لحماية أنفسنا أو الآخرين".

سألته بدهشة:

"كيف يمكنك أن تكون متأكدًا لهذه الدرجة؟"

صمت "جلال" للحظة، ثم بدا وكأنه اتخذ قرارًا بالإفصاح:

"لأن "شاهندا" كانت مريضتي في الفترة الأخيرة"

اجتاحتها الصدمة، سألته باستنكار:

"ولماذا لم تخبرني بذلك سابقًا؟"

"هل كان ذلك سيمثل ذلك فارق؟"

ردت غاضبة:

"على الأقل كنت أرغب في معرفة من هي وكيف أتعامل معها".

"لم تكوني في حالة تسمح لك بقبول الحقائق المؤلمة".

حدجته بنظرة لائمة، فأضاف:

"الأهم أن ترمي كل ما حدث خلف ظهرك، وتبدئي حياة جديدة".

تطلعت "سميرة" إلى ابتسامته الواسعة، وغمغمت:

"ليس لي في هذه الدنيا إلا "عمر"."

اختفت ابتسامته من على وجهه، قال:

"ولكن عليكِ أيضًا أن تهتمي بنفسك".

ردت بلا اكتراث:

"لماذا؟ ابني يحتاجني إلى جانبي، ولا يحتاج إلى مظهري أو ملابسي".
صمت "جلال" وهو يتأملها، ثم قال:
"هل تقبلينني زوجًا لكِ؟"
"ماذا"!
"أريد أن أتزوجك بعد انتهاء فترة العدة".
قالت معترضة:
" عمر لن يقبل بأي رجل آخر مكان أبيه، هو لم ينسَ والده لحظة واحدة منذ وفاته".
رد بثقة:
"مع الوقت ننسى من نحب عندما يأخذ الآخرون مكانهم... إنها سنة الحياة".
بقيت "سميرة" صامتة، قام "جلال" من خلف مكتبه وجلس أمامها قائلا برقة بالغة:
"لن تجدِي في هذا العالم أحدا يمكنه أن يفهمك ويفهم "عمر" أكثر مني"
انفرجت شفتاها، لكنها تراجعت، لسبب ما، قال في لهفة:
"لن تندمي على الزواج مني، أعدك بذلك".
آثرت "سميرة" الصمت، غادرت عيادته، وأثناء الطريق تساءلت عن إمكانية بناء حياة جديدة، حياة قد تنجح في تجاوز أحزان الماضي بأسواره الشاهقة.

*****

عاودتها تلك النوبة من جديد، ذلك الشعور بالسخط الذي يضرب حصونها المتهاوية من الأساس، فلا يترك فيها موضع لبنة سليمة، لتستحيل إلى أثر بعد عين. لم تستطع تذكر زمن كانت فيه تلك الحصون قوية شامخة. منذ وعت الدنيا، وهي تتلقى ضربات الحياة كأنها الوحيدة التي تحيا على وجه البسيطة، كشجرة ينتقيها البرق في كل شتاء من بين آلاف الأشجار لتنشب فيها النيران وتحيلها إلى كتلة من الرماد، كأن بينهما ثأرًا قديمًا. لم تفهم لماذا تكيل لها الحياة كل هذه الضربات، وبكل هذا السخاء!

إلى متى يمكنها أن تتحمل؟ إلى متى ستبقى صامدة أمام العواصف التي لا تهدأ؟ راودتها رغبة ملحة في إنهاء حياتها على الفور. تردد في أذنها صوت دكتور "جلال" وهو يحذرها من إهمال تناول الدواء في موعده، لكنها أطلقت زفرة طويلة، رافضةً الانصياع لنصائحه. لم تعد ترى فرقًا بين الحياة والموت، فكلاهما بات سيّان بالنسبة لها، منذ فقدت الشعور بالانتماء إلى هذا العالم البارد المظلم، الذي يبدو لها صغيرًا وضيقًا، كقبر أُعد لفتاة صغيرة أقل حجمًا منها بكثير.

داخلها كان هناك صراع لا يهدأ بين ذئبين؛ أحدهما يحثها على تناول الدواء لتحيا وتكمل رحلتها لما قدر لها، والآخر يدفعها للهروب من هذه الحياة، والركض نحو العدم، أو ما وراءه، إن كان هناك مكان وراءه، المهم ألا تبقى هنا، في هذا العالم الذي يستنزف طاقتها بلا رحمة. ارتعشت يداها حين سيطر على عقلها شبح الموت، أخذت تنظر إلى المطبخ حيث تتراكم الأدوات التي يمكنها استخدامها لإنهاء حياتها: السكين، الغاز، الحريق، سم الفئران... لكن قدميها لم تتحركا، كأن قوة خفية تمنعها من النهوض لاستنفاد حياتها

استسلمت لنداء الحياة الخافت داخلها، رمقت الدرج الصغير بنظرة حائرة، ذلك الدرج الذي يحتوي على ألبوم صورها، دوائها، وبصيص أمل. نهضت وكأن شيئًا يدفعها إليه. فتحت الدرج، أخرجت منه دفتر ذكرياتها، راحت تقلب صفحاته، تقرأ نصوصًا كتبتها في مراحل مختلفة من حياتها. توقفت عند فقرة كانت كتبتها في الصف الثاني الثانوي، دمعت عيناها وهي تقرأ:

"أنا سعيدة جدًا اليوم لأنني ألقيت قصيدة للشاعر "أمل دنقل" أمام المدرسين والطلاب، وخصوصًا أمام "عماد"، الذي كان ينظر إلي بإعجاب شديد، حتى أنني توقفت مرتين من شدة الخجل"

كانت هذه الفقرة تملأ قلبها بالبهجة كلما قرأتها، رغم أن أخبار "عماد" انقطعت منذ دخولهما الجامعة، لكنه كان دائمًا ينظر إليها بعينين تحملان الإعجاب والولع. لم تفهم يومًا لماذا لم تكتمل قصتهما وتتوج بالزواج كما يحدث في الأفلام دائما.

رغم كل شيء، استعاد قلبها شيئًا من عافيته، وهي تستحضر النقاء الذي كان يمثله لها ذلك الشاب القابع في زاوية خفية من ذاكرتها، تستدعيه كلما شعرت بأن الحياة أصبحت لا تطاق.
لم تكن تخبر أحدًا بما تعانيه، حتى "سميرة"، أقرب صديقاتها، لأنها تدرك أن لا أحد يمكنه مد يد العون لها، بخلاف أن"سميرة" نفسها تحتاج لمن ينقذها من كبوتها..
مدت "نجلاء" يدها نحو شريط الدواء، تناولت قرصين دفعة واحدة، كأن قرصًا واحدًا لا يكفي، ارتشفت قليلًا من الماء، عبأت صدرها بالهواء، بدت كأنما أعادت الحياة لقلبها، الذي كان على وشك السكون، ليعود نابضًا، يرقص من جديد، داخل مسرح صدرها الصغير، الخالي.
رن هاتفها، نظرت إلى شاشته، تنهدت، غمغمت بضيق:
" لاشك أنها تحتاجني في التو واللحظة كعادتها، دون أن تدرك أبدا أنني أكثر احتياجا لمن ينقذني مما أنا فيه"
تحدثت عبر الهاتف مع "سميرة" التي طلبت منها المجيء إليها لأمر هام، حاولت "نجلاء" الاعتذار لكنها أبت، فلم تجد مفرا من ارتداء ملابسها والذهاب إليها على الفور.
لم تكد "نجلاء" تطرق الباب حتى فوجئت بـ "سميرة" تفتحه بسرعة، فقالت بضيق:
"أراهن أن ما استدعيتني من أجله لا يستحق كل هذا الاستعجال"
همست "سميرة:"
"لا ترفعي صوتك حتى لا يستيقظ عمر"
جلست "نجلاء" على الأريكة المقابلة وهي ترمقها بنظرة متسائلة، لاحظت "سميرة" وجهها المنهك، سألتها عمّا بها، لم تشأ "نجلاء" أن تخبرها عن معاناتها النفسية الشديدة بعد انفصالها عن خطيبها، كانت ترى أن لا أحد يمكنه مساعدتها في محنتها حتى أقرب صديقاتها، فضلا عن الشعور بالشفقة تجاهها، وهي لا تحب تلك النظرة التي تشعرها بالنقص والحسرة على حالها، الموت أهون لها، أخبرتها متظاهرة بعدم الاكتراث أن الأمر لا يعدو كونه احتياجًا للنوم لا أكثر. هزت "سميرة" رأسها متفهمة، ثم قالت:

"الدكتور "جلال" طلب يدي".
ارتسمت ابتسامة باهتة على وجه "نجلاء"، سألتها " سميرة" بدهشة:
"هل كنتِ تعرفين؟"
"لم يخبرني مباشرة، لكنني كنت أرى اهتمامًا بالغًا تجاهك منذ اللحظة التي وقع فيها نظره عليك".
تمتمت "سميرة" محنقة:
"لا أدري كيف تجرأ على طلب يدي في هذا التوقيت"!
"هو يعلم أنه ما زال أمامك ثلاثة أشهر لإنهاء فترة العدة، لكنه أراد أن يفصح لك عن مكنون نفسه".
"وما رأيكِ؟"
قالت "نجلاء" بحذر:
"لا أجد مانعًا من الموافقة، لكن الرأي الأخير يعود إليكِ بالطبع"
شردت "سميرة" بعقلها بعيدًا، كلما جلست مع "جلال" تشعر بنظراته تخترق أعماقها، تكتشف أغوارها، تتجاوز أسوارها بسهولة، يضع قدميه في أرضها الخصبة، فتصير ملك يمينه. ورغم شعورها بالخوف منه، لم تستطع مقاومته، كأنه يملك في يده مفتاح سعادتها وشقائها.
فكرت في عرضه للزواج في هذا الوقت الحرج، لكنها لم تشعر بالغضب، بل بالحيرة والدهشة. التفتت إلى صديقتها وقالت بنبرة حاسمة:
"لن أمنحه رأيي حتى تنتهي أشهر العدة، ثم أفكر حينها".
"سأعتبر ذلك موافقة"
احمر وجه "سميرة" قائلة:
"إياكِ أن تخبريه بشيء قبل أخذ وقت كافٍ للتفكير"
قالت "نجلاء" وهي تشير بيديها لتهدئتها:
"حسنًا، اهدئي، تبدين كنمرة شرسة عندما تغضبين"
انبعث صوت "عمر" من داخل غرفته بنبرة متناومة:
"لقد رأيت أبي، وقد طلب مني أن أذهب معه لنأكل بيتزا".
أسرعت "سميرة" نحوه، احتضنته قائلة:
"لا، لن تذهب إلى أي مكان، ستبقى معي هنا".

هتف معترضًا، تحسست شعره برفق، تأملت وجهه وعينيه وملامحه بلوعة، قالت له أنها ستحضر له كل ما تطلبه في طرفة عين، رد محتجا أنه سيذهب مع أبيه إذا جاءه ولن يعود مرة أخرى، أشاحت بوجهها وهي تعض شفتيها بحنق، تمنت في أعماقها أن ينتهي هذا الكابوس، للأبد.

*****

هرعت "چيهان" نحو شقة في حي المهندسين شهدت حادثة انتحار. لم تكن لهفتها الشديدة من أجل نجاح صحفي مرموق، بل كان هناك سبب أخطر وأكثر أهمية، سبب يتعلق باسم الضحية نفسها. كانت على يقين بأنه لم يكن مجرد حادث أقدم عليه بمحض إرادته، بل جريمة مكتملة الأركان، حتى من دون النظر إلى مسرح الجريمة، أو انتظار تقرير المباحث الجنائية. حدسها كان يؤكد ذلك الاستنتاج بشدة. غمغمت: "يبدو أن السطح الساكن يخفي أسفله بركانًا نشطًا، بركانًا لا يتوقف عن الفوران."

تسللت عبر الشوارع المزدحمة تحاول اختراقها دون نتيجة. تارةً تسير بسرعة، وتارةً أخرى تبطئ، مما جعل أصابعها تضغط بعنف على عجلة القيادة، وتزفر بعصبية بالغة. وأخيرًا، بعدما كادت تغلي من الغيظ والحنق، وصلت إلى البناية التي وقع فيها الحادث. سارعت نحو المدخل ناسيةً أن تغلق سيارتها.

تجنبت المصعد، وراحت تصعد الدرج وثبًا حتى وصلت الطابق السادس وهي تلهث، لتجد رجال الشرطة والمباحث الجنائية يملؤون الشقة، مانعين إياها من مجرد إلقاء نظرة.

سألت أحدهم، ومحياها يحمل مزيجًا من الحزم والقلق:

"أنا صحفية وأود إلقاء نظرة على القتيل"

" لا توجد أوامر بالسماح لأحد الصحفيين بالدخول"

"من الضابط المسؤول في الداخل؟"

"الرائد يوسف فؤاد"

"أخبره أنني صحفية من جريدة 'الساعة' وأود إلقاء نظرة على القتيل"

حرّك الشرطي رأسه نفيًا وقال بنبرة قاطعة:
"الأوامر تمنعني من ترك مكان الخدمة لأي سبب".
زفرت بغيظ، ثم سألته:
"حسنًا، أخبرني باسمه وسأرحل على الفور"
رد بغلظة:
"لا يحق لكِ التواجد هنا، هيا اذهبي قبل أن توجه إليكِ تهمة عرقلة التحقيقات"
"ليست هذه نيتي بالتأكيد، كل ما أريده هو التأكد من اسم الضحية لأسباب ضرورية. سأخبرك بالاسم الذي حصلت عليه، وإذا كان صحيحًا فأومئ برأسك علامة الإيجاب".
ظل صامتًا لثوانٍ، ثم أومأ برأسه. فسألته:
"هل هو مشنوق بالفعل؟"
لاح في وجهه التبرم، لكنه أومأ برأسه مجددًا. قالت بعد أن منحته ابتسامة ممتنة:
"شكرًا لك، لقد أديت لي خدمة جليلة".
هبطت مسرعة. توجهت مباشرة نحو حارس البناية الجالس على مقعد خشبي مربّد الوجه وقالت له أنها تعرف ما تعرضتَ له من استجواب رجال الشرطة منذ علمهم بالأمر، لكنها تريد معرفة بعض المعلومات عن القتيل لأسباب إنسانية، همّ بالرفض، لكن بعد أن نفحته عدة أوراق نقدية انفكت عقدة لسانه، وعندما أدركت أنها عصرته حتى أتت على آخره، ركبت سيارتها وانطلقت به وهي في صدمة بالغة.
المعلومات التي خرجت من فم حارس العقار كانت كالكلمات المشوّومة، تؤكد أن هناك عاصفة رعدية خلف السحاب، تنتظر فرصة مواتية لتنقض على الجميع دون استئذان.
تخيلت الحقيقة بوجه بشع تتحين الفرصة للانقضاض عليها إذا استفزتها للخروج من مكمنها. كانت تشعر أنها ليست مستعدة لمواجهتها، حتى لو ظل الزيف هو المسيطر على السطح، ما صدمها صدمة بالغة هو اسم ذكره حارس البناية لسيدة كانت تأتي إلى الرجل المنتحر كل أسبوع، تصعد إلى الأعلى

وتبقى هناك عدة دقائق، ثم تهبط وتركب سيارتها وتغادر المكان بهدوء كأنها تؤدي عملا روتينيا، لكنها لم تزره هذا الأسبوع الذي انتحر فيه لسبب لا يعرفه، سألته هل بإمكانه التعرف عليها عندما يراها، فأكد لها بحماس أنه يحفظ ملامحها جيدا ويمكنه تمييزها من وسط الشعب المصري كله دون أدنى خطأ، أخرجت هاتفها واختارت صورة تجمعها ب"نجلاء" و "سميرة" منذ عدة سنوات أثناء حضور عيد ميلاد عمر، أرته الصورة وقلبها يدق بعنف، بمجرد أن طالع الحارس الصورة حتى أشار بسبابته على شاشة الهاتف وقال:

"إنها هي، لكنها هنا أصغر سنا بعض الشيء"

بدا على وجه "چيهان" الصدمة لثوان، شكرته، ثم غادرت المكان، كانت الصدمة ما تزال تحتل ملامحها وكيانها كله، تذكرت بغتة وجودها في نفس توقيت ومكان الحادث الذي شهد مقتل "شاهندا"، حتى إنها استغربت وجودها في المكان حينها، لكنها لم تعطي للموقف حقه من التفكير، هل يمكن أن تكون لها يد في مقتل "شاهندا" وانتحار "عبدالسلام"، توقف عقلها عن التفكير من شدة الصدمة، يبدو الأمر في نظرها أوضح من أن يحتاج إلى تفسير، هي لابد لها علاقة بذلك الرجل من قريب أو بعيد، والدليل ترددها على شقته أكثر من مرة، ألم تكن تعلن أن "عبدالسلام" هذا هو من تسبب في حادث "فهمي"؟ بالتأكيد كانت تعلم وأخفت عن العدالة مكانه حتى فضح أمره حادثة انتحار، لكن ماذا لو لم ينتحر" عبدالسلام"، ارتجف جسدها بقوة مع بشاعة الاستنتاج، لو صدق حدسها فهذا يعني أن الأمر أكبر منها بكثير، لكنها الآن باتت متأكدة من أنها تخفي طنا من الأسرار، لكنها لن تواجهها بالحقيقة حتى تجمع معلومات كافية.

رفضت العودة إلى مبنى الصحيفة، ولم تنوِ العودة إلى منزلها حاملة عبء المعلومات التي استقتها من حارس البناية وحدها. لذا ذهبت إلى منزل "سميرة" لتشاركها ما حصلت عليه. وهناك قصت على مسامع "سميرة" حادثة الانتحار التي وقعت في بناية المهندسين، وعندما أتت على اسمه أطلقت "سميرة" صيحة فزعة، فاستطردت "چيهان":

"أنا أيضاً صُعقت حين وصلني الخبر، ولم أشعر بالارتياح حتى ذهبت إلى هناك وتأكدت بنفسي"

سألتها "سميرة" والحيرة تضرب وجهها بعصا غليظة:

"ألم تقولي إنه سافر إلى "ليبيا" بعد انتهاء التحقيقات معه مباشرة؟"

قالت "چيهان" بنبرة غاضبة:

"بلى، ولكن ما حدث كان خلاف هذا."

استنشقت هواء مشحونًا بالتوتر، ثم أخبرتها بما قاله لها حارس العقار، ترددت قليلا قبل أن تخبرها باسم السيدة التي كانت تزوره حتى الأسبوع الفائت، لم تستطع "سميرة" التلفظ بكلمة لدقيقة كاملة، ثم انفكت عقدة لسانها وتمتمت:

" كان يختبئ في تلك الشقة منذ الحادثة، و" نجلاء" كانت تتردد عليه، أنا لا أفهم شيئا"

"سأذهب إلى" نجلاء" وأعرف منها لما كانت تذهب إليه، أو أتهمها بالشروع في قتل الثلاثة"

"الثلاثة!"

قالت "چيهان" بحدة:

"نعم،" عبدالسلام" و" شاهندا"، حتى "فهمي"!.

لم تفهم" سميرة " كيف تكون "نجلاء" مشتركة في قتل الثلاثة، شرحت لها "چيهان" أن الحوادث الثلاثة على صلة ببعض، وبما أنها كانت تتردد على الرجل في سرية، ورأيناها جميعا في المكان الذي شهد مصرع "شاهندا"، إذن فهي مرتبطة بمصرع" فهمي" شاءت أم أبت"

رزحوا تحت وطأة الصدمة القاسية، غلفهم صمت ثقيل ضاقت به أرواحهم، وناءت به قلوبهم. اغرورقت عينا "سميرة" بالدموع دون أن تنساب منهما قطرة، وكأنها لا تود أن تترك معينها فارغًا. أما "چيهان" فقد انسابت من عينيها دموع حارة واثقة بمدد لا يتوقف، لكنها لم تشأ الاسترسال في الحزن. استخدمت منديلها وجففت به عينيها رغماً عنها، قالت:

"لن يهدأ لي بال حتى أصل إلى الجناة الحقيقيين، لكني أخشى أن يغدروا بكِ مثلما فعلوا مع زوجته الأخرى و"...

قاطعتها "سميرة" صائحة كعاصفة مباغتة:
" ليست زوجته".
حدجتها "چيهان" بدهشة واستنكار بالغين، تساءلت في نفسها ذاهلة: "كيف تفكر بغيرة في اللحظة التي نتحدث فيها عن تورط البعض في قتل زوجها، وتعرضها هي نفسها للخطر حد القتل؟"
لكنها تجاوزت مشاعرها مراعاة للظرف الدقيق، وغمغمت:
"قصدتُ أن أقول عشيقته".
قالت "سميرة" بوجه خلا من أية انفعالات:
"لا داعي لتقلقي عليّ، فلو أرادوا موتي لفعلوا ذلك منذ زمن، لكن، كما قلتِ أنتِ من قبل، 'فهمي' وتلك المرأة تورطا مع بعض المجرمين وذهبا إلى خالقهما".
هتفت "چيهان" باعتراض:
"أتقصدين أن" فهمي" ذهب هباءً؟ كلا، لن يغمض لي جفن حتى أصل إلى أولئك القتلة وأعاقبهم على فعلتهم الشنعاء، حتى لو كان الثمن أن ألحق به هناك".
غادرت المكان بعد أن طلبت منها ألا تخبر "نجلاء" بما توصلوا إليه حتى تواجهها بنفسها. مكثت "سميرة" في مكانها تفكر فيما قالته "چيهان"، وتردد اسم صديقتها "نجلاء" على لسانها في حيرة، ورغم الخوف الذي يعتريها، قالت من بين أسنانها:
" أيا كان القاتل، فلقد نال 'فهمي' وعشيقته ما يستحقانه بالفعل".
*****
دخلت "جيهان" شقة "نجلاء" وهي تحدجها بنظرة حادة لم ترق للأخيرة. جلست أمامها الأخيرة وهي تنظر نحوها بترقب. لحظات من الصمت بدت طويلة، بينما تنتظر ما ستتفوه به. قالت لها إنها أتت مباشرة من شقة وقع فيها حادث انتحار. أخبرتها باسم الرجل، فلم يظهر على وجه "نجلاء" أي تعبير ينم عن معرفتها به. أغاظها ذلك، فقالت دون مواربة إنها تعرف هذا الرجل لكنها تتظاهر بالعكس. أنكرت "نجلاء" معرفتها برجل يحمل اسم "عبدالسلام" أو ما يشابهه.

أخرجت "جيهان" من حقيبتها صورة حصلت عليها من التحقيقات. عندما ألقت "نجلاء" نظرة عليها، أطلقت شهقة عنيفة، وحدقت فيها بنظرة ذاهلة، قالت إنها تعرفه، لكنها لم تكن تعرف اسمه. ومع نظرة الشك التي جابت وجه "جيهان"، أخبرتها أن الدكتور" جلال" كان قد كلفها بإرسال أدوية له كل أسبوع لعلاجه من الاكتئاب، وكان ذلك العلاج يتغير أسبوعيًا، لذا كان يجب أن تذهب إليه بانتظام. ولم تكن بحاجة إلى معرفة اسمه. وفي الأسبوع الفائت، لم يطلب منها أن تذهب إليه، فظنت أنه استكمل علاجه أو أوقفه لسبب ما.

لم تختفِ نظرة الشك من وجه جيهان التي سألتها:

"لا أستطيع أن أستوعب علاقتك بذلك الرجل، وأيضا وجودك في نفس المكان والتوقيت الذي لقيت فيه "شاهندا" مصرعها، دون أن يكون لك صلة بالأمر"

هتفت نجلاء مستنكرة:

"قلت لك من قبل إنني كنت ذاهبة للحديث معها لتبتعد عن طريق" سميرة"، بعد أن جاءت إليَّ واشتكت من رؤيتها عند قبر زوجها. ما الذي كان من المفترض أن أفعله وأنا أرى صديقتي تعاني دون أن أفعل شيئًا يخفف عنها ألمها؟!"

"هل كنت تعلمين أن "شاهندا" كانت حاملًا حين لقيت مصرعها؟"

اتسعت عينا "نجلاء" عن آخرها، قامت "جيهان" من مكانها قائلة:

"لم ينتهِ حديثنا بعد"

قبل أن تغادر، سمعت نجلاء تقول بذهول:

"لقد كانت "شاهندا" أيضًا تذهب إلى الدكتور "جلال" قبيل مصرعها بفترة قصيرة"

استدارت بحدة، منعها المفاجأة من الحديث لثوانٍ، ثم عادت لتجلس أمامها قائلة بلهفة حادة:

"أخبريني بكل ما تعرفينه عن هذا الأمر."

قالت "نجلاء" أنها التقت بها بعد مصرع "فهمي" مباشرة في نادي الصيد، وكانت في حالة يُرثى لها، فنصحتها بالذهاب إلى طبيب نفسي لمساعدتها على تخطي أزمتها الراهنة. ورشحت لها "جلال" تحديدًا لأنها لا تعرف غيره.

أخبرتها أن هذا كل ما تعرفه، فلم تتواصل معها بعد ذلك حتى كانت ذاهبة للحديث معها حين صدمتها السيارة.
غمغمت جيهان، بينما كانت غارقة في أفكارها:
"لا أدري لما تشير كل الخيوط إلى "جلال" هذا... سميرة، شاهندا، عبدالسلام... وفي حالتي سميرة وشاهندا، أنتِ من رشح لهما ذلك الطبيب"
قالت نجلاء بعصبية:
"رأيتهما تعانيان في صمت فمددت لهما يد المساعدة، ما العيب في هذا؟!"
نهضت جيهان واقفة وقالت:
"لا يوجد عيب في الواقع، أو هذا ما يبدو في الظاهر، ستظهر الحقيقة قريبًا لا محالة، فالحقيقة كالشمس، لا بد أن تسطع يومًا ما، مهما حجبتها الغيوم"

رحلت مسرعة دون أن تمنح نجلاء فرصة للرد عليه

****

مضت الأيام سريعة، متشابهة، كأنها تعزف لحنًا رتيبًا، دون جديد يذكر. وفي إحدى الأمسيات، وبينما كانت "سميرة" و"عمر" يرتشفان الشاي في الشرفة، نزلت طرقات هادئة على الباب. ليتفاجأ "عمر" أن الزائر هو الطبيب النفسي الذي كان قد ذهب إلى عيادته من قبل.
منحه "جلال" ابتسامة أبوية وهو يسأله:
"كيف حالك يا 'عمر'، هل تتذكرني؟"
"نعم، أتذكرك جيدًا. سأذهب لأخبر أمي"
عاد بعد لحظات مع والدته بوجه ينطق بالاستغراب. قال محرجا:
"آسف لمجيئي دون موعد سابق، لكني وددت رؤيتك لأمر هام".
سمحت له بالدخول، وعندما جلسوا بدأ حديثه:

"رأيتُ أن آتي بنفسي لأطمئن عليكما، خاصة بعد أن انقطعت أخباركما منذ شهر كامل".

ابتسمت "سميرة" برقة، وضعت يدها على كتف "عمر" وقالت:

"نحن بخير ولم نعد نحتاج إلى جلسات نفسية"

منحها ابتسامة مشفقة وهو يهز رأسه نفيا، أخبرت "عمر" أن يدخل غرفته ليكمل مذاكرته. بعدما خلا لهما المجلس، قالت:

"أنا قادرة على تقييم نفسي وابني جيدًا، وأنا على يقين أننا صرنا على ما يرام".

ازدادت ابتسامة "جلال" المشفقة وهو يقول:

"هل ما يزال "عمر" يرى والده في منامه، طالبًا منه الذهاب معه إلى المطعم ليتناولوا الطعام سويًا؟"

انعقد حاجباها في توتر، قال في ثقة:

"هل لا تزال تتردد في ذهنك ذكريات ما حدث بينك وبين زوجك في أيامه الأخيرة، وعلاقته السرية بـ"شاهندا""؟"

أشاحت بوجهها بعيدًا، لكن "جلال" أضاف:

"أنا أكثر من يفهم ما يشعر به كلاكما نتيجة التجربة القاسية التي مررتما بها، هذا عملي، دعيني أمد إليكما يد العون حتى تخرجا من تلك الأزمة دون ضرر نفسي بالغ"

عادت إليه "سميرة" بنظرة فاحصة، سألته:

"لماذا تهتم بنا إلى هذا الحد؟"

أجابها بابتسامة عذبة:

"لأنكما لستما مجرد اثنين من مرضاي الذين تزخر بهم عيادتي، إنكما تمثلان لي أكثر من هذا بكثير"

نظرت إليه بحرج بالغ، قال:

"ألم يسبق لي أن طلبت يدك للزواج؟"

التزمت الصمت، فقال:

"أنا أحبك يا "سميرة".. وأحب "عمر" كذلك، وأود أن أشارككما حياتكما بحلوها ومرها".

كانت تحاول جاهدًة مقاومة تأثير كلامه الذي ينفذ عبر أسوار قلبها مثل جيش زاحف، قاومته في البداية، ثم انهارت مقاومتها، لكن، رغم استسلامها الداخلي، صدّرت له وجهًا جامدًا لا يفصح عن أي خضوع. قامت من مقعدها وقالت:

"نسيت أن أقدم لك مشروبًا"

أدرك محاولتها الفرار، لكنه قال ببساطة:

" فنجان قهوة سادة ما دمت مصرة"

تشبثت عيناه بجسدها حتى اختفت، قام ومشى نحو صورة فوتوغرافية كبيرة يزينها إطار ذهبي، توقف أمامها وأخذ يتأمل وجه "عمر" الذي ينضح بالبشر، وهو يقف ملتصقًا بأبيه الذي يضع راحته على كتفه وابتسامة كبيرة تملأ وجهه، خلفهما تنتصب الأهرامات الثلاثة في شموخ ومهابة. كان وجه "عمر" يعكس سعادة غامرة.

"القهوة ستبرد يا دكتور"

عاد إلى مقعده وتناول فنجان القهوة من فوق صينية فضية صغيرة متمتمًا بالشكر. ارتشف رشفة صغيرة، ثم سألها:

"هل أنتِ الحريصة على أن تبقى تلك الصورة معلقة على الجدار حتى الآن أم "عمر"؟"

لاح الاستغراب في وجهها لثوانٍ، ثم قالت:

"لم أجد ضرورة لإزالتها، ولم يكن "عمر" ليسمح بذلك على أية حال"

ارتشف رشفة أخرى، وضع القهوة على الطاولة أمامه وقال:

"هل تسمحين لي؟"

لم تفهم مغزى سؤاله فرنت إليه بنظرة مستفهمة، بدلًا من التوضيح، قام بإزالة الصورة من مكانها وخبأها خلف الأريكة الكبيرة. ثم وقف في المكان الذي كانت تحتله الصورة وهتف مناديًا على "عمر."

صاحت في جزع:

"ما الذي تفعله؟"

أشار بيده أن تنتظر، خرج "عمر" من غرفته ومشى نحوه، عبست ملامحه عندما وجد مكان الصورة فارغًا. تأمل "جلال" وجهه ثم قال:

"أنا عرضتُ على والدتك أن تذهب معنا إلى السينما غدًا... ما رأيك؟"
زاغت عينا "سميرة"، نظر "عمر" إلى وجه أمه بدهشة، ثم انزاحت دهشته، وحل مكانها مشاعر الاعتراض والغضب وهو يرمق مكان الصورة الفارغ.
هز "جلال" رأسه متفهمًا، تناول الصورة من خلف الأريكة وعلقها في مكانها السابق، فبدأت ملامح "عمر" تلين تدريجيًا. أعاد "جلال" السؤال على مسامعه فهز "عمر" رأسه نفيًا وحدج أمه بنظرة رافضة.
"حسنًا يا "عمر"، كنت أريد أن أعرف رأيك فقط، هيا عد إلى غرفتك يا صديقي"
بينما كان "عمر" يعود إلى غرفته، حدج والدته بنظرة ساخطة.
احتد صوتها بعدما دخل غرفته:
"ما الذي قصدته بفعلتك هذه؟"
"أردت أن أعرف إلى أي مدى لا يزال "عمر" متأثرًا برحيل والده، وقد رأيت بنفسك ما حدث"
جلست وقد علا وجهها أمارات التفكير، سألها:
"هل نبدأ في الاستعداد لمراسم الزفاف؟"
قالت بعصبية:
"لن يقبل "عمر" أن يرى بديلًا لوالده أبدًا"
"سأجعله يتقبل الأمر تماما"
"وكيف ستعلن له هذا الأمر؟"
قال بحذر:
"لن أعلمه في البداية"
أطلقت صيحة اعتراض، قال وهو يقترب منها:
"سأجعله يعتاد وجودي في حياته أولًا، ثم أفصح له عن زواجنا، وحينها سيتقبلني مكان والده دون كراهية"
صمتت هذه المرة، بدا عليها أمارات التفكير. قال بنبرة رقيقة:
"ثقي بي ولن تندمي"
ابتسمت "سميرة" ابتسامة خجلى، وابتسم "جلال" ابتسامة ظافرة، وكأنهما خاضا معركة نفسية خفية، كان الانتصار فيها حليفه.

*****

لم تكد تنتهي أشهر العدة حتى تزوجا سرًا. اقتصر الحضور على "نجلاء" وبعض أصدقاء "جلال" المقربين. كانت "سميرة" تتمنى أن تملك من الشجاعة ما يكفي لتخبر "عمر" بزواجها، لكن كان ذلك يحمل بين طياته أخطارًا لا قِبَل لها بها. وبالمثل، لم تكن لديها الجرأة لتفضي إلى "چيهان" بسرها. اطمأنت بعض الشيء من ناحية "عمر" بعدما وعدها "جلال" أنه سيقوم بمهمة إقناعه بحلوله مكان والده، بل وسيجعله سعيدًا بذلك أيضًا. مسألة وقت ليس إلا. أما بالنسبة إلى "چيهان" فلم تود التفكير في الأمر من الأساس.

مرت الأسابيع وهما يتقابلان سرًا في شقة يملكها "جلال" في "مدينة نصر" دون أن يفطن لهما أحد. وفي عيد ميلاده، أقنعها "جلال" أن تسهر معه حتى منتصف الليل. وبصعوبة أقنعت "نجلاء" أن تظل مع "عمر" في المنزل حتى تعود، وافقت الأخيرة مرغمة، فقد كان ذلك يعني حرمانها من مشاركتهم سهرتهم المقامة على ضفاف النيل.

وما إن أشارت الساعة إلى منتصف الليل حتى غادرت "نجلاء" المنزل تاركة "عمر" يغط في نوم عميق. انقضى الوقت سريعًا، فهبَّت "سميرة" من مقعدها هاتفة:

"لقد تجاوزت الساعة الثانية عشرة صباحًا، لابد أن "نجلاء" غادرت الشقة الآن وتركت "عمر" بمفرده، يجب أن أعود الآن".

قام "جلال" معها ليوصلها إلى مسكنها. عرضت عليه الدخول كنوع من المجاملة، فوجئت بموافقته التي لم تحسب لها.

سمحت له بالدخول حين كانت الساعة تشير إلى الواحدة صباحًا، مطمئنة إلى أن "عمر" يغط في نوم عميق. همست "سميرة:"

"سألقي نظرة سريعة على "عمر" لأطمئن عليه، ثم أحضر لك شيئًا تشربه".

مدّ يده وجذبها نحوه فشهقت لحركته المباغتة. حاول تقبيلها لكنها امتنعت، همست بصوت خفيض لم يخف من حدته:

"ماذا دهاك يا جلال؟ لو رآنا "عمر" على تلك الحالة لفقد النطق من شدة الصدمة".

قال بلهجة عابثة وهو يشير بسبابته نحو غرفتها:

"وهل يصح أن تمر ليلة عيد ميلادي الخامسة والأربعون دون احتفال حقيقي؟"

حملها بين يديه كجائزة مستحقة، احمر وجهها وهي تهتف:

"أنت تبدو مخمورًا رغم أنني لم أرك تحتسي الخمر الليلة، ماذا دهاك؟ ربما يستيقظ "عمر" في أي وقت ويرانا سويًا"

قال بحماس:

"إذن فلنهرب إلى مخدعنا قبل أن يرانا وتحدث الكارثة".

حملها إلى غرفة نومها دون أن يشعل المصباح. ألقاها على الفراش فكتمت شهقتها بصعوبة، أطلقت عيناها شرارات لاهبة، همست غاضبة:

"كفّ ألاعيبك هذه يا "جلال" ما دمنا لسنا وحدنا، لو وصل صوتنا إلى "عمر" ستكون نهايتي، هل تفهم؟"

لم يبدُ على ملامحه أنه سمع عبارتها الغاضبة، وهو يميل نحوها واثقًا من أن الجو ملائم للاحتفال، استسلمت له مطمئنة إلى استغراق "عمر" في النوم.

مضت دقيقتان على بدء الاحتفال قبل أن يفتح "عمر" عينيه. لم يجد "نجلاء" إلى جواره، هبط من فراشه ومشى إلى غرفة أمه كي يطمئن إلى عودتها. وفي ظلام الحجرة، حيث يتخلله شعاع ضعيف قادم من الردهة الخارجية، انهمكا في احتفالهما الصغير، دون أن ينتبها إلى القدمين الصغيرتين اللتان عبرتا الباب ثم توقفتا بحدة.

بالرغم من أن عقله الصغير لم يستوعب ما يحدث جيدًا، فقد أحس بغيرة تلطم وجهه، حاول تبين ملامح ذلك الرجل الذي يضم أمه بين ذراعيه، لكن الضوء القادم من الخارج عابرًا الباب على استحياء لم ينجح في محو الظلام، كأنما تآمر الضوء الخافت مع الظلام الدامس ليخفيا عنه ملامح الرجل. لم يستطع "عمر" أن يحتمل، صرخ في مزيج من الغضب والغيرة:

"أمي"!

كاد قلبها أن يتوقف من فرط المفاجأة. بدا لها الوقت كأنما توقف عن السير بعناد ليزيد من مأساتها. تمنت "سميرة" لو عاد الزمن نصف ساعة إلى الوراء وتتنازل عن نصف عمرها طواعية.
انفصلا عن بعضهما في بطء يغذيه الصدمة. بدا وجهها بملامح تغضنت واستحالت إلى وجه عجوز، كأن الزمن أراد تعويض توقفه اللحظي فانطلق إلى الأمام في سخاءٍ حاتمي.
لم تنبس "سميرة" ببنت شفة، وكذلك "جلال" الذي وجد نفسه لأول مرة في حياته عاجزًا، وهو الذي يُضرَب به المثل في الدهاء والمكر.
ابتعد "جلال" عن "سميرة" بحركة سريعة، تركَتا عينا الصبي وجهه، وركزت على وجه أمه الذي طالما أحبه وقدسه، سالت من عينيه دموع الحسرة، معلنًا الحداد على قلعته المدنسة.
هبطت أمه من الفراش وهرعت نحوه، لكنه تراجع إلى الوراء بأقدام ترفض الصلح. همست باسمه في لوعة، سكبت عيناها الإقرار بالخطيئة، لكن عيناه أبتا إلا أن تقتلاها متهمةً إياها بالخيانة، فلم تجد ما تدافع به عن نفسها سوى البكاء. ركض "عمر" نحو غرفته هاربًا من قسوة القدر، لكن بكاءه وبكاء أمه لم يكن ليطفئ نارًا انطلق أوارها ليحرقهما بلهيب الافتراق.

*****

غادر "جلال" المنزل بعد أن حاول تهدئة "سميرة" مرارًا دون جدوى، لم يرى داعي للبقاء فتركها في تلك اللحظات العصيبة. أما هي، فلم تتوقف عن البكاء لحظة واحدة، إذ كانت تدرك أنها فقدته للأبد. تمنت أن تذهب إلى غرفته لتسترضيه، لكن أن تلامس بأصابعها نجوم السماء كان أيسر عليها من الذهاب إليه بعد الحالة التي رآها عليها.
نظرت إلى باب غرفته بحسرة، ودّت لو تبني جسرًا للوصول إليه بعد أن حال بينهما بحر هائج، بحر من الغضب والكراهية.

بينما تتحسر على حالها، اقتحم خيالها وجه زوجها الراحل، الذي ترك بغيابه فراغًا لم تستطع ملأه، بل زاد اتساعًا، وانفكت تلك العقدة التي كانت قد عقدتها بيدين حريصتين، لكنه حرص لا يمنع القدر، ولا يثبت عند النوازل.
التقطت هاتفها واتصلت بـ"نجلاء" طالبة منها الحضور إليها بأقصى سرعة.
لم تمضِ نصف ساعة حتى كانت "نجلاء" تجلس معها في غرفة نومها.
تأملت وجهها المنتفخ وعينيها الحمراوين وقالت:
"ستقتلين نفسك من كثرة البكاء، ولن يجدي ذلك نفعًا."
ردت "سميرة" بغصة:
"كنتُ أظنك ستفهمين ما أعانيه."
قالت "نجلاء" بنبرة مطمئنة:
"أفهم تمامًا، لكن "عمر" ما يزال صغيرًا، ويستطيع تجاوز ما رآه يومًا."
"وهل نسي والده بعد مضي ثمانية أشهر على وفاته؟."
"سينساه إن عاجلًا أو آجلًا، ولن يبقى من ذكراه سوى شذرات مبعثرة."
رمقتها "سميرة" بنظرة غاضبة وقالت:
"لن تشعري بما أعانيه ما دمتِ لم تتذوقيه."
قالت "نجلاء" بنبرة جافة:
"وما الذي تريدين سماعه؟ هل أنصحكِ بشنق نفسك كما فعل السائق من قبل؟."
طأطأت "سميرة" رأسها وغمغمت:
"الشنق أو الذبح أرحم بكثير مما أشعر به الآن، إنه لا يريد الحديث معي، بل يرفض مجرد رؤية وجهي."
"إذن عليكِ أن تخبريه بزواجكما."
"لن يغير ذلك شيئًا، سيظل عالقًا في ذهنه ما رآه، بل ربما تزداد مشاعره سوءًا إذا أخبرته."
قالت "نجلاء" بنبرة حاسمة:
"لا بد أن تتعايشي مع الوضع حتى تهدأ الأمور وتعود لطبيعتها."
تمتمت "سميرة" بحسرة:

"لا أظن أن الأمور ستعود لسابق عهدها أبدًا."

نصحتها "نجلاء" بالصبر والتعقل حتى تهدأ الأمور، لكن "سميرة" كانت مستغرقة في دوامة من الذكريات، تسترجع بذاكرتها حين كان "عمر" صغيرًا، يضحك، ويلعب، وكيف أن تلك الضحكات المبتهجة كانت تتردد في أرجاء المنزل، لكن كل ذلك تبدد الآن.

راحت الأسئلة تمطر على رأسها كوابل من الرصاص: "ماذا لو لم يستطع أن يسامحني؟ ماذا لو ظل يكرهني؟ كيف يمكنني استعادة ثقته من جديد؟ ماذا لو كنت قد دمرت كل شيء؟". .

*****

في ساعة مبكرة من الصباح، وقفت "سميرة" في الشرفة تحت شمس تنشر أشعتها الحانية، نسيم رقيق يغلف الجو، طيور تشدو بألحان تطرب الأسماع وتهز القلوب. غير أن كل هذا الجمال لم يصل إلى قلبها؛ إذ كان الندم ينهش روحها بأنياب حادة.

مرّت خمسة أيام منذ وقعت الحادثة المشؤومة، أيام لم يزرها النوم فيها إلا ساعات قليلة، وقد ترك هذا الحرمان بصماته على وجهها؛ جفون مثقلة، هالات سوداء، وجه شاحب، وتثاؤب سافل لئيم يجبرها على فتح فمها بين حين وآخر.

سمعت صوت بابه يفتح، تبعه صوت خطوات بطيئة نحو باب الشقة. أدركت أنه يعتزم الخروج دون أن يخبرها، وكانت تتحين فرصة للحديث معه، فاندفعت خلفه بلا تردد قائلة:

"إلى أين أنت ذاهب؟."

توقف "عمر" عندما سمع حسها، لم يلتفت، أطبق الصمت الخانق على قلبها السقيم، لحظات مرت ببطء كئيب، تضاعف عذابها، ثم، بصوت خافت، مشوب بمرارة الدنيا، قال وهو يحدق في الأرض:

"أنا ذاهب إلى النادي."

تمتمت بصوت مكسور:

"ألا ترغب في التحدث معي؟."

استدار ببطء، عيناه المليئتان بالغضب اخترقتا قلبها كسهام مسمومة، نطق بصوت مختنق بالكراهية:

"لو كان أبي حيًا لقتلكِ أنتِ وهذا الطبيب."

ترك عبارته تتردد في أذنيها كألف غارة، وغادر، تاركًا إياها متسمّرة في مكانها، واقفة كالصنم، عاجزة عن الحركة، بينما كانت دموعها تنهمر بلا توقف حارقة وجنتيها، كحمم متدفقة من بركان مكتوم.

*****

اتصلت"سميرة" ب"جلال" وصرخت فيه بغلّ:

" أحسدك على برودك! كيف يمكنك أن تتصرف وكأن شيئًا لم يحدث؟."

تنهد بنبرة ملل وقال:

" ماذا هناك يا حبيبتي؟"

" عمر لا يزال غارقًا في غضبه، يرفض التحدث معي، ماذا أفعل؟."

قال بلهجة عابثة:

"تعالي إلى منزلي الآن، وسنبحث الموضوع معًا."

هتفت:

"أنت بارد كالثلج! اللعنة عليك".

حاول تهدئتها قائلا:

"لا داعي للصراخ، أظنك تهولين الأمر، وكنت أحاول فقط التخفيف عنك بالمزاح."

"مزاحك هذا لا يخفف عني، وما حدث كان بسبب ثقتي بك."

"ألم تقولي إن "عمر" سيكون نائمًا في تلك الساعة؟."

عضّت شفتيها في قهر قائلة:

"كان ينبغي أن نحتاط للأمر أكثر."

تنهد بصوت عال وقال:

"ما حدث قد حدث، ولن يفيدنا الندم الآن."

ثم أضاف بلهجة مازحة:

"تعالي لنكمل ما كنا نفعله، لولا ظهور ابنك المباغت."

كادت تصرخ مجددًا، تلعنه بأقسى الكلمات وأشنعها، لكنها أدركت عدم جدوى ذلك، فـأغلقت الهاتف وألقته على السرير، لكنه سقط على الأرض، وتفككت أجزاؤه، لم تكترث، أراحت رأسها بين يديها، تفكر فيما ينبغي عليها فعله، شعرت بأن العالم قد أطبق عليها، ولا مهرب من هذا الألم المتعاظم، في النهاية، لم تجد سوى البكاء، وكأن الدموع هي وسيلتها الوحيدة دائمًا لتخفيف الحنق الذي يعصف بروحها، والمرارة التي تمزقها كبدها وتجعلها هشة، كريشة في مهب الريح.

*****

ذهب "عمر" إلى ناديه كعادته في أيام الإجازات، لكن هذه المرة لم يذهب للعب، بل للهرب من المنزل، من التواجد تحت سقف واحد مع والدته. كلما رآها، تجمد ذهنه بتلك الذكرى القاسية، يُعاد المشهد أمامه بكل تفاصيله، تخترق المشاهد عينيه كلَهيبٍ من نار، ويضج سمعه كألف رعد، لا يستطيع الفكاك من هذا الإحساس القاتل.
فكر أن يضع حداً لحياته، لكن سلطة غامضة منعته من الإقدام على تلك الخطوة. ناداه أصدقاؤه لمشاركتهم اللعب في المباراة القادمة، لكنه رفض بحزم، حاولوا إقناعه، صرخ في وجوههم كي يتركوه يهنأ بوحدته، تفاجأوا بردة فعله، وابتعدوا.
كان العالم يبدو في عينيه ضيقًا، كقبر أبيه، بل إن قبر أبيه يبدو أكثر رحابة. تمنى أن يلحق به، ويُدفن إلى جواره، ويلتصق بجسده، لكن كيف؟
قطع شروده صوت عمته التي طالما أحب سماعه لأنها تذكره بوالده، لكن هذه المرة لم تثر في نفسه لهفته المعتادة. سألته "چيهان:"
"لماذا تقف تحت أشعة الشمس دون أن تستظل؟ لقد حلّ الصيف، احذر أشعة الشمس المباشرة."

لم يبادلها الابتسام، لم يبتهج لرؤيتها كما كان يفعل دومًا. في السابق، كان يهرع لاحتضانها بقوة تؤلمها أحيانًا بمجرد رؤيتها، لكنه الآن يبدو وكأنه يحمل همًّا ثقيلًا. راعها ذلك، سألته:

"هل تعاركت مع أصدقائك لهذا لا تلعب معهم؟."

هز رأسه نفيًا، دون أن ينبس ببنت شفة. وضعت يدها على رأسه بلطف:

"قل لي ما بك يا صغيري؟."

نظر إليها بعينين تملؤهما دموع صامتة. صمتُه كان أثقل عليها من أي كلمات تقال. حاولت مرارًا إقناعه ليتكلم، لكنه ظل على حاله، كأنه أغلق فمه بمفتاح مفقود، ولا بد أن تبذل جهدًا حقيقيًا لتعثر عليه. وضعت سبابتها تحت ذقنه ورفعت وجهه إلى أعلى باحثة في عينيه عن إجابة لما يعتمل في نفسه. أدار وجهه بعيدًا، هاربًا من ملاحقة عينيها.

شيء ما يثقل روحه، يمنعه من البوح؛ ربما هو الحزن على والده، ربما خلاف مع والدته، وربما شيءٌ آخر. قالت "چيهان" بأسى:

"أنا لا أعرف ما الذي يحزنك يا "عمر"، لكني سأضطر لتركك الآن لإنهاء مهام تتعلق بالعمل، عدني أنك ستتحدث إلي غدًا."

ظل على صمته الأبدي، مكتفيًا بعينين تتحدثان بلغة لا يمكنها فك طلاسمها، لكنها عاهدت نفسها أن تحطم القفل إذا لم تعثر على المفتاح، المهم أن تطلق لسانه من وزر قيوده غدًا.

*****

ارتدت "سميرة" ثوبًا أسودًا، حافظت على وجه خالٍ من مساحيق التجميل، مما جعلها تبدو كأنها ذاهبة لعزاء. قادت سيارتها بسرعة كبيرة مستغلة الشوارع شبه الفارغة في صبيحة يوم الجمعة.

لم تمضِ سوى ثلث الساعة حتى كانت "نجلاء" تستقبلها بوجه متفاجئ، مستنكرة مظهرها البائس، وزيارتها في وقت غير معتاد. لاحظت التجاعيد التي بدأت تظهر على وجهها، لكنها لم تقل شيئًا. اكتفت بالجلوس إلى جوارها بصمت.

مر الوقت ببطء، وعندما طال الصمت، ربتت على كتفها بلطف. ارتجفت "سميرة" وكأنها استفاقت من غفلة. نطقت بصوت مختنق بالبكاء:

"أريد أن أنهي حياتي، لم يعد لدي شيء لأعيش من أجله."

قالت "نجلاء ":

"لا تنسي أن "جلال" طبيب نفسي ماهر، وسيجد حلًّا لمشكلتك."

عبست ملامحها وهي تصرخ:

"إياك أن تذكري اسمه أمامي مرة أخرى، أخبرته بما يفعله "عمر" منذ تلك الليلة الكارثية، لكنه تعامل مع الأمر ببرود لا متناهٍ."

ترددت "نجلاء" للحظة، قبل أن تقول:

"لكنه يعرف جيدًا كيف يتعامل مع مثل هذه المشكلات."

جلدتها بنظرة ملتهبة، فأسرعت "نجلاء" تقول:

"إذن، ما الحل الآن؟."

قالت "سميرة":

"لا أجد سوى الانتحار، على الأقل سيرتاح "عمر" من رؤيتي أمامه كل يوم، وربما يذكرني بالخير عندما يكبر."

ردت "نجلاء" بحزم:

"الانتحار لن يحل المشكلة، بل سيزيد الأمر سوءًا، سأذهب إلى الدكتور "جلال" وأتحدث معه شخصيًّا، وإذا تبين لي أنه يتجاهل الأمر، سيكون لي معه شأن آخر."

نظرت إليها "سميرة" بعينين ممتلئتين بالدموع. كان اليأس قد احتل روحها بالكامل، ولم تعد ترى في الحياة سوى ظلال ميتة.

*****

أوقف "جلال" سيارته أمام نادي الجزيرة وترجّل منها مرتديًا سترته الرياضية السوداء. دخل النادي بعد أن ألقى تحية باهتة على رجلي الأمن، بدأ يركض في المسار المخصص لذلك بسرعة متوسطة لعشر دقائق متواصلة. توقف بعدها يلهث بقوة وهو يغمغم لنفسه:

"لم أعد أمتلك القوة التي كنت أملكها سابقًا".

ثم أضاف بسخرية:

"لا بد أن النساء هن السبب!"

عاد للركض مجددًا، ولكن هذه المرة بخطوات متأنية. توقف فجأة عندما رأى "نجلاء" واقفة أمامه تقطع طريقه. أدرك من الوهلة الأولى السبب الذي دفعها للمجيء. جذبها إلى جانب المسار وقال بلهجة جادة دون أن يبتسم:

"ما الأمر هذه المرة؟"

ردّت بسرعة:

"علينا أن نجد حلًا لمشكلة سميرة، لا يمكننا الاكتفاء بمشاهدتها تعاني دون أن نفعل شيئًا."

مطّ شفتيه للحظة، ثم قال:

"وماذا يمكننا أن نفعل؟"

"أي شيء! المهم أن نحاول."

بدأا في السير داخل الرقعة الخضراء بعيدًا عن مسار الراكضين. ظل جلال صامتًا، يفكر بعمق، واحترمت "نجلاء" تفكيره فلم تنبس بكلمة طوال خمس دقائق. أخيرًا التفت إليها وقال:

"ليس لدي حل لهذه المشكلة سوى أن تسلك" سميرة" مسلك الصابرين."

اعترضت بسرعة:

"وهل تعتقد أن عمر سينسى ما رآه؟"

"كلا." صمت قليلًا، ثم أضاف:

"لهذا سأستعين بخبرة طبيب له تخصص آخر"

"أي تخصص تقصد؟"

بدا على وجهه التردد، ثم قال:

"طبيب مخ وأعصاب."

ارتفع حاجباها عاليًا من وقع الإجابة. كانت تعرف أن "جلال" لا يمزح أبدًا عندما يتحدث بجدية. التقطت نفسًا عميقًا لتسيطر على توترها، ثم قالت:

"ما الذي تنوي فعله بالضبط يا دكتور؟"

أخرج هاتفه المحمول من جيبه وقال:
"هذا يتوقف على إجابة الدكتور صلاح، اذهبي الآن، وسأبلغك بآخر التطورات."
غادرت "نجلاء" النادي، بينما كان جلال يخوض نقاشًا كانت ترتفع حدته شيئا فشيئا عبر الهاتف مع طبيب المخ والأعصاب، وبدا واضحًا أنه يحاول إقناعه بأمر خارج عن المألوف. بعد دقائق، أنهى المكالمة وأغلق الهاتف وهو يتمتم:
"الأمور الجسام تتطلب حلولًا جسامًا."
ثم عاد للركض، عازمًا على استعادة لياقته البدنية كما كانت في الماضي مهما كلفه الأمر.

*****

جلست في مكانها، ساكنة، عيناها تحدقان في غرفته، دون أن تتجاسر على الاقتراب منها، تماما كإبليس المطرود من الجنة، ممنوع من الاقتراب من المكان الذي كان يحمل بين طياته مكانته الشريفة، وذكرياته السعيدة، وعبادته.
لم تتعافى بعد من آثار الغضب المشتعل في عيني "عمر"، تلك العيون التي تحمل في أعماقها عارها وشنارها. حدثت نفسها" *:لابد لهذا الوضع أن ينتهي، أو أنتهي أنا"* .

انتزعها من أشلاء أفكارها الملطخة بدماء يأسها صوت طرقات قادمة من الخارج. دخل على إثرها "جلال" و"نجلاء"، قال الأول:
"لا تدعي الأمر يحبطك يا حبيبتي، عهدتك قوية دائمًا."
بدت "سميرة" كضبع شرس وهي تقول:
"هل تعلم ما الذي يمكن أن يحدث إذا خرج "عمر" ورآك هنا؟."
تجاهل عبارتها وقال:

"هناك عملية تستطيع أن تجعل "عمر" ينسى ما شاهده في تلك اللحظة."

"عملية."!

"نعم، عملية تُسمى *"نزع الحصين"*، يمكن أن تجعل "عمر" ينسى ما حدث في تلك الليلة، وكل ما مضى من حياته أيضًا، وبهذا، نضرب عصفورين بحجر واحد؛ ينسى مرارة فقد والده، وينسى مشهدنا معًا."

قالت بغضب:

"أفضل أن يتذكرني عاهرة، على أن تُنتزع ذكرياته من رأسه كأنه لم يكن موجودًا في هذه الدنيا من قبل."

اقترب منها وقال برفق:

"كوني واقعية. أبوه قد مات، ولن يضره أن تموت ذكرياته معه. أما أنت، فما زلتِ معه، ويمكنك تكوين ذكريات جديدة رائعة معه."

قالت محتجة:

"وكيف يمكنني محو ذكرياتي معه بتلك البساطة؟."

ابتسم بخبث:

"لا تنسي أن ذكرياته معك ليست كلها جيدة."

ضربت صدره بيدها بعنف، تأوه، قالت:

"لولاك، لما مررتُ بشيء من هذا."

اقتربت منها "نجلاء" وقالت:

" صدقيني، ما يقوله الدكتور "جلال" لمصلحتك ومصلحة ابنك، وإلا ستظلان تعانيان طوال حياتكما."

حدجتها "سميرة" بدهشة، ثم قالت محتدة:

"كيف تطلبين مني أن أنزع من عقله ذكرياته كلها دفعة واحدة! أنا بهذا أقتل أعوامه العشرة دون رحمة."

مع كلماتها أجهشت بالبكاء. حاول "جلال" احتضانها، أبعدته بغلظة، مسحت دموعها بيدها، قالت:

"لن أسمح بذلك، حتى لو كان الثمن هو موتي."

قالت "نجلاء" بأسف:

"المشكلة لن تحل بموتكِ، لأنه سيظل يتذكرك بهذه الصورة المقيتة طوال حياته، ولن تنجح تضحيتك في محو تلك الذكرى من عقله أبدًا. لكن العملية ستنجح."

شحب وجه "سميرة" وصار كورقة بيضاء بالية، اعترفت في قرارة نفسها بأنها محقة، فحتى لو ماتت، ستظل تلك الذكرى ملتصقة في عقل "عمر" مثل العلقة، ولن ينجح الزمن في إزالتها. لكنها، مع كل ما تشعر به من مرارة تفتك بكبدها، لم تكن قادرة على ارتكاب تلك الجريمة البشعة، حتى لو خسرت احترامه لها للأبد.

بإشارة حازمة من سبابتها نحو الباب، غادرا المنزل، دون أن يضيفا بكلمة أخرى.

*****

كانت الشمس تصبّ أشعتها الحارقة على الأرض دون توقف، والجو الخانق يأخذ بالأنفاس، بينما "چيهان" تقود سيارتها عائدة من العمل. مع تعطل مكيف السيارة وجدت نفسها أمام خيارين أحلاهما مر؛ إما أن تغلق النافذة وتتحمل حرارة جسدها المتصبب عرقًا، أو تتركها مفتوحة وتسمح لتيارات الهواء الساخن بلفح جسدها. ولأنها تكره الشعور بالتلزيق، فضلت الخيار الثاني.

كانت ذاهبة إلى منزل "سميرة" لتستفسر عن حال "عمر". وكان بإمكانها تأجيل الزيارة حتى المساء حين تنخفض درجات الحرارة، لكن فضولها كان دائمًا له الكلمة العليا.

بعد رحيل "جلال" و"نجلاء" من منزلها، دخلت "سميرة" غرفتها، أخرجت ألبوم صور "عمر" من خزانة صغيرة. استلقت على الفراش وبدأت تتصفح الصور، غارقة في موجات من الحزن والشوق.

تلك الصور حملت ذكريات غالية لا تقدر بثمن. عادت بذاكرتها إلى الزمن الذي كان فيه "عمر" سعيدًا، قبل أن تنقلب حياتهما رأسًا على عقب. كانت

توقن أن الذكريات ليست مجرد صور مادية يمكن تمزيقها في لحظة غضب، بل محفورة على بعد أميال في عمق الذاكرة. فكرت مليًا في اقتراح "جلال" الذي، في حال وافقت عليه، ستكون قد مضت بكامل إرادتها على شهادة وفاة "عمر." إنها تفضل الموت على أن تفعل هذا.

قطع سيل تأملاتها رنين جرس الباب. كانت "چيهان" واقفة يبدو عليها الإعياء. ما إن دخلت حتى بادرتها بالسؤال عن "عمر". أخبرتها "سميرة" بقلب مرتجف أنه يمكث في غرفته. جلست "چيهان" على الأريكة وقالت:

"رأيت "نجلاء" برفقة طبيبك النفسي أسفل البناية قبل أن تستقل معه سيارته. لماذا جاءوا؟."

تماسكت "سميرة" وهي تقول:

"ما يزال "عمر" يعاني من ويلات فقد والده، لذا استدعيت الطبيب لفحصه، وقد أوصاني بأن أصطحبه إلى عيادته يوم السبت.

" مررت بالأمس عليه في النادي لألقي نظرة عليه، لكن كانت حالته أسوأ مما كان عليه يوم وفاة والده."

اربد وجه "سميرة" رغماً عنها، تفحّصت "چيهان" وجهها وقالت:

" هناك شيء تخفينه عني؟"

حافظت "سميرة" على رباطة جأشها، قالت:

" لا شيء، إنه فقط يمر بنوبة قوية من الحنين إلى والده."

قالت "چيهان" بنبرة شك واضحة:

" لا أعتقد ذلك، فلو كان الأمر متعلقاً باشتياقه لأبيه لما بدا عليه الغضب والتوتر بالأمس."

تصبب العرق من جبينها، رأت نفسها بعين خيالها واقفة في قفص الاتهام، لا تملك حجة للدفاع عن نفسها.

أردفت "چيهان:"

" وأنت أيضًا لستِ على ما يرام، تبدين متوترة بشكل زائد عن الحد، ما الذي يحدث؟"

نفت "سميرة" الأمر باقتضاب، سارت "چيهان" نحو غرفة "عمر"، فأسرعت "سميرة" تقول دون وعي:

" إنه نائم منذ عودته من النادي مرهقاً، فلا داعي لإيقاظه."

استغربت "چيهان" كلامها؛ فكيف فحصه الطبيب النفسي إذاً؟ زاد من ارتيابها أمارات الذعر التي كانت تضرب وجهه "سميرة" حين أرادت دخول غرفته، بدت كأنها تخفي شيئاً. كادت تكمل طريقها وتطرق الباب للتأكد من صدق كلامها، لكن تجنباً لإثارة المشاكل ارتأت أن تأتي لرؤية "عمر" في وقت لاحق، ومعرفة ما الذي سبب له الغضب إلى الحد الذي بدا عليه في الأمس. قالت وهي تلتقط حقيبتها:

"حسناً، سأعود لأطمئن عليه في الغد."

بمجرد أن غادرت "چيهان" تركت "سميرة" جسدها يسقط على الأريكة من هول الموقف، داخلها شعور عميق بالراحة لنجاتها المؤقتة. لكن سرعان ما تبدد ذلك الشعور حين سمعت باب غرفته ينفتح ببطء. استدارت نحوه وقلبها يرتجف، كان يقف هناك، صامتًا، يحمل في نظراته توبيخاً قاسياً. نادت باسمه، لكنه تراجع إلى الداخل وأغلق الباب. أحدث هذا في نفسها هزة عنيفة. دفنت وجهها بين كفيها وأطلقت لدموعها العنان. في داخلها انطلق بوق إنذار يحذرها من أنه لم يعد هناك وقت قبل حدوث الفضيحة. عندها تذكرت حديث "جلال" عن ضرورة إجراء تلك العملية، ولم تجد بداً من اتباع نصيحته.

*****

هرعت "سميرة" إلى عيادة "جلال" طالبة نجدته. لم يمضِ على فراقهما إلا ساعة واحدة لكنها كانت كفيلة بكسر عزيمتها وتحطيمها إربا. سألتها "نجلاء":

"ما الذي حدث دفعكِ لتغيري رأيكِ بهذه السرعة؟."

قالت من بين عبراتها:

"بدأت "چيهان" تشك في الأمر، ولو أخبرها "عمر" بما رآه سأخسر حضانته للأبد، وربما أحرم رؤيته أيضاً."

"متى تودين البدء في إجراء العملية؟"

ردت بعصبية:

"اليوم لو أمكن".

استغرب "جلال" لهفتها لكن لم يعلّق. سألته:

"من الذي سيقوم بإجراء العملية؟"

" الدكتور "صلاح عبد المجيد"، خبير في جراحة المخ والأعصاب، وأحد أصدقائي المقربين أيضاً."

لم يداخلها الاطمئنان رغم نبرته الواثقة، قالت:

" أخبره أن يبدأ على الفور."

كانت الكلمات تخرج من بين شفتيها كصرخة استغاثة، فقال:

" حسناً.. ولكن لا بد أولا من الاتفاق على إعداد خطة جيدة لإقناع "چيهان" بإجراء العملية؛ حتى لا نثير الشك وتتساقط علينا الأسئلة كالمطر."

" كيف؟."

بدا "جلال" مارداً مسيطراً وهو يتراجع بظهره إلى مقعده ويتابع:

"سنعلن أن "عمر" تعرض لحادث سيارة، وأن رأسه تلقّى إصابة مباشرة، احتاج على إثرها إجراء عملية جراحية عاجلة، وبهذا، يمكننا إجراؤها دون مشكلة."

شعرت "سميرة" بالحسرة. كانت تدرك في أعماقها أنها، كأم، تقف على حافة عقوق صبي، لم يكن ذنبه سوى أنه ابن امرأة تسعى للهروب من المساءلة.

ربتت "نجلاء" على كتفها لتخفف من وطأة الأمر عليها. لم تتفاعل "سميرة" معها، بعد أن بات من الواضح أنها لا تملك خياراً آخر سوى الاستمرار فيما

عزمت عليه. أدركت أنها تسير بخطى ثابتة نحو نقطة اللاعودة، حيث لا مجال للتراجع أو تصحيح المسار.

عادت "سميرة" إلى البيت لإحضار "عمر"، وعندما تأخرت، حاول" جلال" الاتصال بها أكثر من مرة، وفي المرة الخامسة قبل أتاه صوتها مختنقًا بالعبرات. كان يدرك جيدًا ما تمر به، لكن لم يمنعه هذا أن يهتف:

"لماذا لا تجيبين يا "سميرة".. لا يوجد وقت لهذا الهراء."!

كررت الكلمة الأخيرة ثم انفجرت بالبكاء. كان يخالجها شعور فظيع بأنها على وشك ارتكاب أبشع ما يمكن أن ترتكبه أم، ستمسح ذكريات ابنها بممحاة من الخسة والنذالة. لكن، لو لم تفعل، لخسرته للأبد، وهو ما لا يمكنها تحمله. تركها "جلال" تفرغ ما في جوفها من مرارة حتى هدأت، ثم قال برقة لم تعجبها:

"هيا يا حبيبتي.. الدكتور "صلاح" في انتظارك.. صدقيني لم يكن مهمة إقناعه بإجراء العملية بتلك السرعة أمرًا سهلًا."

تخيلت نفسها ساحرة شريرة، بل أسوأ ساحرة عرفها التاريخ. حاولت إبعاد الأفكار المظلمة عن ذهنها وهي تطرق باب غرفته المغلقة منذ الليلة المشؤومة، ثم تطلب منه الذهاب معها إلى وجهة لم تعينها. لدهشتها استجاب لها دون تردد. رفض الجلوس إلى جوارها في السيارة التي انطلقت به نحو المستشفى، أو كما وصفت الأمر في عقلها نحو حتفه.

راحت تُعزي نفسها بأنها ستبدأ معه حياة جديدة خالية من المنغصات. نظرت إليه عبر المرآة الداخلية فوجدته مشغولًا بالتحديق عبر زجاج النافذة، كأنه يشحن ذاكرته بمشاهد جديدة. فكرت في عبثية ما يضيفه إلى ذاكرته من صور وأصوات، فهو سيفقدها كلها قريبًا. لكنها ستتولى مهمة ملأ ذاكرته بذكريات جديدة ورائعة.

عندما توقفت أمام المستشفى، قادته إلى الداخل متجنبة النظر إلى عينيه، لكن ضميرها راح يجلدها بقسوة لخيانتها أمومتها. سألها عمر:

"ما الذي نفعله هنا؟."

شرعت تبحث عن إجابة في ثنايا عقلها، جاءها صوت طبيب التخدير لينقذها من ورطتها:

"لا شيء يا صغيري، والدتك تريد الاطمئنان عليك، لذا أحضرتك لتجري بعض الفحوصات، ثم ستعود بعدها إلى المنزل سليمًا معافى."

سألها "عمر" غاضبًا:

"لماذا لم تخبريني بهذا قبل أن تأتي بي إلى هنا؟."

اختنقت عيناها بدموع مسمومة، بينما كان الطبيب يقوده إلى غرفة جانبية. ارتجف قلبها في صدرها. كادت تصرخ لتوقفه، لكنها تذكرت نظرته الكارهة، فاغتيلت عزيمتها. ظهر "جلال" في تلك اللحظة قائلًا:

"سيخضع لبعض الفحوصات أولًا، ثم تبدأ العملية على الفور."

تطلع إلى وجهها العابس للحظات، ثم أردف:

"ما إن يستفيق حتى يصبح عجينة طيعة نشكلها كيفما نشاء."

صرخت في وجهه:

"لو اقتربت منه سأقتلك، هل تفهم؟."

انسحب من أمامها كي يتجنب الصراع معها، بينما كان ضميرها يجلدها بضراوة لم تألفها.

*****

كان الليل قد نصب خيمته في صحراء الدنيا حينما هرعت "چيهان" إلى المستشفى إثر علمها بالحادث. بدا لها الخبر كقنبلة صكت مسامعها بعنف شديد. انطلقت بسيارتها دون مراعاة لآداب المرور. وهناك رأت "سميرة" تقف أمام غرفة العمليات والقلق يأكل ملامحها. هتفت بها:

"ماذا أصاب "عمر"؟."

انعقد لسان "سميرة" بعقدة من سحر أسود. تدخل "جلال" قائلًا:
"لقد اصطدمت سيارتها بسيارة مسرعة استطاع صاحبها الفرار للأسف."

لم تعر "چيهان" أمر هروب السائق اهتمامًا، كان جل اهتمامها ينصب على ابن شقيقها، لذا كررت سؤالها باحتداد:

"المهم هو، هل أصاب "عمر" أذى؟."
قال "جلال" مطمئنًا:
"الدكتور "صلاح" يجري له جراحة بسيطة في الرأس لوقف النزيف، وسيكون بخير، لا داعي للقلق."
هتفت في هلع:
"جراحة في الرأس."!
تجنبت "سميرة" النظر إليها في تلك اللحظة، كانت تشعر أنها ستسكب أمامها كل ما تحبسه في أعماقها، وبدلًا من ذلك انهمرت دموعها بغزارة. شاركتها "چيهان" البكاء حتى نشجت، ثم غمغمت:
" لا أصدق أن "عمر" في غرفة العمليات الآن."
غمغمت "سميرة:"
"المكتوب على الجبين لابد أن تراه العين."
ربتت "چيهان" على كتفها وقالت تواسيها:
" لا أحد يهرب من القدر مهما بلغ حذره، فالحذر لا يمنع القدر."
" بعض الناس يصنعونه بأنفسهم."
ساور الشك قلب "چيهان"، ما الذي تعنيه بعبارتها هذه؟ بدأ عقلها الاستقصائي عمله بربط الخيوط المتفرقة ببعضها، مستندة إلى حدس قوي وخبرة كافية. وقع الحادث في الوقت الذي بدا فيه "عمر" على غير طبيعته، ورفضه الإفصاح عما يؤلمه، وكذلك التوتر الذي صار سمة تميز "سميرة" مؤخرًا، بالتزامن مع ظهور "جلال" في حياتها، والذي من المفترض أن يكون عونًا لها، وزيارته لـ"سميرة" في منزلها مع "نجلاء" بالأمس دون التحدث مع "عمر" رغم أنه كان المعنيّ بالزيارة. اجتمعت تلك الخيوط المبعثرة لتصنع علامة استفهام كبيرة.
راودها إحساس بأن هناك حقيقة مطمورة تحت حجب كثيفة من الرمال المتحركة، ولا بد من الحفر بيدين عاريتين للوصول إلى الحقيقة، حتى لو كان مصيرها الغرق في النهاية. ربما تكون "سميرة" نفسها مسؤولة عما يجري لابنها.

على الرغم من غرابة استنتاجها، فكرت: "خبرتي في تتبع الحوادث دلتني على أن كثيرًا من الأمهات يفقدن أمومتهن لأسباب مختلفة."
إن وجود "جلال" بجوارها يبعث في نفسها اشمئزازًا خفيًا. لم تستطع أن ترتاح له منذ رأته لأول مرة. يبدو لها كشيطان يحرك "سميرة" كالدمية. لم تحتمل الانتظار دون أن تفعل شيئًا؛ حيث يمنحها شعورًا دائمًا بالعجز.

جمعت ما استطاعت من مواصفات السائق الهارب وسيارته ومكان الحادث، ثم استأذنت وغادرت المكان. لكن قبل أن تستقل سيارتها، أرادت فحص السيارة أولًا لعلها تجد ما يفيدها في بحثها. ولعظيم دهشتها، لم تعثر على خدش واحد في جسم السيارة، وكان هذا الخيط الأخير في مجموعة الخيوط التي شكلت منها سهمًا يشير باتجاه "سميرة" وطبيبها، بدلًا من علامة الاستفهام الغبية.

تساءلت، والدهشة لم تبارح عقلها: "هل تورطت "سميرة" مع ذلك الطبيب في أمر ما؟ وهل كان "عمر" يعرف ولم يرد الإفصاح عنه؟."
على الرغم من غرابة ما توصلت إليه، إلا أنه بدا لها منطقيًا للغاية. وهنا هاجمها سؤالٌ انقبض له قلبها بعنف" :هل "عمر" في خطر بالغ ويحتاج إلى من ينقذه؟."
لم تكن متأكدة من استنتاجها بشكل يقيني، لكنها لو انتظرت حتى تصل إلى مرحلة اليقين فربما تخسر "عمر" للأبد. دفعها إحساسها بالخطر لتركض عبر مدخل المستشفى وسط دهشة الجميع، ثم تصعد الدرج قفزًا حتى الطابق الثالث. كانت "سميرة" تجهش بالبكاء في حين يحاول "جلال" تهدئتها، في مشهد يكشف عما يجول بخاطرها، قالت:
"أخبريني بالحقيقة، هل تعرضتما لحادث، أم أن هناك شيئًا لم تفصحي عنه بعد؟."
عودتها المفاجئة شلّت لسان "سميرة" لثوان، تجاوزت صدمتها بصعوبة:
"ولماذا أكذب عليكِ؟."

تفحصت "چيهان" وجهها، ثم قالت برجاء:
"أنا لا أعرف ما الحاصل بينكما، لكني على يقين من أنكما تخفيان سرًا.
أرجوكِ يا "سميرة"، أوقفي تلك العملية، ولا تجعلي ابنكِ يتحمل ذنبكِ."
هتف "جلال" محتدًا:
"هل تريدين منها أن تمنع إجراء عملية لإنقاذ حياة ابنها؟."
هتفت بغيظ:
"أي حادثة تلك التي لا تترك أثرًا على جسم السيارة؟."
انفجرت تلك العبارة في وجهيهما كلطمة كبيرة قاسية، لكن "جلال" حافظ على رباطة جأشه قائلًا:
"في الحقيقة هو الذي تعرض للحادث وليست السيارة."
حدجته "چيهان" بنظرة متهمة، ثم التفتت إلى "سميرة" التي تشبثت بالصمت كملاذ أخير. أدركت حينها أن الوقت يمر بسرعة مخيفة، والحديث معهما لن يوقف الجريمة. ركضت نحو غرفة الجراحة وأوشكت أن تفتح بابها لولا أن منعها رجل الأمن بغلظة
حينئذ عادت إليهما وهتفت غاضبة:
"لن أسمح لأحد بأذية ابن أخي حتى لو كانت أمه، سأضطر للذهاب لإبلاغ الشرطة لتبت في الأمر. سامحيني يا "سميرة" فأنا لم أعد أثق بكِ."

دخلت "چيهان" قسم الشرطة في عجالة. طلبت على الفور رؤية أعلى رتبة في القسم. استقبلها الرائد "يوسف فؤاد" الذي أبدى اهتمامًا بشكواها. حكت له ما حدث وأبدت له شكوكها، تفحص الرائد ملامحها للحظات، وأدرك أنها لا تهذي، لكن بدا له أن هناك احتمالًا من أن تكون بالغت في تصور الأمور. فكر مستغربًا: ما الدافع وراء محاولة أم إدخال ابنها إلى غرفة العمليات سوى إصابته؟
أشار لها بالجلوس قائلًا:
"ربما يثير الأمر الريبة، لكنه لا يصل إلى حد كونه جريمة مكتملة الأركان كما تظنين."
"هل تظنني أهذي يا سيادة الرائد؟."

ابتسم لها قائلًا:

"لا، ليس لدرجة الهذيان، لكني أعرف الصحفيين أمثالك، فهم يميلون للمبالغة في المعتاد."

مالت نحوه، وقد تملّكها جدية بالغة:

"هل تتذكر "عبدالسلام فتحي بيومي" الرجل الذي انتحر في شقة مفروشة بالمعادي؟ هو نفسه من تسبب في موت أخي، وزوجته الثانية "شاهندا" صدمتها سيارة بينما كانت تخرج من البناية التي تسكن فيها."

أدرك أن الأمر أخطر مما تصوّره. بعقليته البوليسية الماهرة، بدأ يربط بين مقتل شقيقها، وانتحار من تسبب في حادث مقتله، وموت زوجته الثانية بواسطة سيارة منزوعة الأرقام، وابنها الذي تعتقد عمته أنه أُدخل غرفة العمليات لسبب ما، إضافة إلى ذلك، عدم وجود خدش واحد على هيكل السيارة الخارجي كما تقول. تلك الخيوط اجتمعت لتثير اهتمامه البالغ بالقضية، فهبّ واقفًا بحماسة:

"هيا بنا أيتها الصحفية النشطة."

شعرت "چيهان" بالأمل بعدما تدخل الرائد بسلطته. انطلقا معًا نحو المستشفى. وقبل أن يصعدا، اتجه إلى السيارة ليتفحصها عن قرب. لدهشته وجد جانبها الأيمن منبعجًا من أثر اصطدام. وما إن لمحته "چيهان" بدورها حتى هتفت غاضبة:

"لقد فحصتها بنفسي قبل أن أذهب إليك مباشرة ولم يكن بها خدش واحد، لكن يبدو أنه عندما واجهتهم بالأمر وهددتهم بإبلاغ الشرطة، افتعلا تلك الإصابة ليحميا نفسيهما من أي تهمة."

"أصدقك، فتلك الإصابة حديثة للغاية".

أشار إليها أن تتبعه .كانت "سميرة" واقفة أمام غرفة العمليات، صامتة كالأموات، فتقدم إليها وعرّفها بنفسه، ثم قال:

"آسف لمجيئي في هذا الوقت غير المناسب، أردت الاطلاع على الأوراق المتعلقة بالعملية التي تُجرى الآن للطفل "عمر فهمي" لعمل محضر بالحادث، حتى نستطيع القبض على الجاني قبل أن تتاح له فرصة الفرار

بفعلته."

التفتت "سميرة" إلى "جلال" كأنها تستنجد به، فأسرع قائلًا:
"اسمح لنا سيادة الرائد بتأجيل عمل المحضر حتى نطمئن على "عمر" أولًا."

فحص الرائد كافة الأوراق المتعلقة بالعملية، ولما لم يعثر على ما يثير شكوكه، غادر المكان على الفور، تبعته "چيهان" بعد أن حدجتهما بنظرة تحدٍّ سافرة. وهنا تنفست "سميرة" الصعداء. قال "جلال" بثقة:

"اطمئني يا حبيبتي، لن يحدث غير ما خططنا له."

فوجئ بها تصيح:

"لولاك، ما حدث شيء من ذلك، عليك اللعنة."!

*****

تأمل الرائد "يوسف" وجه "سميرة"، ثم سألها:

"هل أصبح "عمر" بخير الآن؟."

"لا أدري، لقد انتهت العملية الجراحية، لكنه لم يفق بعد."

نجحت "سميرة" في أن تبدو في عينيه متماسكة رغم ما بها من ألم. مشهد ابنها وهو ملقى على الفراش دون أن تعرف مصيره كان يشدها نحو الاعتراف، لتجثو على ركبتيها، وتعترف له بكل شيء، لولا أنها تذكرت "جلال" وهو يعدها بمساعدتها إذا تمكنت من السيطرة على مشاعرها، لكن الثقة التي كانت تشعر بها تجاهه بدأت تتآكل، كلما اتبعت خطواته، كانت تقترب أكثر من الهاوية، واليوم كانت تلك الهاوية تناديها كما لو كانت النداهة تسحبها إلى أعماق مظلمة.

"هل أنتِ بخير؟."

"متعبة قليلًا بسبب حرماني من النوم ليوم كامل."

عيناها تعكسان حيرة وقلقًا واستنفارًا. ورغم خبرته، لم يستطع اختراق تلك العواطف المتشابكة، كأنها تخفي أسرارها داخل صدفة محكمة، لكن عينيها كانتا أحيانًا تخونها فتكشف عن خباياها، ما يدل على أنها تعاني من مقاومة

ضميرها. هل هو ألم ناتج عن شعورها بالمسؤولية تجاه ما حدث لابنها؟ أم هو ثقل جريمة لا تستطيع التعايش معها؟

كان يطرح عليها أسئلة تقليدية بصوت هادئ يحمل نبرة غير مبالية، في المقابل، كانت "سميرة" تجلس في المقعد المواجه بظهر مشدود، عيناها تراقبان كل حركة تصدر عنه .أبدت له دهشتها من الحادثة، وانزعاجها الشديد لما أصاب "عمر"، وعدم استيعابها الأمر حتى اللحظة. لاحظ أنها تمسك بمعصمها الأيسر بقوة، محاولة منع يدها من ارتعاشة خفيفة لم تخفَ عن عينيه.

توقف عن الحديث لبرهة، فقط ليمنح نفسه فرصة لقياس رد فعلها. كانت عيناها تبتعدان عنه سريعًا كلما تلاقت نظراتهما. وعندما انتهت الأسئلة تنفست الصعداء. وقف "يوسف" ليعلن لها أن بإمكانها الـعودة إلى منزلها.
وهي تغادر، لاحظ ارتخاء كتفيها كأنها ألقت عن عاتقها عبئًا ثقيلًا، لكنه في قرارة نفسه كان يشعر أن الأمر ليس كما يبدو على ظاهره.

عادت من قسم الشرطة إلى المستشفى مباشرة، لا يزال "عمر" غارقًا في غيبوبته بعد انتهاء العملية بيوم كامل. وقفت "سميرة" خلف الزجاج الفاصل، تراقبه بقلق، دموعها تتساقط في صمت، لكنها تصنع في قلبها ضوضاء اصطكاك أمطار عنيفة. كان من الصعب عليها تحمل هذا العبء الجاسم على صدرها كأنه الموت. إنها على وشك الانهيار. تتمنى أن تعترف أمام الجميع أنها ارتكبت جريمة في حق ابنها، لإسكاته. أي جريمة أبشع من ذلك؟ إنها تستحق الإعدام، دون قضاة ومحاكمة، ودون أن تُعطى الفرصة للوقوف في قفص الاتهام. حتى الإعدام، بأي شكل، يعد رحمة لا تستحقها.
سمعت "چيهان" تقول:
"هل تظني أن دموعك ستخفف عنك عذاب الضمير؟ وهل تعتقدي أن ندمك سينقذك من العقاب الإلـهي؟"

استغربت "سميرة" وضوح الصوت، لكنها أدركت بعد لحظات أنه قادم من خلفها، وليس من أعماقها. استدارت ببطء، كانت "چيهان" ترمقها بنظرة حادة، غاضبة. أغمضت "سميرة" عينيها محاولة الهروب من الضغوط المحيطة بها، لكن "چيهان" حاصرتها بلا شفقة:

"اعترفي بما فعلته، لعل ذلك يخفف عنك الألم الذي ينهش أعماقك".

كادت "سميرة" تبوح لها بكل شيء لتتخلص من عذاب الضمير، لكن صوت "جلال" المفعم بالثقة اقتحم المشهد بغتة:

"الدكتور صلاح أخبرني أن حالة "عمر" مطمئنة، وسيستعيد وعيه خلال يوم تقريبًا".

حدجته "چيهان" بنظرة صامتة تخفي كراهية شديدة، ثم عادت للتركيز على وجه "سميرة" وهي تقول:

"سأنتظر استيقاظه لأعرف منه ما كان يجب معرفته عندما التقيته في النادي، لكني لم أحسن تقدير الأمور حينذاك".

قال "جلال" بصرامة:

"أرى أنك تبالغين في وصف الأمر وكأننا في فيلم من أفلام الجريمة خلال فترة الستينات".

جاء صوتها عنيفًا:

"الحياة أعقد وأقسى، وأبطالها في أحيان كثيرة يتفوقون على أبطال أفلام الجريمة في الشر والمكائد".

"لا أفهم ماذا تعنين".

"بل تفهم ما أعنيه جيدًا. ذلك الندم الذي يبدو على وجه "سميرة" يدل على أنها ارتكبت خطأً كبيرًا، ولا شك عندي أنك وراء ما حدث منذ البداية. أنت تلعب دور الشيطان بجدارة"

نظر إليها بغيظ، ثم قال لـ"سميرة:"

"سأذهب لأقوم ببعض الأعمال الشيطانية، وداعًا".

اقتربت "چيهان" من "سميرة" وقالت:

"إذا حدث أي سوء لـ"عمر" فلن أسامحك أبدًا".

لم تنبس "سميرة" ببنت شفة، لكنها بدت كأنها تقاوم رغبة عنيفة في البكاء.
شعرت "چيهان" بمعاناتها، رغم صمتها، فقالت تترجاها:
"أرجوك، لا تتبعي ذلك الشيطان، فهو يحفر لكِ ولابنكِ قبرين".
قالت "سميرة" بحزم:
"سأصلح ما أفسدت بيدي، أعدك بذلك".
لوحت "چيهان" بيدها وهتفت محنقة:
"مثلك لن تصلح ما أفسدته أبدًا، عنادك يحجب الحقيقة عن عينيك، ولن ترينها حتى تكوني قد فقدتِ كل شيء".
غادرت "چيهان" المكان وهي تغلي غضبًا. وفي ذهن "سميرة" نمت فكرة عميقة جذورها، ثم انتشرت لتغمر عقلها ووعيها، وهي الانتقام من "جلال" إذا أصيب ابنها بضرر. ولم تكن تسمح لأحد باجتثاث تلك الفكرة من عقله أبدا.

*****

ما إن استلمت "چيهان" التقرير الطبي حتى أخذت عيناها تثب بين السطور.
وضعت التقرير أمام المدير قائلة بخيبة أمل كبيرة:
"لا جديد هنا، إصابة "عمر" في الرأس إصابة مباشرة، مما استدعى دخوله غرفة الجراحة لوقف نزيف داخلي في المخ".
"وما الجديد الذي تتحدثين عنه تحديدًا؟"
قالت بنبرة مشوبة بالسخط:
"سيارة "سميرة" لم يكن بها أي خدش عند فحصها، لكن تم إحداث تلك الصدمات في جانبها الأيمن، هذا يعني أن هناك من دبّر هذه الحادثة ليخضع "عمر" لعملية في رأسه. السؤال هو: لماذا فعلوا ذلك؟"
قال المدير بحيرة:
"لا علم لي بتلك الحادثة المدبرة كما تقولين. ما أعلمه هو ما أخبرني به الدكتور "صلاح" بنفسه، وهو ما أورده في هذا التقرير".
ضغطت "چيهان" أسنانها بغيظ، وقالت:
"لكن هذا لم يحدث".
"وما الذي تعتقدين أنه حدث؟"

" الذي حدث هو أن الدكتور "صلاح" لفق هذا التقرير ليخفي تورطه في الجريمة، وأنه أجرى العملية بناءً على تعليمات الدكتور "جلال فوزي"، الذي بدوره ينفذ تعليمات "سميرة" بدقة".

هتف المدير محتجًا:

" سيدتي، الأمور لا تُدار في مستشفاي بهذه الطريقة، ثم من هي "سميرة" هذه؟"

أصابها تردد مفاجئ، لكنها لم تجد مفرًا من قول الحقيقة:

"أمه".

بدت على ملامحه دهشة كبيرة وهتف :

" ولماذا تشارك أمه في تلك الجريمة؟"

" لتخفي جريمة أخرى".

" أنا لا أفهم شيئًا".

تنهدت "چيهان" ثم قالت:

" سيفهم الجميع كل شيء في وقته".

ثم نهضت من مقعدها قائلة:

" وحتى ذلك الحين، لن أقف مكتوفة اليدين دون محاولة كشف الحقيقة"

تابعها المدير بنظره حتى غابت، ثم حكّ لحيته وغمغم:

"الناس صاروا مجانين هذه الأيام".

*****

وقفت "سميرة" أمام الزجاج الفاصل، عيناها مثبّتتان على وجه ابنها الذي يرقد بلا حراك. تترقب اللحظة التي يستيقظ فيها. ساورتها تساؤلات متكررة؛ هل سيتمكن من التعرف عليها، أم سيفقد ذاكرته ويعود كطفل لا يعلم شيئًا عن العالم من حوله كما قال لها الطبيب؟ لم تستطع التملص من تلك الأفكار، فبقيت متسمرة في مكانها، متمسكة بالأمل.

فجأة، بدأت الإشارات الحيوية على الجهاز تتغير، انتفضت في مكانها وترقبت وجهه بشغف، فلا بد أن الصفير إشارة لعودة "عمر" إلى الوعي.

هرعت الممرضة لفحصه، ودخلت "سميرة" خلفها، وقفت أمام سريره مشحونة بمزيج من مشاعر الترقب والقلق.

فحصت الممرضة الأجهزة والأسلاك المرتبطة بجسد "عمر"، ثم غادرت المكان قائلة:

"لا تلمسي شيئًا حتى أعود مع الدكتور "صلاح".

تعلقت عينا"سميرة" بعيني "عمر" اللتان تتجولان في أنحاء السقف باهتمام. همست باسمه بصوت خافت، لكن الوقت مر ببطء، وكأنها انتظرت عصورًا، قبل أن تستجيب عيناه وتستقران على وجهها، لكنها لم ترَ فيه أي علامة على تعرفها، ونزف قلبها ألمًا.

"أنا أمك يا "عمر"، هل نسيتني؟."

بدا كأنه لم يرها من قبل، اهتز قلبها بعنف، قالت:

"هل تذكر عندما كنا نذهب سويًا إلى النادي والسينما؟"

لم يبدر عنه أية استجابة، شعرت باليأس يقتحم قلبها، لكنها لم تفقد الأمل كاملا بعد.

"هل تذكر أصدقاءك في النادي؛ "كمال" و"محمد"و"علي"و"يوسف"و"إبراهيم"؟

كان كل ما حصلت عليه صمتًا مريبًا.

"حاول أن تتذكر يا عمر، لا تستسلم للنسيان".

"هل تذكر بابا "فهمي"؟"

لم يتغير شيء في ملامح وجهه.

هنا فقط، احتل اليأس قلبها، ونشر جنوده على امتداد طرقه وداخل قلاعه وحصونه

في تلك اللحظة دخل الطبيب. قالت "سميرة" بصوت مفعم بالهلع:

"إنه لا يتذكرني بالفعل"

راقب الطبيب عيني "عمر" اللتان ثبتهما على وجه أمه في حيرة، وقال:

"إنه يعرف وجهك لكن دون ذكريات".

عندما رأى حيرتها، أكمل:

"ألم يحدث من قبل أن صادفت وجهًا مألوفا لك دون أن تتذكري أي شيء عن صاحبه؟."

"هل تعني أنه يعرف وجهي لكنه لا يذكر أين رآه ولا متى قابله؟."!

أومأ الطبيب برأسه، وأضاف:

"لقد فرغت ذاكرته وعاد كطفل رضيع في أيامه الأولى"

قاومت "سميرة" إحساسًا بالموت، سألته:

"كيف يمكنني ملء ذاكرته من جديد؟."

لم يجب الطبيب على الفورً، كررت السؤال في جزع، فقال:

"لقد أخبرتك من قبل أنه لا يمكنه تكوين ذاكرة جديدة".

قالت بينما تتشبث بآخر خيط أمل:

"سأطلعه على صوره معي ومع أبيه، أعرفه على أصدقائه وزملاء دراسته حتى تعود ذاكرته الأولى، أو ينشئ ذاكرة جديدة؟."

نظر إليها الطبيب مليًا، ثم سأل:

"ماذا تفعلين إذا فرغت منك زجاجة الماء؟."

"أعيد ملأها من جديد".

"وماذا لو كانت تلك الزجاجة تالفة أو مثقوبة؟."

عندها فقط، شعرت بسكين حاد يطعن قلبها طعنة نجلاء، تدفق الدمع من عينيها ناعيًا آمالها الضائعة، تضعضعت نفسها، وانطفأ نور عينيها، ولم تعد ترى سوى مصير مظلم في انتظارها.

اقتربت من "عمر" الذي كان لا يزال يحدق في كل شيء حوله، كأنما يراه لأول مرة. تأملت وجهه، ذكرها ملامحه الهائمة الحائرة بلحظة ولادته، انحنت وقبلته على جبينه، همست في أذنه، كأنها تبث له عهودًا: "أعلم أنك لم تعد تذكر شيئًا عن حياتك السابقة، ولن يعد بمقدورك تكوين ذاكرة في المستقبل أيضًا، لكن عليك أن تتذكر جيدًا أن من فعل بك هذا شخصان لا ثالث لهما؛ "جلال"، وأمك.. ولقد أخذت على نفسي عهدًا أن أنتقم من كلاهما انتقامًا يليق بجريمتهما النكراء".

لم يسمع الطبيب ما تهمس به في أذن ابنها، لكن تلك الانفعالات التي تتقافز على وجهها برعونة، جعلته يدرك أنها بلغت المنتهى من الغضب

*****

بعد قضاء ثلاثة أيام في المستشفى عادت "سميرة" بابنها إلى المنزل. راقبته وهو ينقل بصره بين محتويات الشقة وغرفته، آملة أن تلمح في عينيه ما يدل على عودة ذاكرته. لكن ما طالعها كانت نظرات غريب يرى المكان لأول مرة. خيبة الأمل سحقت قلبها، اليأس نهش روحها تاركًا فيها فجوة لا يسدّها إلا الانتقام. تمنت أن يعود إلى سابق عهده، حتى لو حمل لها بغض العالم.

سألته عن المكان الذي كان يفضل أن يجلس فيه دائمًا، رمقها بنظرة تائهة، أجلسته في مقعده المفضل وقدمت له كوب لبن فتناوله وشربه عن آخره. حدجته بنظرة حائرة؛ هل يفقد الإنسان طباعه إذا فقد ذاكرته؟ فلم يكن يذوق اللبن إلا بعد إلحاح شديد.

"هل أُحضر لك كوبًا آخر؟"

أومأ برأسه. شرب الكوب الثاني بنفس الشراهة. ساعدته على خلع حذائه، قادته إلى غرفته، أبدلت ملابسه، بعدها أرقدته على الفراش واستلقت إلى جواره. مدت ذراعيها المرتعشتين واحتضنته، وانتفض قلبها بالحياة من جديد. لم تصدق أن قلبها الذي مات يمكنه العودة إلى الحياة ليخفق بهذا الشكل. قبلته بعشق، وهمست في أذنه:

"سأحكي لك أجمل قصة يمكن أن يسمعها إنسان".

لكن القصة التي سردتها على مسامعه لم تكن من تأليفها، بل كانت قصته هو. حكت له تفاصيل حياته منذ طفولته، مرورًا بمدرسته، أصدقائه، رحلاته مع والده، على أمل أن تستعيد ذاكرته مهمتها كما استعاد قلبها نبضه. لكن، لم يكن الأمل وحده كافيًا لتحقيق المعجزة.

تذكرت ألبوم الصور، قامت وأحضرته ونشرته أمامه. شرحت له حكاية كل صورة. ركزت على الصور التي تجمعه بوالده. حيث رأت فيها الأمل لإحياء ذاكرته الميتة. بعد نصف ساعة من محاولات حثيثة لم تحصل إلا على الخيبات، فاستسلمت لأمواج اليأس الهائلة تقذفها برعونة حيث شاءت.

أسندت ظهرها إلى الوسادة وأغمضت عينيها وسرحت بخيالها:"ماذا لو كان ما أحياه كابوسًا لعينا لا يمت للواقعة بصلة؟"

فتحت عينيها لتجد "عمر" يرمقها في حيرة، أبعدت وجهها هربًا من ملاحقة عينيه.

حينما استسلمت للواقع شعرت بأنها تستحق ما حدث لها منذ البداية. فكرت في إنهاء حياتها لكن وجود "عمر" بجانبها منعها من التهور. بينما كانت تغرق في لجة أفكارها سمعت صوتًا خافتًا:

"ماما."

انتفضت وهي تفتح عينيها وتحملق في وجهه بلهفة، لكنها لم تقابل في طريقها سوى نفس النظرة الحائرة الخربة. سألته:

"هل تريد شيئًا؟" فأومأ برأسه.

استنتجت أنه يريد الذهاب إلى الحمام. ساعدته على الدخول وانتظرته في الخارج. طرقت الباب بعد دقيقة لكنها لم تسمع رد. أصابها الذعر، دفعت الباب لتجده واقفًا في مكانه دون أن يقضي حاجته. تمتمت بحزن:

"لقد قضت عليك أمك للأبد."

ساعدته على خلع بنطاله، ثم نظفته بعد أن قضى حاجته.

عرضت عليه الطعام فأكل، لوحت بزجاجة اللبن فهز رأسه موافقًا. شهيته المفتوحة كانت لغزًا محيرًا بالنسبة لها. اتصلت بالطبيب لتسأله:

"هل هناك علاقة بين تلك العملية واتساع شهيته؟"

قال ببساطة:

"ليس هناك علاقة مباشرة بينهما، لكنه ينسى أنه أكل بعد مرور ربع الساعة، لذا يمكنه تناول الطعام في كل مرة تقدمينه إليه".

"وما الذي ينبغي فعله؟"

"لا تعرضي عليه الطعام إلا في مواعيد محددة، وإلا سيصاب بالسمنة المفرطة"

ثم أضاف:

"يمكنه أيضًا مشاهدة الأفلام والمسلسلات ولن يشعر بالملل قط، لأنه سينسى ما شاهده بعد دقائق معدودة"

أغلقت الهاتف وراقبته وهو يتناول طعامه، سقطت من عينيها دمعة استغلت حزنها ففرت من مآقيها. بعد ما أنهى طعامه قالت باسمة:

"هيا لننام معًا يا صغيري، فأمامنا يومًا حافلًا في الغد"

لكن في أعماقها، كانت تتمنى ألا تستيقظ أبدًا.

*****

استرخى "جلال" في مقعده على متن الطائرة المتجهة إلى "لندن". شعر بخدر لذيذ يسيطر على جسده بعد تثاؤبه مرتين متتاليتين. من خلال النافذة تأمل السماء الصافية التي بدت كسجادة زرقاء منبسطة أمامه بلا غيوم، ومن أسفل بدا البحر الأزرق الممتد كمرآة عاكسة لزرقة السماء في الأعلى. منحته تلك الصورة للمساحات الشاسعة إحساسًا وهميًا بالخلود.

أغمض عينيه مسترجعًا حديثه الأخير مع "نجلاء" قبيل سفره. أخبرها أنه سيسافر لحضور مؤتمر علمي في "لندن" يستمر لأسبوع، وطلب منها أن تبلغ "سميرة" بسفره الاضطراري. لم يكن المؤتمر في حقيقة الأمر سوى ذريعة لتفادي الصدام مع "سميرة" الغاضبة ريثما تخضع للأمر الواقع، لكن في الوقت الراهن الفرار بجلده كان الحل الأسلم حتى تهدأ الأمور.

حطت الطائرة رحالها في مطار "هيثرو" فتوجه مباشرة إلى شقته التي يملكها في "لندن" منذ سنوات. في المساء اتصل بـ"نجلاء" وسألها عما دار بينها وبين "سميرة" عندما أبلغتها بسفره.

ردت خائفة:

" لم أبلغها بعد، فأنا لا أستطيع مواجهتها حتى تهدأ، ستقتلني إن رأتني"

ثم أضافت بمرارة:

"إذا كنت تحبها كما تقول فلما خدعتها؟ لقد كنت تعلم أن العملية ستمحو ذاكرته من الوجود"

رد بنبرة جافة:

"كنت أريدها لي وحدي، ولم أفكر في العواقب"

"لقد دمرت حياتها، فلم تعد تملك هي سوى حياة مشوهة"

"كانت حياتها مدمرة بالفعل حين أتيتِ بها، كل ما فعلته هو ما كان القدر سيفعله تمامًا"

قالت بغضب:

"تتحدث وكأن الله أطلعك على القدر"

" لقد كنا شركاء في كل شيء منذ البداية"

" كلا، لقد خدعتني واستغللتني"

قال بصوت أثار فيها الرهبة:

"وماذا أيضًا؟"

قالت خائفة:

"آسفة، لقد كنت منفعلة جراء الضغط النفسي المستمر، سأذهب إليها غدًا"

أغلق الهاتف واستلقى على الفراش يفكر في مضمون المكالمة.

على الجانب الآخر كان الندم ينهش قلبها بعد حديثها الحاد مع "جلال". كانت تشعر بالخوف منه لسبب لا تعرفه تحديدا. رقدت في سريرها، سرحت بأفكارها بعيدا، عند اللحظة الأولى التي بدأ فيها كل شيء، حينما أخبرت" فهمي" بوفاة زوج "شاهندا"، كانت تعلم بحبه السابق لها، لكنها لم تكن تتخيل أن يترك كل شيء خلفه ويطارد حبه السابق، شعرت بالاحتقار لذاتها في تلك اللحظة فلم تمنعها صداقتها العتيدة ب"سميرة" من محاولة إخباره، أغمضت عينيها محاولة الفرار من جلد الذات، ولدهشتها استسلمت للنوم بسرعة، في منامها رأت وجوه من رحلوا؛ "فهمي"، "شاهندا" يرمقانها بنظرة كارهة، ثم ظهر من خلفهم "عمر" عاصبا رأسه ويحدق فيها بغضب

راحت تصرخ في وجوههم فزعة:

"أنا لم أفعل بكم هذا،" جلال" هو المجرم، أنا برية، أنا بريئة"

هبّت من نومها وقلبها ينبض بعنف، ودموع الندم تتساقط من عينيها، فهمست لنفسها:

"أنا أستحق هذا العذاب، أستحقه بالفعل"

*****

أخبرتها الممرضة أن "عمر" سيواجه صعوبات في تذكر تفاصيل بسيطة، كغرفته أو مكان الحمام، سيحتاج دائمًا إلى إرشاده دون أن تُظهِر له تململًا، لأن الأشخاص الذين يخضعون لاستئصال "الحُصين" غالبًا ما يرتفع لديهم معدل ذكائهم العاطفي. رغم ثقل الحقائق التي كانت تنهال عليها كالصواعق، حاولت "سميرة" إخفاء ألمها عن ابنها بابتسامات واسعة واهتمام مستمر، دون أن تفقد الأمل تمامًا في أن تعود له ذاكرته يومًا ما. يوميًا كانت تعرض عليه ألبوم الصور متمنية أن تحدث المعجزة، رغم أن قلبها كان يهمس لها بأن الميت لا يعود.

كانت تبتئس عندما يشاهد نفس الفيلم مرارًا وتكرارًا دون القدرة على تذكر المشاهد القادمة، لكنها تحس بسعادة هائلة عندما تلاحظ مهارته في ركوب دراجته وإتقان الألعاب الحركية. عندما سألت الممرضة عن هذا اللغز أوضحت لها أن هناك نوعين من الذاكرة؛ التشخيصية والإجرائية، وأن ابنها وإن فقد ذاكرته التشخيصية، فإن ذاكرته الإجرائية المتعلقة بالمهارات الحركية لا تزال سليمة. لذلك راحت تسعى لتوفير كل ما يحتاجه لتطوير هذه القدرات، وتشعر بسعادة غامرة مع كل تحسن.

وبينما كانت تراقبه وهو يُلوِّن إحدى الرسومات، سمعت صوت طرقات جافة على الباب، انعقد حاجباها من الضيق، كأنها لا تريد أن يقاطعهما أحد. كانت "چيهان" تقف ترمقها بنظرة مشحونة بالاتهام والاحتقار. لم تدعها "سميرة" للدخول، دخلت دون انتظار إذن منها، ثم تجمدت في مكانها عندما رأت "عمر" منشغلًا بالرسم، رمقت "سميرة" بنظرة تساؤل، تعمدت الأخيرة الصمت. اقتربت "چيهان" من "عمر" وجلست على ركبتيها، لمسته بحنان وهي تنطق اسمه، لكن لم يصدر منه سوى نظرة فارغة تشبه نظرة الحيارى، ثم عاد إلى ما كان يفعله.

همست برقة:

"أنا عمتك "چيهان".. ألا تذكرني؟."

لم تحصل على رد، دفعها ذلك للوقوف وهي تهتف:

"ماذا حدث لـ"عمر"؟."

اضطرت "سميرة" لتجيبها:

"إنه بخير، لكن النزيف أثّر على ذاكرته بعض الشيء."

"بعض الشيء! إنه يبدو لي كطفل رضيع لم يكتمل عامه الأول"

أشاحت "سميرة" بوجهها، فتابعت:

"لا يعني أنه ابنك أنه صار ملك يمينك، أنا أيضًا عمته ولي الحق في معرفة الحقيقة"

قالت "سميرة" وهي تلوح بيدها اليمنى:

"لقد كان حادثًا بسيطًا، نسيت أن يرتدي حزام الأمان فاصطدمت رأسه، هذا كل شيء"

لم يبدُ على وجه "چيهان" الاقتناع فقالت:

"إذا لماذا افتعلت الكدمات في الجانب الأيمن من السيارة؟."

" خشيت أن أُتهم بالإهمال، فقد سمحت له بالجلوس في المقعد الأمامي دون ربط حزام الأمان. وعندما توقفت أمامي سيارة بغتة أثناء سيري، ضغطت دواسة الفرامل بحدة، فاصطدمت رأسه بتابلوه السيارة بعنف"

غير أن جيهان لم تُخفِ شكوكها، ظلت تراقبها بعينين ثاقبتين، كأنها تبحث عن ثغرة في حديثها. واصلت استجوابها، تدقق في كل كلمة تنطق بها، كما لو كانت تنتظر لحظة انهيارها والاعتراف بالحقيقة.

وحين لم تحصل على إجابات تشفي غليلها، رفعت ذقنها قليلًا، وعقدت ذراعيها أمام صدرها، ثم قالت بنبرة تنضح بالتهديد:

"لن يمر الأمر بسهولة... سأظل أبحث حتى أعرف الحقيقة كاملة"

قالت "سميرة" بتحدٍ:

" افعلي ما تشائين".

بعد أن غادرت "چيهان"، جلست "سميرة" إلى جوار "عمر" تداعبه، ثم قالت بصوت مليء بالعزم:

"لن أسمح لأحد بالاقتراب منك أو إيذائك"

لم يظهر على "عمر" أنه سمع كلماتها، إذ كان مستغرقًا في تلوين الدوائر البنية على جسد الزرافة الأصفر. أطلقت تنهيدة خفيفة، نظرت إلى ساعة الحائط التي كانت تشير إلى الثالثة عصرًا، همست في أذنه:

"إنه وقت الغداء يا حبيبي، سأذهب لإعده لك"
وبينما كانت تحضّر الطعام، استرجعت في ذهنها تلك الأيام التي كان يعود فيها منهكًا من النادي يهتف معبرًا عن جوعه الشديد، كم تمنت لو أن تلك الأيام تعود، حتى وإن كان ثمن ذلك هو حياتها كلها. بل إنها، في لحظة ألم عميقة، تمنّت أن تفقد ذاكرتها تمامًا، كي لا تظل مثقلة بذكريات تلك الأيام السعيدة، التي أصبحت تؤلمها أكثر من أي شيء آخر.

*****

بدأ العرق يتصبب من جبهة "نجلاء" وهي تقف أمام شقة "سميرة" تنتظر أن تفتح لها. اجتاح جسدها برودة عجيبة، فكرت في التراجع، كادت أن تفعل، لولا أنها سمعت صوت خطوات تقترب من مكانها. فلعنت "جلال" الذي دفعها إلى هذا الموقف الرهيب. انفتح الباب، وتوقف الزمن... تبادلت كل منهما نظرة طويلة، غمر خلالها الخجل وجه "نجلاء"، فيما احمر وجه "سميرة"، وهمّت بصفق الباب في وجهها لكنها لم تفعل، تركته مفتوحًا وعادت إلى الداخل دون أن تأذن لها.
ترددت "نجلاء" قليلا قبل أن تدخل، في الحقيقة لولا أنها تذكرت حديثها الأخير مع "جلال" لعادت أدراجها راكضة.
لم تعرها "سميرة" انتباهًا، وانهمكت في تنظيف الطاولة الخشبية. اقتربت منها "نجلاء" قائلة بصوت خفيض:
"لم أكن أعلم أن العملية ستسبب في...
بترت عبارتها بغتة. تجاهلتها "سميرة" عمدًا، وإن عكس وجهها ألمًا دفينًا. تابعت بمرارة:
"أقسم لكِ أنني لم أكن على علم بأضرار العملية."
توقفت "سميرة" عن مسح الطاولة. واصلت "نجلاء":
"لقد أفهمني "جلال" أن "عمر" سينسى الماضي بحلوه ومره، لكنه لم يخبرني أنه سيعجز عن تكوين ذكريات جديدة للأبد."
بقيت "سميرة" صامتة توليها ظهرها. فالتفت "نجلاء" حولها لتقف قبالتها وأردفت:

"لو كنت أعرف ما ينوي فعله لما...

بترت عبارتها هذه المرة أيضًا، لكن ليس بسبب الخجل، بل لأن صفعة عنيفة نزلت على خدها فأطلقت على إثرها شهقة عنيفة. في أعماقها كانت تعلم أنها تستحق الأسوأ. قالت وهي تمسك خدها المتألم:

"أعلم أنني أستحق أكثر من مجرد صفعة، لكن الصفعات لن تعيد ما ضاع."

حدجتها "سميرة" بنظرة حادة وقالت:

"كنت أظن ذلك أيضًا، لكنني قلت في نفسي إذا كان ما ذهب لن يعود، فلماذا أترك من تسبب في شقائي يحيا سعيدًا؟."

صمتت "نجلاء" كأنها تقرّ بكلامها، ثم قالت:

"الدكتور "جلال" يبلغك سلامه."

اربد وجه "سميرة" عند سماعها اسمه، سألتها:

"ولماذا لم يأتِ بنفسه ليشاهد ضحيته العاجزة؟."

"سافر إلى "لندن" لحضور مؤتمر علمي هناك، وسيعود بعد انتهائه مباشرة."

أبدت "سميرة" عدم اكتراثها وهي تعود لتنظيف الطاولة. همست "نجلاء" بحرج أكبر:

"أريد الاطمئنان على "عمر."

ردت "سميرة" بنبرة ساخرة مريرة:

"اطمئني... إنه نائم الآن... وسيظل نائمًا للأبد."

"حسنًا، سأعود لزيارته في وقت لاحق."

غادرت "نجلاء" المكان مدفوعة بجرعة ضخمة من الخجل والندم.

اتبعتها "سميرة" بنظرات حادة، ثم تمتمت بحسرة:

"تريدين الاطمئنان على أطلال خربة، لا تذكر حتى متى كانت حدائق عامرة."!

ثم عادت لتنظيف الطاولة وأرجلها الخشبية من جديد.

*****

جلس الرائد "يوسف" خلف مكتبه يراجع التقرير الطبي للمرة الثالثة. كل شيء بدا في ظاهره منطقيًا، لكنه يعلم أن الحياة نادرًا ما تسير وفقًا للمنطق وحده، هناك دائمًا أمور غير متوقعة تتدخل، وغالبًا ما تكون المظاهر خادعة. تعلّم خلال سنوات عمله أن الجاني في النهاية قد يكون آخر شخص يتوقعه الجميع. تلك هي الحقيقة التي اعتاد التعامل معها، ولهذا قرر أن يضع المنطق جانبًا، وينطلق في رحلة عبر اللامنطق، حيث يجد الراحة في اكتشاف ما وراء الظاهر.

استند إلى كرسيه وبدأ التفكير: "إذا افترضنا أن تلك الحوادث لم تقع مصادفة، فمن هو المستفيد الوحيد من هذه السلسلة المتتابعة من الأحداث؟"

لم يخطر في باله سوى اسم واحد.. "سميرة يعقوب". رغم منطقية الاسم، إلا أنه لم يتقبله بسهولة، يشعر بأن هناك قطعة ناقصة في هذه الأحجية، تجعله غير قادر على استيعاب الصورة كاملة. قرأ بضع سطور من التقرير مرة أخرى، أغلقه وتمتم:

"صديقتها المقربة "نجلاء"، طبيبها النفسي "جلال"، من منهما يمكن أن يكون تلك الأحجية الناقصة؟"

كانت "چيهان" قد أخبرته أنها تشك في ضلوع "نجلاء" في حادثة انتحار "عبدالسلام"، لكنه بعد بحث وتدقيق لم يصل إلى شيء، ظل للحظات يحاول ربط الخيوط مع بعضها، ثم نهض وهو يغمغم:

"لابد من زيارة"

قاد سيارته إلى المستشفى التي أُجريت فيها العملية لـ"عمر"، عازمًا على كشف الحقيقة. دخل المكتب قائلا:

" الرائد يوسف فؤاد، أعتذر عن القدوم دون موعد، لكن للضرورة أحكام."

صافحه المدير قائلا:

"أهلًا بك في أي وقت، شرف لنا زيارتك."

جلس الرائد، ثم بدأ الحديث:

"أخبرتني الأستاذة "چيهان" عن شكوكها حول العملية الجراحية التي أُجريت لابن شقيقها، وأردت التأكد بنفسي من صحة التقرير الطبي، وما إذا كانت العملية ضرورية؟"

رد المدير:

"لقد تحدثت معي سابقًا عن مخاوفها، وأكدت لها أن كل شيء كان وفق الإجراءات الصحيحة."

ابتسم "يوسف" قائلا:

"أعترف أن "چيهان" قد تبالغ أحيانًا، لكن عندما تتبعت سلسلة الأحداث، بداية من موت شقيقها، ثم انتحار السائق الذي كان يقود السيارة رغم عدم وجود دافع واضح للانتحار، وموت "شاهندا" في حادث سيارة غامض أمام منزلها، وأخيرًا، حادث ابن شقيقها الذي فقد على إثره ذاكرته، فقد بدا لي أن الأمور متشابكة أكثر مما تبدو للوهلة الأولى."

تردد المدير لوهلة، قبل أن يقول:

"ما تقوله يشبه حبكات الروايات البوليسية التي كنت أقرأها في شبابي، لكن مع ذلك، لا أرى دليلًا ملموسًا."

"وماذا عن التقرير الذي قدمه الدكتور" صلاح".. هل ترى أنه سليم من الناحية الطبية؟"

"من الناحية الطبية، التقرير سليم تمامًا، والدكتور "صلاح" له سمعة ممتازة، ولا يوجد ما يشير إلى أي خلل في أدائه."

"وهل سيستعيد "عمر" ذاكرته؟"

"نعم، بناءً على ما ورد في التقرير، من المفترض أن يعود إلى حالته الطبيعية خلال شهرين."

نهض "يوسف" وهو يقول:

"أشكرك على وقتك وتعاونك، لكن اعذرني، فالشكوك إذا استقرت في ذهن الضابط أو الصحفي، فإنه لا يهدأ حتى يتم الكشف عن الحقيقة ناصعة."

*****

رغم الحرارة التي تشعر المرء بأنه على وشك الانصهار، والشمس التي ترمق الأرض من عليائها بقسوة، ولا تنفك تنشر أشعتها الحارقة على الجميع، كأنما تثبت قدرتها على محو الجنس البشري إذا ما أطلقت فائضًا من أشعتها. رغم هذا كله، أصرت "چيهان" على الذهاب من جديد إلى منزل "عبد السلام بيومي" عازمة على الوصول إلى الحقيقة بأي ثمن.

انشغلت "چيهان" أثناء قيادتها بتقييم الأحداث من جديد، فهي وإن فشلت في كشف السبب الحقيقي وراء وفاة شقيقها في المرة الأولى، لن تسمح لنفسها بالإخفاق مجددًا، لا تتصور أن تكون تلك الحوادث مصادفة.

لاح في مخيلتها وجه "سميرة" بملامح باردة قاسية. غريزتها تخبرها أنها المسؤولة عما حدث لابنها. داهمها سؤال آخر: "ماذا لو كانت وراء وفاة شقيقها أيضًا؟". الفكرة لم تكن مستبعدة بالنسبة لها؛ فـ"سميرة" هي المستفيدة الوحيدة من موته، ومن الممكن أن تكون تخلصت منه أو شاركت في تلك الجريمة عندما شعرت بالتهديد.

وكذلك تصادف لحظة وفاة "شاهندا" وجود "سميرة" في نفس المكان والتوقيت بحجة أنها كانت ذاهبة لتهديدها. فالجاني عادة ما يكون قريبًا من مسرح الجريمة بعد تنفيذ جريمته.

تمتمت بعقل مدهوش: "هل من الممكن أن تكون "سميرة" على هذا القدر من العقلية الإجرامية؟."

لكن ما لبثت أن راودها سيناريو آخر: "ماذا لو كان "جلال" هو العقل المدبر لكل ما حدث؟ لكن لماذا يفعل ذلك؟ ما علاقته بشقيقها؟ وما دور "سميرة" في تلك الجرائم؟"

ازدحمت الأسئلة في ذهنها فازداد إحساسها بالعجز أمام هذا اللغز المعقد. لم تعد قادرة على ممارسة حياتها بشكل طبيعي منذ وفاة شقيقها، ثم مأساة "عمر"، لذا أخذت إجازة مفتوحة لتتمكن من التركيز على التحقيق، ولكنها حتى الآن لم تصل إلى شيء.

كان طرف الخيط الوحيد هو السائق الذي وجدوه مشنوقًا في شقة مستأجرة، وانقطع بموته. لم يبق أمامها سوى "سميرة" و"جلال"، ولم تكن "نجلاء" بمنأى عن شكوكها وإن استبعد الرائد "يوسف" ضلوعها، هي واثقة أن

أحدهم يحمل المفتاح لهذا اللغز المعقد، خيط يربط كل الأحداث بطريقة محكمة، كخيوط العنكبوت. لكن السؤال الأهم ظل يطرق بقوة في سطح القشرة الدماغية: كيف تصل إلى الفاعل الحقيقي؟

بعد ست ساعات من القيادة المتواصلة وصلت منهكة. ركنت سيارتها في شارع واسع، ثم اخترقت الشوارع الضيقة سيرًا على الأقدام حتى وصلت إلى منزله. طرقت الباب، وانتظرت حتى سمعت خطوات تقترب من مكانها. فركت يديها في توتر استعدادًا للمواجهة المرتقبة. لم تكن تعرف القادم، لكنها تمنت أن تكون زوجته، وأن تكون أكثر تعاونًا من المرة السابقة.
جاء صوت امرأة بلكنة صعيدية من خلف الباب:
"من بالباب؟"
عرفت "چيهان" أنها زوجة السائق، فقالت بلهفة:
"أنا "چيهان" الصحفية، جئت لأتحدث معك"
قالت المرأة بجفاء:
"لا أريد أن أتحدث معك، ارجعي لبلدك، الله لا يسيئك".
قالت "چيهان" بإلحاح:
"أرجوكِ امنحيني فرصة لنتحدث، أنا بحاجة للحديث معك".
صاحت المرأة بغضب:
"لقد انتحر "عبد السلام" عندكم في القاهرة، ماذا تريدين مني الآن؟"
"أريد أن أعرف لماذا انتحر؟ ولماذا قلتِ إنه سافر إلى ليبيا وهو لم يخرج من مصر؟ لا تضيعي حق زوجك هدرًا بسبب عنادك أو خوفك".
عندها فتحت المرأة الباب والدموع تنهمر، قالت بنبرة مكسورة:
"لأن هذا ما قاله لي بالفعل، قال إنه سيسافر إلى "ليبيا" للعمل هناك كسائق بمرتب كبير"
مسحت دموعها، تفحصت الشارع بحذر وقالت:
"تفضلي، لا يصلح هذا الحديث في الشارع"
جلستا على أريكة خشبية تغطيها قطعة من القماش الأبيض النظيف، انتظرت "چيهان" أن تبدأ المرأة الحديث، لكنها ظلت صامتة.

رأت "چيهان" أن تمنحها فرصة لتجاوز حزنها، ودارت ببصرها في أرجاء البيت الواسع. كان الأثاث بسيطًا يحمل الطابع الريفي، سقف الغرفة تدلّت منه لمبة إضاءة تشع ضوءًا أصفر فاقعًا، شباك خشبي أخضر باهت مكسور في إحدى زواياه، بجواره كانت هناك مشنّة معلقة بمسمار على الجدار تساقطت عنه طبقة من الدهان، أرض البيت الجيرية كانت مغطاة بسجاد قديم مهترئ جراء كثرة الأقدام التي وطأته.

عندما رفعت بصرها إلى السقف، لفت انتباهها خيوط العنكبوت المتناثرة في زوايا السقف، مما أضفى على المكان هالة من الكآبة. عادت ببصرها إلى مضيفتها وسألتها بلطف:

"ما اسمكِ؟"

"زينب ."

"لماذا انتحر عبد السلام؟ هل كان يعاني من مشكلة نفسية؟"

أومأت "زينب" برأسها، ثم أخذت نفسًا عميقًا وقالت:

"نعم، منذ أن فقدنا ابننا "إسماعيل" لم يعد "عبد السلام" كما كان، كل شيء تغيّر، وبدأت تتملكه نوبات من الغضب".

دارت في ذهن "چيهان" تساؤلات كثيرة، انتقت إحداها:

"هل كان يذهب إلى طبيب نفسي؟"

"نعم، كان يذهب إلى طبيب في القاهرة نصحه به أهل القرية".

ارتعد جسد "چيهان" وهي تسألها:

"هل تعرفين اسمه؟"

"اسمه "جلال"، سمعت "عبد السلام" يذكر اسمه أمامي مرة".

كان وقع اسم "جلال" على أذنيها كطوربيد أصاب قلبها بشروخ مميتة، ظلت صامتة للحظة، ثم سألت:

"هل عالجه ذلك الطبيب من نوبته؟"

ردت "زينب" بحزن:

"نعم، لكنه في الليلة التي سبقت يوم حادث شقيقك كان يبدو غاضبًا للغاية"

مع كلماتها، بدأت "چيهان" تستشعر الحقيقة المرعبة؛ "عبد السلام" تم استغلاله من قبل "جلال" الذي خطط لكل شيء من البداية. لكن، ما الذي دفع "جلال" لارتكاب هذه الجريمة؟ ولماذا كان لشقيقها دور في هذه المؤامرة؟ كل الخيوط تقود إلى "سميرة" لعلاقتها الغامضة بالطبيب. الصورة بدأت تتضح الآن في ذهنها؛ "جلال" و"سميرة" كانا شريكين في جريمة قتل "فهمي" واستلاب ذاكرة "عمر" في محاولة لإخفاء جرائمهم بأي ثمن.

"يا لهؤلاء الأبالسة"!

صرخت "چيهان" بتلك العبارة الغاضبة مع وصولها لذلك الاستنتاج المفزع، قالت "زينب" بصوت مرتعش:

"لا، لقد كان زوجي بريئًا لم يقصد إيذاء أحد. صدم شقيقك دون قصد"

حدقت "چيهان" في وجهها بغضب مكتوم، كادت تصرخ في وجهها أن زوجها مجرم أثيم مثلهم، إلا أنها كتمت مشاعرها بصعوبة وهي تسألها:

"هل لديكِ تلك الأدوية التي كان يتناولها زوجك؟"

أومأت "زينب" برأسها وذهبت لتحضر شرائط الأدوية التي يكتظ بها أحد أدراج الخزينة. في هذه الأثناء، كانت "چيهان" تغلي من الداخل. إذا ثبت تورط الطبيب فستكون هذه فرصتها للانتقام. لكن لا يكفي أن يكون "عبد السلام" أحد مرضاه، فقد يكون الأمر مجرد مصادفة.

عادت "زينب" بالأدوية. تناولت "چيهان" علب الدواء وصورتها بكاميرا الهاتف ثم أعادتها شاكرة.

نهضت بعدما حصلت على ما تريد، لكنها كانت تشعر بمرارة الحقيقة التي بدأت تظهر في الأفق. "عبد السلام" لم يكن مجرد ضحية حادث أو اضطراب نفسي، بل كان أداة في يد قوة أكبر. الدكتور "جلال" استغل ضعفه ودفعه إلى ارتكاب جريمة شقيقها، ثم قتله بعد أن استنفد غايته منه. خرجت "چيهان" من المنزل وهي تشعر أن هناك شيئًا أكبر وأخطر مما كانت تتخيله. لم يكن الأمر مجرد حادث عابر أو سلسلة من المصادفات. كان هناك مخطط معقد ينسجه عقل شرير. والآن، باتت تعرف من يقف خلف كل ذلك

عمدت "چيهان" رغم إرهاقها إلى منزل "سميرة" لمواجهتها بما تحمله من حقائق قادرة على قلب الموازين رأسا على عقب. لم تجدها هناك، فذهبت مباشرة إلى النادي، الذي تتواجد فيه عادة إذا لم توجد في بيتها. كانت "سميرة" تجلس مع "عمر" حول طاولة تطعمه بيدها حين وقفت أمامها "چيهان" بوجه عابس وعينين تحدجانها بتشفٍ واضح.

هالها وجهها، لكنها تجاهلتها وانهمكت في إطعام "عمر".

"من الأفضل أن نتناقش في منزلك، فالحديث الذي على وشك الخوض فيه لا يليق إلا بمكان مغلق كقبر"

تطلعت "سميرة" إلى وجهها ثم قالت:

"لا يوجد ما أخفيه عن الناس، إذا أردت النقاش فتفضلي".

جلست "چيهان" أمامها وقالت:

"لقد عدت لتوي من عند زوجة عبد السلام، ذلك السائق الذي قيل إنه مات منتحرًا. هل تدرين ماذا قالت؟"

نطق وجه "سميرة" بالتساؤل، فقصت عليها "چيهان" ما دار بينها وبين زوجة "عبد السلام" وعلاقة الأخير بـ"جلال" السرية.

استنكرت "سميرة" ما تسمعه، فقالت محاولة ألا يعلو صوتها:

" من أوحى إليك بتلك الأوهام؟ "جلال" لم يقتل "فهمي"، وإنما كان موته قضاءً وقدرًا".

" من الطبيعي أن تدافعي عنه، فأنتِ شريكته في جرائمه".

" جرائمه"!

نطقت "سميرة" الكلمة في مزيج من الغضب والاتياع.

" نعم،" جلال" قتل "فهمي" لأنك طلبتِ منه ذلك حتى لا يحرمك من "عمر" بعد أن يطلقك، ثم أرسلتيه ليقتل "شاهندا" لتنتقمي منها، وعندما اكتشف "عمر" حقيقتكم لم تترددي في تدمير ذاكرته أيضًا حتى لا يشي بكما"

طأطأت "سميرة" رأسها عندما جاء ذكر "عمر"، فاستغلت "چيهان" ضعفها وأردفت بشماتة:

"هل يذبحك الندم على ما فعلتِ بابنك؟"

قالت "سميرة" باستخفاف مخلوط بالغيظ:

"لماذا لا تذهبين وتخبرين الشرطة بما توصلتِ إليه إذن".

ردت "چيهان" بقسوة:

"هذا ما سأفعله بالتأكيد، ثم سآخذ "عمر" ليعيش معي بعيدًا عن امرأة قاتلة مثلك"

حينئذ فقدت "سميرة" أعصابها، لم تأبه بمن حولها، قامت ودفعتها أمامها وهي تصرخ:

" لن يأخذ أحد "عمر" مني، اذهبي من هنا، هيا"

جلست على المقعد وغرقت في نوبة بكاء مرير. وبغتة تمتمت:

"لو حاول أحد أخذ "عمر" مني سأقتله بيدي"

ثم جذبت ابنها الذي ينظر إليها مستغربًا قائلة:

"تعال معي يا "عمر" لنختبئ في مكان لا يستطيع العثور علينا فيه أحد"

*****

دون إضاعة المزيد من الوقت لفضح الجناة والثأر لشقيقها. ذهبت "چيهان" إلى منزل "نجلاء" حيث تشتبه بشدة في كونها شريكة في تلك الجرائم، أو على الأقل لديها معلومات تساعدها في إثبات التهم على الجناة الحقيقيين.

عندما وقعت عينا "نجلاء" عليها أحست بقشعريرة باردة كالثلج تسري في جسدها. بنبرة صريحة قالت "چيهان:"

"جئت إليكِ وأنا أعرف أنك ستتعاونين معي للوصول إلى القاتل".

ابتلعت "نجلاء" ريقها وكأنما تبتلع شوكًا مغموسًا بالعلقم. تساءلت بنبرة متخاذلة:

"عمّا تتحدثين؟"

لم تعطها فرصة للمراوغة فقالت بحزم:

"أنا أبحث عن قاتل شقيقي للقصاص منه، لا تخذليني بعد أن جئت إليكِ طالبة المساعدة"

تساقطت من جبهتها حبات من العرق البارد، ثم سقطت دمعة حملت كل مرارتها. لكنها، رغم كل العواصف العاطفية العاتية التي تطيح بمشاعرها، التزمت الصمت، شعرت "چيهان" أن داخل "نجلاء" معركة مستعرة لم تحسم بعد، فرأت في صمتها فرصة لتوجيه ضربة قاضية لصالح قضيتها. قالت بنبرة مفعمة بالرجاء:

"لا تتركي القاتل حرًا طليقًا يعبث بجرائمه كيفما شاء، ثم تظني أنك ستفلتين من انتقام الخالق إذا قمتِ بحمايته من العقاب، ستكونان في موقف واحد أمام الله يوم القيامة، ما دمتِ تمنعين العدالة من أن تأخذ مجراها".

طال صمت "نجلاء" بينما كان وجهها يظهر عليه تقلصات عنيفة، كأنه سطح بركان يغلي. لم تقاطعها "چيهان" واثقة من أنها ستتخذ جانب الصواب في النهاية. انفرجت شفتا "نجلاء" لتقول شيئًا، ثم زمّتهما مجددًا. ترقبت "چيهان" الصراع بصبر، وأخيرًا، رفعت "نجلاء" رأسها وقالت بحزم:

"سأخبرك من القاتل".

تنهدت "چيهان" تنهيدة عميقة، انزاحت معها مشاعر الانتقام، وحلّت مكانها لهفة هائلة.

"الدكتور "جلال" هو من قتل شقيقك و"شاهندا" والسائق"

أصابتها تلك الكلمات برعدة عنيفة، سألتها وقد انفلق قلبها من الحزن:

"تقصدين أن الحوادث الثلاث متعمدة؟"

"نعم... لقد قام بقتلهم بدم بارد".

"لكنك لم تذكري "سميرة"... أليس لها يد في تلك الجرائم؟"

دُهشت "نجلاء" وقالت:

"سميرة لا يمكنها أن تقدم على ارتكاب جريمة، كل ذنبها أنها ذهبت إلى "جلال" واشتكت له حالتها النفسية السيئة بسبب تهديد زوجها بطلاقها وحرمانها من ابنها"

قالت "چيهان" بنبرة قاسية:

"لو لم تذهب إلى ذلك الشيطان وتشكو إليه حالها، لما حدث أيٌّ من تلك الجرائم".

هتفت نجلاء:

"أنتِ تتهمين "سميرة" بجرائم لم ترتكبها"!

هتفت "چيهان" بدورها:

"وما حدث لـ"عمر"... ألم تكن هي من تسببت فيه؟"

قالت "نجلاء" بنبرة تقطر مرارة:

"لقد خدعنا "جلال" جميعًا حين أخبرنا أن تلك العملية ستفقده ذكرياته عن الماضي فقط، وأخفى عنا عجزه عن تكوين ذاكرة جديدة".

صاحت "چيهان" بثورة:

"ماذا تقولين! العملية تمنعه من تكوين ذاكرة جديدة؟ ولماذا أقدم على ذلك؟"

شلّ الخوف لسانها أمام ثورتها، قالت بنبرة مرتجفة:

"لأن "عمر" رأى والدته مع الدكتور "جلال" في وضع غير لائق، فأبغضها منذ تلك اللحظة، ورفض الحديث معها رفضًا قاطعًا" انهارت معنويات "چيهان" وأظلمت الدنيا أمامها. لم يعد لديها الرغبة في فعل شيء. فبعد مقتل شقيقها، وضياع مستقبل ابنه بطريقة تبدو أبشع من القتل نفسه، لم تعد لديها رغبة في البقاء، وتمنت في هذه اللحظة أن تلحق بهم.

*****

لملمت "سميرة" بعض حاجياتها لسفرها، ثم أخذت بيد "عمر" وهبطت السلم مسرعة. حشرت الحقيبة الثقيلة في صندوق السيارة الخلفي، وانطلقت إلى الفيوم، نحو منزل الأسرة الكبير، الذي بات مهجورًا لسنوات حتى أصبح يسكنه الأشباح المارقة. لم تكن ترغب في العودة إليه بعد وفاة والديها، لكن الضرورة فرضت عليها ذلك.

كان المنزل بالنسبة لها الملاذ الأخير للنجاة من مصير مشؤوم؛ انتزاع ابنها، ثم إعدامها بتهم لم ترتكبها. لكنها لم تكن لتسمح بذلك، ستهرب إلى أقصى مكان، لكنها لن ترضخ للواقع. كل ما يهمها الآن هو الاحتفاظ بولدها في

كنفها، وستدافع عنه كذئبة انتابها الخوف على صغيرها واستشاط بها الغضب.

كان الجو شديد الحرارة لدرجة تجعل المرء يتمنى أن يختبئ داخل ثلاجة. ورغم عمل تكييف السيارة، لكنه بدا كموظف كسول بمصلحة حكومية في قرية نائية. مسحت حبات العرق المتساقطة عن جبينها. التفتت إلى "عمر" فوجدته غارقًا في عرقه، هلعت لرؤيته، ناولته منديلًا وقالت:

"امسح العرق عن وجهك ورقبتك".

بدا "عمر" كأنه لم يفهم ما قالته، ثم بدأ يمسح عرقه بطريقة آلية، ابتسمت لاستيعابه، واسترجعت ذكرياتها حين كان طبيعيًا يتميز بذكاء حاد يبز به أقرانه. تساقطت الدموع من عينيها حنينًا لتلك الأيام، مسحتها وهي تعض على شفتيها وتمتمت:

"لقد عاهدت نفسي ألا أبكي على شيء بعد اليوم"

كان الطريق طويلًا، فشغلت المذياع وراحت تغير المحطات حتى توقفت عند إذاعة القرآن الكريم. كان صوت "المنشاوي" يقرأ *(ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما).*

أسعدها سماع تلك الآية في هذه اللحظة بالذات، تطلعت إلى ابنها في المرآة الداخلية، وتمتمت ضارعة": أنا أثق أن الله سيغفر لي ما ارتكبته في حقك، فهل تغفر لي أنت أيضًا يا بني؟"

منحها "عمر" ابتسامة عذبة، كأنما سمعها. تطلعت إلى الطريق وسط سحابة كثيفة من الدموع تغطي عينيها. هاجمتها مخاوف كثيرة، أن تلحق بها الشرطة وتقبض عليها، أو تنقلب السيارة ويلقيا حتفهما، فتشبثت بمقود السيارة بكلتا يديها، لكنها لم تُبطئ السرعة خشية أن تلحق بها سيارة شرطة مترصدة. وصلت مركز "سنورس" قاصدة قرية "كفر فزارة" حتى توقفت أمام المنزل العتيق.

تأملت الباب الخشبي الضخم الذي انتشرت فيه الشروخ وجثمت عليه الأتربة. هزتها رعدة وهي تتأمل الباب بعينين دامعتين، وتخيلت فظاعة ما يمكن أن

يكون عليه البيت من الداخل، لكنها كانت تدرك أن فظاعة المنزل لا تقارن بفظاعة مصيرها القابع في انتظارها.
دفعت الباب بكلتا يديها، فأصدر صريرًا حادًا أصابها برعدة قوية. أنزلت "عمر" من السيارة، وضعت حقيبتها على الأرض، ثم قادت سيارتها بعيدًا عن المنزل حتى لا يلحظ وجودها أحد. رجعت وأمسكت بيد ابنها ودخلت به المنزل بخطوات مترددة. أغلقت الباب خلفها قبل أن يلحظها أحد. أضاءت كشافًا صغيرًا، وعلى ضوئه الخافت، تكشفت ملامح المنزل الداخلية، وراحت الذكريات تتصارع داخل رأسها، فاستسلمت لها، وعلى الضوء المنعكس على وجهها بدا حنين جارف إلى أيام الصبا، وتضاعف الاشتياق إلى أسرتها.
تذكرت المائدة المنخفضة التي كانت توضع على الأرض وعليها أصناف من الطعام الريفي الشهي.
تذكرت "يوسف" شقيقها الأكبر الذي هاجر إلى أستراليا، والذي ما يزال يحافظ على عادته ويرسل لها خطابًا سنويًا. لم تستطع أن تشكو له آلامها النفسية ومشاكلها الزوجية في المرة الأخيرة. وشقيقها الأصغر "حسين" الذي استقر في ألمانيا وتزوج من فتاة ألمانية. انتزعت نفسها من أحضان ذكرياتها بصعوبة. التفتت إلى "عمر" الذي يحاول اختراق المكان ببصره وغمغمت:
"كنت أعلم أن لمبات الإضاءة لا تعمل".
مشت ببطء وسط ركام الأتربة الناعمة، فانطلقت سُحُب من الغبار الخفيف حولها. جذبت سلمًا خشبيًا ممددًا على الأرض وأسندته على جدار البيت، مدّت يدها ونفضت الغبار عنه، ثم سحبته حتى منتصف الغرفة وصعدت عليه، أدارت اللمبة في الدواية، فاشتعلت الردهة بنور أصفر فاقع. بدأت ملامح البيت في الظهور، ونشطت ذكرياتها للصعود مجددًا بقوة أكبر. قاومت ما تشعر به من حنين جارف بالاشتغال بتنظيف البيت، فكرت في مكان آمن تضع فيه "عمر" حتى تنتهي من مهمة التنظيف، حتى لا تصاب رئته بأطنان من الغبار الجاف. نظرت إلى ابنها الذي كان يقف كإنسان آلي ينتظر الضغط على زر التشغيل، وتذكرت جارتهم.

طرقت الباب عدة طرقات وقلبها يرتبك. انسل من خلف الباب وجه امرأة مليحة، ما إن رأتها حتى اتسعت عيناها وصاحت فرحة:

"مدام سميرة، يا مرحبًا"!

"كيف حالكِ يا مديحة؟ أوحشتِني كثيرًا، لكني لا أستطيع الدخول الآن، فالبيت يحتاج للتنظيف العاجل من كتل الأتربة التي تغطي فيه كل شيء، سأترك "عمر" عندكِ حتى أنتهي من مهمة التنظيف".

رغم دهشتها من قدومها المفاجئ، إلا أنها جذبت "عمر" نحوها برفق قائلة:

" ابنكِ في عيني يا مدام "سميرة"، لكن انتظري حتى آتي معكِ لأساعدكِ"

"كلا، ينبغي أن يظل معك فهو في حاجة لمن يبقى بجانبه".

منحتها ابتسامة ممتنة، أعطت "عمر" بعض الشطائر قائلة:

"لا بد أن تُنهي تلك الشطائر كلها".

نظرت إليها "مديحة" نظرة لائمة، لكن "سميرة" استدركت في حرج:

"لا أقصد الإساءة إليكِ، لكن "عمر" يحب شطائر الجبنة واللانشون التي أصنعها خصيصا له"

هزّت "مديحة" رأسها متفهمة. تركتها "سميرة" وعادت أدراجها. علّقت المصابيح الكهربائية في غرف الطابق الأرضي حتى أنار بكامله. صعدت بعينيها إلى الطابق الثاني، حيث كانت غرفتها وألعابها التي لم تشأ أن تصطحبها معها حين رحلت إلى القاهرة. كانت قد قررت أن تتركها حتى تجذبها مع ذكرياتها للعودة إلى المنزل كل عام، لكن موت والديها قطع صلتها بالمنزل نهائيًا. وفي كل مرة تفكر في زيارته تجفل من فكرة الذهاب إليه دون وجودهما.

هربت من ذكرياتها التي كانت تضغط عليها، وبدأت تنظف الأرضية من الأتربة التي غطتها لسنوات، وتزيل خيوط العنكبوت المتشابكة. فكرت في تلك اللحظة: "هل ستصبح الأخطار التي تلاحقها كخيوط العنكبوت تزداد قوة كلما تركتها دون إزالة؟"

تمتمت برجاء:

"ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به، واعفُ عنّا، واغفر لنا، وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين".

حبست دمعة كانت تهمّ بالفرار لولا جفنها اليقظ، ثم عادت إلى عملها في إزالة خيوط العنكبوت من زوايا السقف والأركان.

*****

اندفعت "چيهان" إلى مكتب الرائد "يوسف" كأن الغضب محركٌ نفاث يدفعها للأمام بلا هوادة. اقتحمت مكتبه دون استئذان، هاتفة:

"لقد اكتشفت القاتل"!

تأمل ملامحها في دهشة، تساءل في تلك اللحظة كيف يمكن أن تجمع بين الرقة ومشاعر مترعة بالغضب، لكن فضوله لم يمنعه من النهوض من مقعده وسؤالها:

"من هو؟"

"الدكتور "جلال" قتلهم بعد أن دفعته "سميرة" إلى ذلك".

"هل لديك دليل؟"

"نعم، "نجلاء" صديقة "سميرة" اعترفت بكل شيء منذ قليل".

تأملها بنظرة فاحصة، ثم أمر اثنين من معاونيه باستدعاء "نجلاء" إلى المكتب، كانت "چيهان" تتجول بعصبية في أرجاء المكتب، حاول تهدئتها لكنها لم تستجب، بعد نصف ساعة دخلت "نجلاء" إلى المكتب ترتعش من الخوف. حدّجها "يوسف" بنظرة صارمة ثم سألها:

"هل تتهمين "سميرة" والدكتور "جلال" بقتل فهمي وشاهندا والسائق؟"

التفتت "نجلاء" إلى "چيهان" تحدجها بنظرة غاضبة، وعيناها تتقدان بمزيج من الاتهام والألم. أخذت نفسًا عميقًا، ثم بدأت تحكي كل شيء منذ البداية.

أخبرته كيف ربطت الخيوط ببعضها، كيف لاحظت أنه كان دائمًا قريبًا من الضحايا قبل موتهم، وكيف كان يعرف نقطة ضعف كل منهم جيدًا. لم تكن تملك دليلًا يورطه، فاختارت الصمت... حتى جاءت إليها "چيهان" وترجتها أن تبوح بما توصلت إليه، أن تتخلى عن ترددها وتكشف الحقيقة"

تنفس "يوسف" الصعداء، قال:

"الآن فهمت كل شيء، لكن مازالنا نحتاج إلى دليل قوي على ارتكابه الجرائم الثلاث"

صرخت "چيهان:"

"لا تصدقها يا سيادة الرائد، إنها تدافع عن "سميرة" لأنها صديقتها"!

ردت "نجلاء" باكية:

"لا... أنا من دمرت حياتها وأريد أن أكفر عن ذنوبي".

سألها بنبرة جادة للغاية:

"هل تريدين حقًا التكفير عن ذنوبك وآثامك؟"

"بالتأكيد".

"إذا تعاونتِ معنا ستصبحين شاهدة ملك"

"لا يهمني ما سيحدث لي، الأهم هو أن يُعاقب "جلال" على جرائمه".

" وأين هو الآن؟"

أخبرته عن سفره إلى لندن ليهرب من مواجهة غضب سميرة. تجاوز "يوسف" غضبه قائلًا:

"لا أعتقد أنه سيعود قريبًا"

قالت "نجلاء:"

"لذا ينبغي أن أذهب إليه وأحثه على الاعتراف"

قال محذرًا:

" إياكِ أن تُقدمي على تلك الخطوة، فلو شكّ بكِ سيقتلكِ دون ذرة من شفقة".

لم تنطق "نجلاء" بكلمة، لكن وجهها كان يعكس ندمًا عميقًا، ورغبة صادقة في تصحيح ما أفسدته بغيرتها العقيمة.

*****

بمجرد أن دخلت "سميرة" المنزل شرعت في تنظيفه بهمة ونشاط. كان التحدي الأول أمامها هو تلك الأتربة التي تراكمت لدرجة أنها كادت تخفي

معالم المكان. وبعد أن انتهت من تنظيف الطابق الأرضي، نفضت ملابسها وغسلت وجهها، ثم ذهبت لإحضار "عمر" من عند جارتها، وطلبت منها ألا تخبر أحدًا بوجودها. تركت "عمر" يلعب بالألعاب التي جلبتها معه في الطابق السفلي، وصعدت إلى الطابق العلوي عبر السلم الأسمنتي الذي أصابته الرطوبة بالتآكل فصار يهتز مع كل خطوة تخطوها. غمغمت وهي تصعد:

"أرجوك لا تتسبب في سقوطي، فليس مع ابني أحد غيري"

شرعت في تنظيف الطابق العلوي وهي تغطي أنفها بكمامة سميكة. استغرقت في العمل ساعتين متواصلتين، رغم السعال الذي أصابها نتيجة اختراق ذرات التراب للكمامة. بعد أن انتهت من إزالة الأتربة من الأثاث والأرضيات، ومسحت خيوط العنكبوت التي تدلت من السقف، نزعت الكمامة، ثم نزلت لتحضر "عمر" من الأسفل وشرعت تصعد به الدرج. كان قلبها يخفق من الخوف مع كل خطوة، خشية أن تنهار إحدى الدرجات تحت قدميهما، لكنها وصلت بسلام إلى الطابق العلوي، وجلست على كرسي خشبي لتلتقط أنفاسها. راقبت "عمر" الذي يشاهد فيلمًا عربيًا. كانت المرة الخامسة التي يرى فيها نفس الفيلم دون أن يتذكر شيئًا منه، فتنهدت بمرارة. فكرت مرارًا في إنهاء حياتها لتتخلص من العذاب الذي ينهش روحها، لكنها تعرف أن الانتحار محرّم، ولم تكن مستعدة لخسارة آخرتها كما فقدت دنياها. أكثر ما كان يقلقها هو مصير "عمر"، فمن سيعتني به إذا رحلت؟ ظهر وجه "چيهان" في مخيلتها، فانعقد ما بين حاجبيها وقالت:

"إلا "چيهان"... لن أمنحها ما تريده"

نظرت إلى ساعة الحائط الموضوعة في مكانها منذ دقائق فتذكرت موعد غداء "عمر". نادته:

"هل تشعر بالجوع يا عمر؟"

التفت نحوها وهز رأسه، ابتسمت قائلة:

"سأحضر لك شطيرة جاهزة حتى أنتهي من تنظيف المطبخ"

راحت تنزل الدرج وهي تنقل بين قدميها بحذر بالغ، والسلم يهتز تحت قدميها كأرجوحة تهتز بفعل رياح خفيفة، ورغم حرصها الزائد، تحطمت إحدى الدرجات تحت قدمها اليسرى بغتة. وبدلا من أن تسقط على ظهرها،

انكفأت إلى الأمام، واصطدم جسدها بالسلم الذي اهتز بقوة مع عنف الاصطدام، ثم راحت تنزلق إلى الأسفل على صدرها وبطنها، وهي تطلق صرخة طويلة مدوية ملأت أركان المنزل، لم تتوقف صرختها حتى اصطدم رأسها بدرابزين السلم بقسوة، قبل أن تهمد حركتها تمامًا، وتبدأ قطرات الدم تنسال من جبهتها ورأسها، بينما جسدها متكوم في قاع السلم بلا حراك.
ساد صمت قاتم، لم يقطعه سوى ابتسامة "عمر"، بينما كان منشغلًا بمشاهدة الفيلم، دون أن يتذكر أن والدته نزلت لتجلب له الطعام. ففي غضون دقائق، سينسى كل شيء، إلا ما يراه أمامه، في حاضره الباهت.

*****

أغرقت "نجلاء" نفسها في البكاء حتى جفت دموعها تمامًا، سيطر عليها شعور عميق باليأس، كأنها تستعد لتوديع حياة لم تعتدها يومًا. بعد أن عاد إليها بصيص خافت من الأمل، سرعان ما اختطفه منها واقع مؤلم، تجسد في غلام كانت السبب في فقد ذاكرته، وصديقة خانتها. لكنها قررت هذه المرة أن تعيد تصحيح مسارها، ربما يكون آخر مسار تخطوه في هذا العالم. كان عليها أن تفعل ما يرضي بقايا ضميرها، الذي لم يزل عالقًا بثنايا روحها، ليشهد على جوهرها الأصيل.
حينما حان موعد تناول الدواء، رفضت أن تأخذ منه شيئًا. بدلًا منه، التقطت ألبوم صورها القديم وبدأت تقلب صفحاته ببطء، تغمرها موجة من الحنين، لكنها، في لحظة غريبة، لم تستطع تحمل رؤية تلك الصور أكثر، فأخذت تمزقها واحدة تلو الأخرى، كأنها تمحو كل دليل يشير إلى وجودها على هذا الكوكب. وعندما انتهت من تلك المهمة، شعرت بشيء من الراحة، كأنها أصبحت خارج أسوار سجن شديد الحراسة.
حان موعد طائرتها، فجلست على متنها مرتدية نظارة سوداء تُخفي خلفها عينين محمرتين ومنهكتين، ذاهبة نحو وجهة تحمل معها قرارًا لم يتضح بعد، إن كان بداية جديدة، أو نهاية محتومة.

بعد انتهاء المؤتمر الطبي، غادر الأطباء الذين أتوا من أنحاء العالم القاعة بهدوء. وسط الجمع كان "جلال" يضحك مع طبيبة إنجليزية بصوت مرتفع، دون أن يأبه لأحد حوله. أنهى حديثه معها وذهب إلى الخارج، لكن فجأة سمع صوتًا مألوفًا:

"انتظرني، سأركب معك"!

استدار إلى الخلف بدهشة، رأى "نجلاء" تفتح باب السيارة الخلفي دون انتظار موافقته. تجمد للحظة، ثم انضم إليها وهو يخبر السائق العنوان.

نظر إليها بضيق وقال:

"ألم تسمعي عن الهاتف؟"

"ليس كل شيء يصلح عبر الهاتف"

بقي صامتًا حتى توقفت السيارة أمام بناية شاهقة. صعدا بواسطة المصعد إلى شقته في الطابق العشرين، وعندما دخلا سألها بنفاد صبر:

"ما الذي يجري؟"

"سميرة تخطط للانتقام".

سألها من غير اكتراث وهو يخلع سترته:

"لماذا؟"

ردت بغضب لم تحسن مداراته:

"لأننا دمرنا حياتها وقضينا على ابنها للأبد"

قال بغطرسة:

"كانت حياتها جحيمًا حتى قبل أن ألتقي بها، وما فعلته هو تخليصها ممن جعلوا حياتها أسوأ"

صاحت :

" عن طريق القتل؟"

تجمد جسده للحظة، سألها:

"كيف عرفتي؟"

قالت بصراحة:

"لم يكن الأمر يحتاج للكثير من الذكاء لأدرك أنك وراء تلك الجرائم"

حدجها بعينين حادتين، اقترب منها ثم شدد قبضته على ذراعها وقال:
" لا تتظاهري بأنك بريئة. هل نسيتِ أنك كنتِ تحسدينها على حياتها الزوجية الهنيئة، بينما أنتِ عالقة في سلسلة من العلاقات الفاشلة؟ من خطط لإدخال "شاهندا" في حياتها لصرف زوجها عنها؟"

كان وجهها كصفحة بيضاء تكشف كل شيء؛ خيانتها، ندمها، توبتها. بينما واصل "جلال" حديثه بسخرية:
"كل ما فعلته هو ما كنتِ تحلمين به، ألم تقولي أنك كنتِ تتمنين لو وضعتِ السم في طعامها لتتخلصي من ضحكتها السعيدة التي كانت تثير غيظك؟"
انهمرت دموع "نجلاء" بينما كلماته اللاذعة تجلدها دون رحمة، نطقت بصوت مكسور:
" نعم، كنتُ أحسدها، لكنني لم أتخيل أبدًا أن أمحو سعادتها بهذا الشكل، أو أدمر ابنها المسكين"
ضحك قائلًا وهو يبتعد عنها:
"عندما رأيت "سميرة" لأول مرة قررت أنها ستكون لي، لكن لم يكن هذا ممكنًا وزوجها حي، لذا كان الحل الوحيد هو التخلص منه".
"وشاهندا... لماذا قتلتها؟"
"كانت تهديدًا مباشرًا لها، فقد ساهمت في تفاقم مشاكلها النفسية، لذا كان عليّ إزاحتها من الطريق"
"ولماذا أفقدت ابنها ذاكرته؟"
"لقد رآنا معًا في وضع لم يكن ليسمح له بنسيانه أبدًا، وكان أفضل حل هو محو تلك الذكريات من عقله حتى تعود "سميرة" كما كانت"
تبدلت ملامحه بشكل مفاجئ، بدأت تتحول من التباهي إلى القلق، غمغم:
"الآن فهمت"
بنبرة مرتجفة سألته:
"فهمت ماذا؟"
تقدم نحوها من جديد قائلًا بصوت قاسٍ شرس:

"أنتِ هنا لاستدراجي، لتأخذي اعترافًا مني"
تراجعت أمامه مذعورة. سألها:
"أين المسجل؟"
"لا يوجد مسجل".
انتزع حقيبتها من بين أصابعها رغم استماتة يديها عليها. فتش فيها حتى عثر على المسجل. حدجها بنظرة نارية وهو يقول:
"أخبرتِ "چيهان" بكل شيء، أليس كذلك؟ كنتِ فقط تجهزين الدليل".
تلعثمت، حاولت الدفاع عن نفسها، لكن "جلال" اقترب منها بشكل مخيف وقال بهدوء قاتل:
"لقد حان الوقت لإغلاق هذه الصفحة من كتاب التاريخ للأبد"
انقض عليها، قاومته بكل ما يمتلكه جسدها الضعيف من قوة، أطلقت صرخات استغاثة متقطعة، لطمها على وجهها عدة لطمات عنيفة. بعد أن انهارت قواها، حملها بين يديه كدجاجة تستعد للذبح. سار بها عدة خطوات نحو النافذة، ثم ألقاها، وسقطت "نجلاء" من الطابق العشرين، مخلفة وراءها صرخة طويلة ممتدة حتى اصطدمت بالأرض.
تجمع الناس حول الجثة التي راحت الدماء تنساب منها في سرعة كأنما تنساح من سجن ضيق، منهية بذلك فصل النهاية الأخير من حياتها المأساوية.

*****

تبعت "چيهان" سيارات الشرطة الذاهبة إلى منزل "سميرة" للقبض عليها. تتحرق إلى اللحظة التي تنتزع فيها "عمر" من يد سميرة وتلقى بها في السجن لتنال عقابها الذي تستحقه. بالنسبة لها، كانت "سميرة" السبب الحقيقي لكل المآسي التي حدثت. لو لم تلجأ إلى "جلال" وتفشي له أسرارها، لما قُتل شقيقها، ولما دُهست "شاهندا" أمام منزلها، ولو لم تتزوجه، لما أفقد "عمر" ذاكرته ومستقبله. "جلال" كان رأس الأفعى، أما "سميرة" فكانت روحها السامة. تمتمت بغيظ:

"كان "فهمي" محقًا عندما وصفها بالأنانية. كان يرى بوضوح ما لم نره جميعًا".

توقفت السيارات أسفل البناية. هرع رجال الشرطة إلى الطابق الثالث، "چيهان" تلاحقهم كظلهم. طرق "يوسف" الباب مرارًا دون رد. لم تقتنع "چيهان" فأخذت تطرق الباب بعنف، مطلقة معها سخطها. ظهر رجل نحيل من الشقة المقابلة وقال:

"مدام "سميرة" ليست هنا، رأيتها تغادر في الصباح الباكر مع ابنها".

سألته:

" ألا تعرف أين ذهبت؟"

" كلا، لكنها بدت مستعجلة"

تبادلت نظرة غاضبة مع الرائد "يوسف"، ثم انطلق الجميع بسرعة نحو سياراتهم. سألته:

"ماذا نفعل الآن؟"

"سنقوم بتتبع مسار سيارتها عبر إدارة المرور، وسنعرف مكانها قريبًا".

لكن تلك الخطة لم تمنح "چيهان" الطمأنينة. ركبت سيارتها وأجرت مكالمة بزميلها "يسري"، قائلة:

"أحتاج منك أن تتواصل مع مصدرنا في المرور. سأعطيك رقم السيارة الآن"

أملته الرقم، وأضافت:

"اجعل هذا الأمر في قمة أولوياتك، وأجّل أي شيء آخر".

أسندت ظهرها إلى المقعد وهي تفكر في لحظة الانتقام المنتظرة. ملامح وجهها انعكست فيها ملامح الظفر، لكنها فجأة تبدلت وهي تتساءل:

"لماذا لم تتصل "نجلاء" حتى الآن؟"

*****

استفاقت "سميرة" من غيبوبتها وهي تتأوه. لم تعرف كم من الوقت مرّ وهي فاقدة للوعي، لكنها شعرت بأن أيامًا مضت وهي على هذا الحال. تذكرت

ابنها، أطلقت شهقة مذعورة ونادت باسمه. حاولت أن ترفع رأسها مستندة على كفيها لتنهض. شعرت بسائل لزج ودافئ بين أصابعها، استغربته، واندهشت لأنها لم تستطع رؤية تلك المادة اللزجة. في بادئ الأمر، ظنت أن الكهرباء انقطعت أو المصباح تعطّل.

تحسست جرحها بطريقة غريزية. وجدت أن الدم قد جف عليه تقريبًا. تألمت حين لمسته، وأدركت أنه جرح بليغ. لكن يدها تسمرت في مكانها على رأسها عندما سمعت صوت التلفاز قادمًا من الطابق العلوي. كان ذعرها وغموض ما يجري حولها قد شوّش حاسة السمع. غمغمت بذعر:

"هل فقدت بصري نتيجة السقوط؟"

رغم الفزع، قاومت الصدمة. نادت بصوت مرتعش:

"عمر، أين أنت؟"

مرت اللحظات بطيئة، كأنها ساعات، ثم جاءها صوت "عمر" من الطابق العلوي:

"ماما"

هتفت بلهفة:

"لا تنزل السلم يا عمر".

رد "عمر" بطريقة شبه آلية:

" لن أنزل".

ابتسمت وقالت:

"أنت ولد مطيع، انتظرني حتى أحضر لك الطعام، فقط اجلس وشاهد التلفاز حتى آتي"

عاد إليها الاطمئنان بعض الشيء. بخطوات حريصة، أخذت تتلمس طريقها نحو المطبخ مخافة الاصطدام بشيء حاد.

مدت يديها أمامها في كل اتجاه حتى لامست أصابعها مائدة الطعام. راحت تتحسس أعلاها حتى عثرت على كيس بلاستيكي. تناولت منه علبة جبن وبعض الخبز الطري وعادت إلى السلم بحذر بالغ.

عندما وصلت إلى حافة السلم، شعرت برهبة شديدة، لكنها هزمت خوفها وراحت تصعد الدرج بحذر، متجنبة الدرجة التي تسببت في سقوطها وفقدان

بصرها. تشبثت بالدرابزين أثناء صعودها حتى وصلت إلى الغرفة حيث كان التلفاز يعمل.

نادت:

"عمر... خذ طعامك، لم أتمكن من صنع شطائرك لأنني لا أرى شيئًا، يبدو أنني فقدت بصري".

تحسست وجهه بأناملها كأنما تطمئن إلى وجوده يجوارها، ثم قالت:

"تناول الطعام كله يا "عمر"؟"

"حاضر"

جلست في ركن الغرفة. وضعت أصابعها على عينيها كأنها تتأكد من وجودهما، في تلك اللحظة، انهمرت دموعها. همست لنفسها:

"أستحق هذا جزاءً لما فعلته"

أنصتت لصوت مضغ "عمر" لطعامه. وسط دموعها، لاحت على وجهها ابتسامة بدت عجيبة في حالتها الراهنة.

*****

اختطفت "چيهان" الهاتف وأنصتت إلى زميلها للحظات. أنهت المكالمة وغمغمت في حيرة:

"ما الذي يدفعها للذهاب إلى "الفيوم" بهذه السرعة؟"

صمتت للحظة تفكر، ثم صاحت بانفعال:

"لقد عرفت مكانها، إنها في منزل والدها القديم"

تناولت حقيبتها وركضت نحو سيارتها، انطلقت بها متجاوزة شوارع المدينة المزدحمة بصعوبة زادت من توترها. وعندما وصلت إلى نهر الطريق، فكّت لجام سيارتها. حينما نظرت إلى عداد السرعة، وجدته قد جاوز المائة والخمسين كيلومترًا في الساعة. لم تبطئ من السرعة المفرطة، ولم تخشَ من مطاردة الشرطة، إذ طمأنت نفسها بأن الرائد "يوسف" سيخرجها من بين براثنهم كالشعرة من العجين.

وفي غضون ثلاث ساعات، وصلت إلى المنزل المطلوب. وقفت أمامه تتأمل المكان بتأثر بالغ. تساقطت دمعة من عينيها كأنها تشارك المكان آلامه. لم تستطع محو تلك الذكرى القديمة التي فرضت نفسها عليها بقوة، حينما اصطحبها "فهمي" و"سميرة" إلى هذا المنزل لقضاء الإجازة الصيفية منذ خمس سنوات منصرمة. كانت السعادة تعم حياتهما، حتى ظهرت تلك المرأة وأفسدت كل شيء.

غمغمت "چيهان" بكراهية:

"تلك الحقيرة "نجلاء" تسببت في مقتل "فهمي" وتدمير مستقبل "عمر" بسبب غيرتها العقيمة"

انتفضت "سميرة" مع الطرقات القوية التي تنذر بالخطر.

تكررت الطرقات العنيفة كأن صاحبها يعرف بوجودها يقينًا. ارتعدت عندما وصل إلى مسامعها صوت غريمتها تصرخ:

"أنا أعرف أنك هنا، لا تحاولي خداعي كما تفعلين مع الجميع لتصلي إلى مآربك"

تمتم "عمر" بخوف:

"ماما"

همست مذعورة:

" اسكت يا "عمر"، لا أريدها أن تسمع صوتك"

صاحت "چيهان" من مكانها بنبرة متوعدة:

"حسنًا يا "سميرة"، أنتِ أردتِ هذا"

ركبت سيارتها واستدارت بها حتى صارت مقدمتها في مواجهة الباب، ضغطت دواسة الوقود بقوة، فقفزت السيارة للأمام واصطدمت بالباب بكل عنف واقتلعته من مكانه. صرخت "سميرة" مع صوت الارتطام المخيف. وصل صوت الارتطام إلى مسامع الجيران، فهرعوا نحو المنزل، لكن لم يجرؤ أحدهم على السؤال عما يجري، خاصة وأن البيت مهجور منذ سنوات، ولم يكونوا قد علموا بوجود "سميرة" داخله بعد.

لم تعبأ "چيهان" بالجيران الذين تجمعوا حول المنزل وهي تصيح من الطابق السفلي:

"أين أنت يا قاتلة؟"

صاحت "سميرة" دون أن تبرح مكانها:

"شقيقك هو الذي قتلني عندما خانني مع امرأة أخرى".

رفعت "چيهان" رأسها للأعلى، ثم اندفعت تصعد الدرج غير عابئة به وهو يهتز تحت قدميها. لكن "سميرة" أطلقت هتافًا تحذيريًا :

" احذري الدرجة المكسورة"

جاء هتافها في اللحظة التي كانت ستطأ فيها مكان الدرجة الفارغ. رغم تلهفها للقاء غريمتها استجابت للنداء المذعور بسرعة. تأملت الدرجة المحطمة وتساءلت ذاهلة: "لماذا حذرتها سميرة رغم العداوات بينهما؟ ولماذا كان هتافها مليئًا بالهلع؟"

صعدت بنظرها في حيرة إلى الطابق الذي يأتي منه صوت التلفاز، ثم شرعت في صعود باقي الدرج بحذر هذه المرة حتى توقفت أمام الغرفة. رأت "عمر"وجالسا على مقعد خشبي يشاهد التلفاز، بينما تجلس" سميرة" على الأرض تنظر إلى اللامكان.

لفت انتباهها تلك النظرة الهائمة على وجهها، وظنتها تعبيرًا عن تجاهل متعمد. استفزها ذلك فقالت:

"لقد اعترفت نجلاء بكل شيء"

"اعترفت بماذا؟"!

"اعترفت بأنها كانت تشعر بالغيرة منك، لذا دفعت" شاهندا" في طريق "فهمي" لتشغله عنك، وهي السبب في تعرّفك على الدكتور "جلال" رغم معرفتها بنواياه الشريرة، وكانت نتيجة ذلك أنه قتلهم، حتى ابنك لم يسلم من بطشه".

هبّت سميرة واقفة وهي تصرخ باستنكار:

"نجلاء اعترفت بأن" جلال" هو القاتل؟"

"نعم، مع سبق الإصرار والترصد، ومن أجلك".

سارت سميرة إلى الأمام يدفعها انفعالها، لكنها تعثرت وسقطت، حاولت "چيهان" إمساكها قبل أن يرتطم جسدها بالأرض، لكن محاولتها باءت بالفشل. تأوهت "سميرة" مع عنف الارتطام، وهنا أدركت "چيهان" ما أصاب عينيها، وتلك الصرخة التي أطلقتها وهي تصعد الدرج كانت تحذيرًا لها لتتجنب مصيرها.

مدّت يدها هاتفة:

" تمسكي بي".

اعتمدت عليها "سميرة" لتقوم من سقطتها. اغرورقت عينا "چيهان" بالدموع قائلة في تأثر:

"سامحيني، لقد قسوت عليكِ كثيرًا، لكن حادثة شقيقي، وعملية" عمر" التي أودت بمستقبله، كل ذلك أصابني بغضب أعمى فلم أعد أرى إلا بعين الانتقام"

غمغمت "سميرة" بمرارة:

"أنا أستحق أبشع انتقام، فلا تأخذك بي رأفة"

عمّ الصمت المكان، قطعته سميرة:

"هل جئتِ لتأخذي عمر؟"

لم ترد چيهان، فأردفت:

"لم أعد أصلح أمًّا له، خاصة بعد أن فقدت بصري، وحتى لو عاد، فأنا لا أستحق أن أكون أمًّا له، أنا من تسبب في شقائه"

"دعينا أولًا نذهب إلى إحدى المستشفيات للكشف على عينيكِ، وأعتقد أنه انفصال في الشبكية يمكن علاجه جراحيًا"

لوحت سميرة بيدها وقالت:

"لا تلقي بالًا بحالتي، فعلاجها سهل كما تقولين، المهم الآن أن تأخذي عمر معكِ، فأنا لا أستطيع القيام بخدمته، أنا حتى لم أستطع صنع شطائره"

"وماذا ستفعلين بعد أن نغادر؟"

"سأكفر عن ذنوبي".

"كيف؟"!

"سأقتل الشيطان".

أمسكت چيهان بكتفيها وقالت:

"لن تستطيعي قتله، إنه شيطان حقيقي، ثم إنني لا أريدك أن تلوثي يديكِ بدمائه"

"لماذا؟ ألم تصفيني من قبل بالمجرمة؟"

تركت "چيهان" كتفيها بعد أن هاجمها الخجل، سألتها سميرة بنبرة علاها الغضب:

"أين نجلاء الآن؟"

"لقد ذهبت إلى" جلال"في "لندن" لتأخذ منه اعترافًا على جرائمه، رغم تحذير الرائد يوسف لها"

رن هاتفها في تلك اللحظة، تناولته من حقيبتها واستمتعت لمحدثها للحظات، ثم أطلقت صيحة هلع، قالت بنبرة بالغة الحزن والأسى:

"لقد قتلها ذلك اللعين، ألقاها من الطابق العشرين"

لم تنبس "سميرة" بكلمة، وإن بدا على وجهها أسى عظيم. غمغمت بغضب عارم:

" قلتُ لن يقتله أحد غيري"

ولم تعترض "چيهان" هذه المرة.

*****

"لماذا غيرتِ رأيكِ فجأة؟"

"كانت "سميرة" ضحية ذلك الشيطان مثل الآخرين، ولولا حب "جلال" لها، لربما أصبحت ضحية مثلهم"

"وأين هي الآن؟ لقد قادنا البحث إلى منزل والدها في "الفيوم"، لكن الجيران هناك أخبرونا أنها غادرت مع ابنها وامرأة أخرى"

"هي الآن في "مستشفى السلام" تخضع لعملية إصلاح الشبكية"

سألها الرائد "يوسف" بنبرة مشككة:

"هل تحاولين منعي من القبض عليها؟"

"كلا، هي بالفعل تجري العملية الآن بعد أن أصيبت بعمى مؤقت نتيجة سقوطها من الدرج. وكنت سأصبح مثلها لولا أنها حذرتني في اللحظة الأخيرة، صدقني يا سيادة الرائد، "سميرة" عانت أكثر منا جميعًا"

علت وجهه ابتسامة وقال:

"أنتِ تثيرين دهشتي في كل مرة أقابلك فيها"

غشي وجهها الخجل فسكتت، اتسعت ابتسامته وهو يتأمل خجلها بإعجاب، ثم اختفت ابتسامته وهو ينظر إلى ساعته قائلًا بتأثر:

"هيا لنحضر دفن "نجلاء"."

سألها وهما يسيران معا إلى السيارة:

"هل يعيش "عمر" معكِ الآن؟"

اكتسب صوتها رنة سعادة واضحة وهي تقول:

"نعم، ولقد أرسلته إلى مركز خاص لدراسة حالته"

قاد السيارة في صمت لعدة دقائق، ثم سألها:

"أخبريني بصدق، لماذا تغير موقفك تجاهها بعد أن كنتِ تسعين للانتقام منها؟"

صمتت "چيهان" طويلًا حتى ظن أنها لا ترغب في الإجابة، ثم قالت:

" كان موت شقيقي يضع على عيني غشاوة سميكة تمنعني من رؤية الحقيقة. وعندما ذهبت إليها، كنت قد اتخذت قراري بانتزاع "عمر" بالقوة، ثم الاتصال بك لتحضر قواتك للقبض عليها. لكنها عندما صرخت لتحذيري من الدرجة المكسورة، ثم رأيتها عمياء عاجزة، حينها نُزعت الغشاوة من على عيني، ورأيت الصورة بوضوح للمرة الأولى"

سألها باسمًا:

"إذن فقد سحبتِ كل اتهاماتك ضدها؟"

قالت وهي تنظر من نافذة السيارة إلى الطريق، كأنها تتحاشى النظر إلى وجهه، أو تهرب من سطوة غضبها الذي لم يهدأ بعد:

"لقد استغل ذلك الشيطان ضعفها الشديد ليوقعها بين براثنه"

ثم سألته:

" لماذا لا يلقى الإنتربول القبض عليه بدلًا من الانتظار حتى يعود؟"

"وأين الدليل على ارتكابه جرائمه؟ حتى موت "نجلاء" لم تستطع المباحث الجنائية هناك إثبات أنه الفاعل"

تساءلت غاضبة:

"هل هذا يعني أنه لن يعاقب على جرائمه؟"

بدا الغضب على وجهه بدوره وهو يقول:

"سأبذل قصارى جهدي لأضع حبل المشنقة حول رقبته"

تشاغلت بالنظر عبر نافذة السيارة إلى الطريق، بينما يكدح ذهنها للوصول إلى حل.

*****

هبط "جلال" من الطائرة القادمة من "لندن". خرج من مطار القاهرة وعيناه تبحثان عن سيارة أجرة تقله إلى مسكنه. وقفت أمامه سيارة ملاكي أبرز الرجل داخلها هويته الأمنية قائلًا:

"الرائد "يوسف" من المباحث العامة. أما زلت تتذكرني؟"

جلس "جلال" إلى جواره وهو يقول:

"بالتأكيد أتذكرك".

انتظر أن يبدأ "يوسف" الكلام، لكنه بدا وكأنه نسي وجوده. فقال "جلال" باستخفاف:

"طريف للغاية ما تفعله يا سيادة الرائد. هل تظن أنك ستدفعني للخوف بتلك الحركات الصبيانية؟"

قال "يوسف" بجدية:

"في الحقيقة كنت أفكر في شجاعتك النادرة. كيف عدت إلى مصر وجسد "نجلاء" - التي قتلتها بدم بارد - لم يمر على دفنه سوى أسبوع واحد؟"

"أستطيع أن أتهمك بمحاولة إلصاق تهمة موت تلك الفتاة بي دون دليل، رغم أن الشرطة البريطانية أدرجتها على أنها محاولة انتحار".

رد "يوسف" بسخرية:

"هل انتحرت من نافذة غرفتك؟"

"كلا، ولا تنسَ أنني غير ملزم بإجابة أسئلتك"

واصل "يوسف" كأنما لم يسمعه:

"هل ستزور قبر "نجلاء"؟ أم أنك لا تزور قبور من تقتلهم عادة؟"

لم يعبأ "جلال" بإجابة سؤاله، فاستطرد:

"لماذا قتلتهم؟"

تمتم "جلال" وهو يشعل لفافة تبغ:

"محاولة رخيصة".

"هل حبك لـ "سميرة" هو ما دفعك لتقتل أربعة أشخاص، وتدمر مستقبل طفل لا ذنب له سوى أنه رآك مع والدته في وضع غير لائق؟"

"قلت إن محاولاتك رخيصة أيها الرائد. أوقف السيارة لأنزل"

رد "يوسف" بنبرة تهكم:

"هل رفقتي تسبب لك مشاعر سيئة؟"

سأله "جلال" بصرامة:

"هل أنا مسجون هنا في سيارتك؟"

"كلا بالطبع".

"إذن توقف حالًا".

أكمل "يوسف" حديثه بنبرة هادئة تثير الاستفزاز:

"لقد سعيت طويلًا لمعرفة السبب الذي دفعك لارتكاب تلك الجرائم. ولكي أجد إجابة لهذا السؤال المعقد، تعمقت في كل تفاصيل حياتك منذ طفولتك. لم أتمالك دهشتي عندما اكتشفت أن والدتك قضت عشرين عامًا في السجن بسبب قتلها لزوجها. لكنني بحاجة للتأكد من صحة هذه المعلومة تحديدًا. هل كانت والدتك حقًا هي من ارتكبت تلك الجريمة؟"

تفحص "يوسف" وجهه ليرى تأثير حديثه عليه، لكنه رأى وجهًا جامدًا لا يحمل أية انفعالات، فأردف:

"ولكي أتأكد من تلك المعلومة، ذهبت البارحة إلى مسقط رأسك في المنوفية، في قرية "سبك الأحد" بمركز أشمون. وبعد بحث بسيط، استطعت الوصول إلى منزلكم القديم الذي وُلدت وترعرعت فيه. ولكن، نظرًا لأن الحادثة مر عليها أكثر من ثلاثين سنة، لم أستطع العثور على أحد يتذكر تلك الحادثة، سوى امرأة واحدة"

نظر الرائد في فضول إلى وجه الطبيب الذي عبست تعابير وجهه للحظة، قبل أن تعود إلى جمودها البرونزي مرة أخرى. فأكمل "يوسف"، وإحساسه بالظفر يتعاظم داخله:

"هي امرأة طاعنة في السن تدعى "حسنية"، تمتلك ذاكرة أحسدها عليها. أخبرتني أن زوج والدتك كان يعتدي عليها بالسب والضرب، وفي مرة لم تتمالك أنت نفسك، فتناولت سكينًا من المطبخ وغرزته في ظهره. فأمرتك والدتك أن تغادر المنزل سريعًا قبل وصول الشرطة، وطلبت من جارتكم "حسنية" أن ترعاك حتى تتخرج من الجامعة"

ظن "يوسف" أنه قد امتلك ناصيته وسيجعله يغضب ويثور وينفعل، ثم يخرج كل ما في جعبته. لكن على خلاف ما توقع، ابتسم "جلال" ابتسامة جذلة وقال:

"وكيف حال الحاجة "حسنية"؟ لا أستطيع نسيان تلك الملوخية التي كانت تطهيها كل يوم ثلاثاء. لا أدري لماذا كانت تطهيها في هذا اليوم بالتحديد! لو أتيح لي الوقت، سأذهب للاطمئنان عليها، وأسألها عن هذا الأمر بالتحديد"

أصابت الدهشة الرائد في الصميم، لكنه قال محاولًا التعافي من أثر الصدمة:

"دعنا من أمر تلك الملوخية مؤقتًا وأخبرني، هل صدقت تلك العجوز أم لا؟"

تمتم "جلال" بنبرة حاول أن يجعلها لامبالية:

"بلى، صدقت"

"هل زرت والدتك أثناء سجنها الطويل؟"

اربد وجه "جلال" رغماً عنه، وهنا فقط، أدرك "يوسف" أنه وصل لنقطة ضعفه أخيرًا.

قال "جلال" مبدياً هدوءًا زائفا:

"أجل، زرتها مرتين قبل أن ترفض زيارتي لها، متعللة بأنني يجب أن أقبل على حياتي، وأن أنساها للأبد"

"وهل نسيتها؟"

صمت "جلال" هذه المرة طويلًا، ثم قال بنبرة تخفي في طياتها مرارة قاتلة:

"كلا.. هي المخلوقة الوحيدة التي لم أنسها لحظة واحدة. ولكن كان يجب أن أقبل على حياتي كما أمرتني".

وصلت السيارة في تلك اللحظة إلى مسكن "جلال". سأله "يوسف:"

"هل تزور قبر والدتك بانتظام؟"

أومأ "جلال" برأسه إيجابًا، ثم انتزع نفسه من مقعده وقال دون أن يلتفت:

"لقد استمتعت بصحبتك كثيرًا يا سيادة الرائد. أرجو أن تتكرر لقاءاتنا كثيرًا في الأيام القادمة"

بدت ابتسامة طفيفة على شفتي "يوسف"، وقال:

"لا أشك في ذلك مطلقًا يا دكتور "جلال"

انطلق بسيارته وهو ينظر عبر المرآة الجانبية إلى وجه "جلال" الذي بدا مربدا وغاضبا.

*****

لم تكن "چيهان" لتجد الراحة حتى يتضح وضع "عمر" الطبي بدقة. لذا أخضعته لأحد أبرز جراحي المخ والأعصاب في مصر، وتم إجراء فحص شامل له، ثم عادت به تترقب نتيجة الفحص بفارغ الصبر. وعندما جاء الموعد، ناولها الطبيب التقرير الطبي بوجه مكفهر. تناولت "چيهان" التقرير وجرت عيناها على السطور بسرعة ولهفة. أشار التقرير إلى أن "عمر" خضع لعملية "نزع الحُصين"، وهي جراحة تؤدي إلى فقدان الذاكرة كأنه لم يملكها، فيعجز عن تذكر الأحداث الماضية، ولا يمكنه إنشاء ذكريات جديدة. سقط التقرير من يدها وتبعثرت أوراقه على المكتب. غمغمت في يأس: كانت "نجلاء" صادقة فيما أخبرتها به، للأسف، صار "عمر" كالميت، جسد يتحرك لكن بلا روح"

سيطر الحزن على قلبها، اشمأزت من الشر والأشرار. في مخيلتها، رأت وجه "جلال" جامدًا قاسيًا تلمع عيناه بحمرة الدم. أخذت التقرير وذهبت إلى الرائد "يوسف"، الذي صدمه التقرير بدوره. جلس صامتًا لبضع لحظات، ثم قال:

"كانت نجلاء على حق، جلال هذا أعظم شرًا من الشيطان نفسه"!

"ماذا سنفعل الآن؟"

"لو كان الأمر بيدي لأفرغت كل رصاص مسدسي في رأسه فورًا"

ردت "چيهان" بغضب:

"وهل سنكتفي بالغضب؟ يجب أن نفعل شيئًا".

"جلال هذا ليس سهلًا، علينا أن نفهم كيف نتحرك ضده قبل أن نتخذ أي خطوة".

قالت بنبرة يائسة:

"هذا المجرم لا دوافع له سوى إرضاء غرائزه الشيطانية. الحل الوحيد هو التخلص منه"

"سأحرص على أن يصل إلى حبل المشنقة"

قالت بنبرة ساخرة لم تنتبه لها:

"وكيف ستفعل ذلك يا سيادة الرائد؟"

قال بجدية:

"سأتحدث مع الدكتور" ياسين منصور"، أحد كبار الأطباء النفسيين، وربما يساعدني في كشف نقطة ضعف ذلك الشيطان"

لم يظهر على وجهها الاقتناع بتلك الخطوة، لكنها قالت: "حسنًا، وأنا سأذهب لرؤية سميرة والاطمئنان عليها"

ذهبت إلى وجهتها، بينما ذهب هو إلى عيادة الطبيب النفسي الذي رحب به ليبدأ "يوسف" بسرد كل ما يعرفه عن جلال، بحثًا عن خيط يقودهم إلى الإطاحة به من منصبه الشيطاني وإعدامه.

*****

رجعت "سميرة" إلى منزلها بعد إتمام العملية، تحسست مكان الضمادات برفق، لم يكن الحزن يسيطر عليها، بل لم يكن يهمها كثيرًا حياتها، استرجعت بذاكرتها وجوه من رحلوا: "فهمي"، "شاهندا"، "نجلاء"، وحتى ذلك السائق الذي لم ترَ وجهه تخيلته بملامح مبهمة. وأخيرًا، طالعها وجه "عمر" فأصابتها قشعريرة باردة، تمتمت بحزن: "كنت أستحق القتل قبلهم، لكن يبدو أن القدر يخبئ لي مصيرًا أسوأ"

استرجعت ذكرياتها مع ابنها، تلك اللحظات التي كانت تشعر فيها أن الحياة قد اكتملت بسعادتها وبهجتها. لم يكن يخطر ببالها أن السعادة يمكن أن تكون مؤقتة وهشة إلى هذا الحد. كانت تراقبه وهو يلعب، يضحك، يملأ المكان بصيحاته الحماسية. لو كانت تعلم أن كل شيء سيتغير، لكانت أحكمت قبضتها على تلك اللحظات، لتمسك بها بكل قوتها ولا تدعها تفلت، أو هربت به إلى أقاصي الأرض، حيث لا يمكن لأي شيء أن يمس سعادتهما.

لكن القدر دائمًا ما يكون له حكمه الخاص، أحكام غامضة لا تبوح بأسرارها إلا بعد فوات الأوان.

بينما كانت مشاعر الذنب تأكل قلبها كضبع جائع، دخلت "چيهان" تسألها دون مقدمات:

"هل كنتِ تعرفين أن "عمر" أُجريت له عملية نزع الحُصين، وأن هذه العملية لن تحرمه من استعادة ذكرياته فقط، بل ستمنعه من تكوين ذاكرة جديدة في المستقبل؟"

ردت "سميرة" بصوت تغلفه المرارة:

" أخبرتني "نجلاء" بذلك بعد يومين من إجراء العملية"

" هل تدركين ما فعلته بابنك؟"

"أنا أموت كل يوم منذ فقد "عمر" ذاكرته، لكنكِ محقة في شيء واحد، أنا لم أكن الأم المناسبة له، أريدكِ أن تكوني له الأم التي يستحقها عمر"

صمتت "چيهان"، سألتها "سميرة" باهتمام:

"هل عاد "جلال" من سفره؟"

قالت بغيظ:

"بلى، عاد وافتتح عيادته، كأنه لم يقتل "نجلاء" قبل أسبوع واحد، لكنه سينال عقابه في النهاية"

بصوت تغلفه المرارة قالت "سميرة":

"حتى لو نال عقابه، فلن يعود الموتى إلى الحياة، ولن تعود لـ"عمر" ذاكرته"

"ربما يعثر العلم على علاج لحالته في المستقبل"

زادت حدة المرارة في صوتها:

"بعض الأمراض لا شفاء لها، وبعضها استغرق عقودًا حتى عثروا على علاج له، بعد أن مات الآلاف، بل الملايين."

في تلك اللحظة، شعرت جيهان بيأس مماثل، وكأن الأمل الذي كادت تمسك به قد تلاشى إلى الأبد.

*****

بعد أن انتهى "يوسف" من حكايته، لاحظ آثار صدمة خفيفة على وجه الطبيب، لكنه ظل يأمل أن يجد الجواب الناجع عنده، قبل أن يستفحل المرض ويصبح من الصعب السيطرة عليه. سأل بصوت مفعم بالقلق:

"ما الحل الذي تقترحه للتعامل مع هذا المجرم؟"

قال الدكتور "ياسين:"

"لا يوجد من يولد مجرماً بالفطرة. عندما ارتكب "جلال" جريمته الأولى، لم يكن دافعه الجريمة بحد ذاتها، بل الانتقام ممن أذاق والدته الويلات، لكن القتل يترك أثراً لا يمحى في النفس، ومن يقتل مرة، يجد إزهاق الأرواح أيسر في المرات التالية، ومن خلال القصة التي سردتها، أستطيع القول إن العلاقة بين "جلال" و"سميرة" والجرائم التي ارتكبها من أجلها نابعة من شيء أعمق؛ هناك تشابه بين "سميرة" ووالدته في جانب ما"

"هل تعني أنه ارتكب جرائمه لأن "سميرة" ذكرته بما مرت به والدته من قبل، لذا انتقم من كل من آذاها؟"

ابتسم الطبيب قائلا:

"إلى حد كبير"

بقي "يوسف" صامتاً للحظات يحاول استيعاب الفكرة، ثم قال:

"لكنه طبيب نفسي! كيف يسمح لعاطفته أن تقوده لارتكاب مثل تلك الجرائم؟"

أشار الدكتور ياسين بسبابته قائلا بنبرة حازمة:

"كثير من الناس يعتقدون أن الأطباء النفسيين محصنون من الأمراض النفسية، لكنهم في الحقيقة عرضة للإصابة بها كأي شخص آخر"

"وكيف يمكننا الإيقاع به؟ كيف نصنع له مصيدة ليقع متلبساً بإحدى جرائمه؟"

"ابحث عن نقطة ضعفه".

" هل تعني "سميرة"

قال الطبيب وهو يحك لحيته البيضاء:

"جلال لا يتورع عن القتل عندما يشعر أن "سميرة" في خطر، ضعها في مواجهة تهديد حقيقي، وسيندفع لنجدتها مأخوذاً بقوته"

فكر يوسف ملياً، ثم قال:

"أشكرك على تلك المعلومات القيمة، سنقبض عليه قريباً بإذن الله".

وفي طريقه، اتصل بـ"چيهان" وطلب منها الحضور إلى مكتبه دون تأخير. تأكدت أن لديه جديداً يستحق الاستعجال، فقادت سيارتها بسرعة كبيرة إلى مكتبه، وحين وصلت قالت بانفعال:

"أخبرني، ما هي نقطة ضعفه؟"

ابتسم وقال مازحاً:

"كم مخالفة ارتكبتِها وأنت في طريقك إلى هنا؟"

لم "چيهان" تعر سؤاله اهتماماً وهي تكرر سؤالها بفضول متناهٍ.

حدق بها "يوسف" للحظات قبل أن يجيب:

"أخبرت الدكتور "ياسين" بكل ما نعرفه عن "جلال"، فأكد لي أنه ارتكب جرائمه بسبب حبه لـ"سميرة ."

أصاب "چيهان" خيبة أمل، فقالت:

"نحن نعلم ذلك بالفعل، لكن ما هي نقطة ضعفه؟"

"هي نفسها نقطة ضعفه"

بدت "چيهان" وكأنها تفكر، ثم قالت بخجل:

"كيف لم أنتبه إلى هذا من قبل؟"

قال "يوسف:"

"الدكتور "ياسين" أشار إلى أن "سميرة" تمثل لـ"جلال" ما كانت تمثله والدته له بضعفها وقلة حيلتها. وكما أنه قتل زوج أمه دفاعاً عنها، فعل الشيء نفسه مع من آذى "سميرة ."

غمر الصمت المكان لبرهة، ثم قالت "چيهان:"

"كيف سنستغل هذه النقطة للإيقاع به؟"

صمت "يوسف" للحظات، ثم قال:

"عن طريقك أنتِ".

*****

كانت "سميرة" تتناول طعامها، تساعدها إحدى الممرضات، حين سمعوا طرقات خفيفة على الباب. فتحت الممرضة لتجد أمامها رجلا وسيمًا يرتدي نظارة طبية، قال بنبرة مؤدبة:

"هل يمكنني الدخول؟"

عندما سمعت "سميرة" صوته، انتفضت وتوقفت عن الأكل. تظاهر "جلال" بأنه لم يلاحظ ردة فعلها وهو يدخل الغرفة. وجه نظره نحوها، متمعنًا في الضمادات التي غطت نصف وجهها العلوي، سألها بحنان:

"كيف حالكِ يا حبيبتي؟ عندما سمعت بما حدث لكِ، أتيت على الفور"

لم يسمع رداً، فتابع:

"كيف أصبتِ بانفصال الشبكية؟ حادث سيارة أم سقطتِ من على الدرج؟"

في داخلها، كان هناك شعور يعصف بها كبركان مدمر، لكن عينيها المختبئتين خلف الضمادات حجبتا عنه حممه المنصهرة. بقيت ساكنة، باستثناء تنفس ثقيل فضح التهاب مشاعرها.

تأملها "جلال" للحظات، كان يعرف أنها غاضبة منه ولا شك، وربما تلومه على مقتل "نجلاء" أيضاً. قرر أن ينظف ساحته قائلا:

"نجلاء كانت تمر بأزمات نفسية شديدة، وعندما سافرت إلى "لندن" لحضور المؤتمر، كانت وحدها تماماً، وأنت كنتِ مشغولة برعاية ابنكِ، فتعرضت للإهمال ولم تحتمل، وفي النهاية ألقت بنفسها من أحد الأبنية الشاهقة هناك"

ظل الصمت يخيم على المكان، انزعج، ذلك الصمت يذكره بقبر والدته، ضاق ذرعاً، فقال بنبرة ملؤها الانفعال:

"لماذا لا تردين؟ لم أترككِ بعد عملية "عمر" برغبتي، كنت مجبراً على حضور المؤتمر الدولي"

نظر إلى شفتيها الملتصقتين بعناد، والغضب المرسوم على وجنتيها، زفر في يأس، قال متشبثاً بآخر أمل لديه:

"لم أحب أحداً في حياتي غيرك، أقسم لك، أفكر ليل نهار في كيفية إسعادك"

صمت لبرهة، ثم أضاف:

"كل شيء يمكن أن يعود كما كان، المهم ألا نستسلم"

بدت على شفتيها شبح ابتسامة ساخرة سرعان ما تلاشت. أخذ نفساً عميقاً محاولا تهدئة أعصابه، ثم قال محتجاً:

"لو كنتِ تعتقدين أن لي يداً في موت "نجلاء" فأنتِ مخطئة، حاولت مساعدتها، لكنها لم تلتزم بالإرشادات"

تنفسها العميق يشي بغضب مشتعل تحت الرماد. استدار وقال بنبرة حزينة:

"الأيام ستثبت لكِ براءتي"

سار باتجاه الباب، وبينما كان على وشك الخروج، سمع صوتها الساخر يقول من خلفه:

"هل زرتَ قبر والدتك هذا الأسبوع؟"

توقف فجأة، لم يستطع أن يلتفت نحوها رغم أنها لا يمكنها رؤيته، عرف أن الرائد "يوسف" أخبرها بأمره، شعر بالغيظ، لكنه سيطر على مشاعره قائلا:

"أشكركِ على تذكيري، سأزوره غداً"

همّ بالمغادرة، لكنها استدركت بنبرة تهكمية قاسية:

"أنا من يجب أن أشكرك، فقد علمتني ألا أبكي تحت الضغوط مهما كانت هائلة"

ارتسم على وجهه تعبير غاضب، لكنه سرعان ما ابتسم بتحد، استدار وألقى نظرة خاطفة على وجهها، ثم غادر الغرفة مسرعاً.

*****

ذهبت "چيهان" إلى منزل سميرة، بينما كان عقلها ينسج خيالاته الخاصة. للحظة، خُيّل لها أنها ترى "جلال" يسير أمامها، داست على دواسة الوقود بقوة، لكن لم يكن هناك أحد. أدركت أن خيالها خدعها، وأنها لم تخلص العالم من شروره بعد. خيبة أمل خانقة ملأت صدرها، لكنها سرعان ما تلاشت وهي تقتحم المنزل دون مقدمات:

"لماذا أتى إليكِ هذا اللعين؟"

انتفضت "سميرة" مع دخولها المباغت وحدة صوتها، صمتت قليلا، ثم أخبرتها بما دار بينهما، فقالت:

"إذا فقد علم أنك اكتشفت سره"

"هو ذكي كفاية ليدرك هذا"

جلست "چيهان" بجوارها، قالت بحماس:

"لقد وضعنا خطة، أنا والرائد يوسف، لتدمير هذا الحقير وإذلاله."

بدا الاهتمام على ملامح سميرة رغم الضمادات التي تغطي عينيها، استطردت جيهان:

"الخطة تعتمد على جنونه بكِ، وهوسه بحمايتكِ من أي تهديد. سأكون أنا الشريرة التي تطاردكِ، أضغط عليكِ بتهمة قتل أخي، ألاحقكِ بلا هوادة.

وعندما يحاول جلال التخلص مني، سيكون يوسف بانتظاره، متلبسًا بمحاولة قتلي"

"هذا سيعرضكِ لخطر داهم"

"الرائد يوسف أعد لكل شيء، فلا تقلقي. المهم أن تخبري" جلال" أنني أهددكِ باستمرار، ألاحقك في كل مكان، حتى يبدأ بالتصرف بغباء"

صمتت سميرة للحظات طويلة، حتى تساءلت جيهان بحدة:

"ما بكِ؟ ألا تعجبكِ الخطة؟"

أخفضت سميرة رأسها، وكأنها تغرق في دوامة أفكارها، ثم قالت بصوت خافت لكنه محمّل بالمرارة:

"لا أريد لأحد غيري أن ينتقم منه"

نظرت إليها "چيهان" بدهشة، ثم قالت بنبرة محتجة:

"وأنا أيضًا لي الحق في القصاص لأخي، لكن القانون يمنعني من الانتقام بيدي، وإلا سنصبح جميعًا مثله"

هتفت "سميرة" بحدة:

"ومن يهتم بالقانون؟"

"لا تُقدمي على شيء تندمين عليه طوال حياتك"

ضحكت سميرة ضحكة قصيرة، خالية من أي بهجة:

"وماذا أفعل بحياة طويلة، ابني فقد ذاكرته، وزوجي فقد حياته، وأنا كنت السبب في كل هذا"

مدّت جيهان يدها إلى كتفها، محاولة أن تخفف من وطأة إحساسها بالذنب:

"لكن بقتله، هل ستعيدين زوجكِ إلى الحياة؟ وهل ستعيدين لعمر ذاكرته؟"

"لا، لكنني عاهدت نفسي على الانتقام، ولن أحنث بوعدي أبدًا"

أحست جيهان بغصة في حلقها، لكنها أصرّت:

"لا تفعلي ذلك، يكفي ما فقده عمر حتى الآن"

ارتجف صوت "سميرة" وهي تهمس:

"عمر فقد أمه للأبد في تلك الليلة"

"على الأقل سينمو بين يديكِ ليصبح شابًا"

هزّت "سميرة" رأسها بحدة، ثم قالت بمرارة تقطر من كلماتها:

"لا أريد أن أراه يعاني بعدما يكبر، ينسى الأشياء باستمرار، يعتمد عليَّ في كل شيء، حتى أنه لا يستطيع الخروج من المنزل دون أن يمسك بيدي"

قالت "چيهان" بإصرار:

"لكن على الأقل ستكونين معه"

عندها، انفجرت "سميرة" بعصبية، صوتها مرتجف لكنه مليء بالغضب:

"لا أريد أن أكون معه عندما يصبح بالغًا، لا أريد أن أراه عاجزًا وأنا أقف مكتوفة اليدين"

تراجعت "چيهان" قليلًا، ثم قالت بجدية:

"يجب أن نتبع الخطة للانتقام منه سويًا"

لم ترد سميرة فورًا، وكأنها تفكر في شيء ما، ثم رفعت رأسها ببطء، وقالت بصوت بارد:

"وإذا اكتشف خطتنا قبل أن تنجح؟"

قالت "چيهان" بحسم:

"حينها سيكون الرائد" يوسف" مستعدا له، لا تقلقي"

*****

مرت الأيام ببطء يثير الغيظ، حتى جاء موعد نزع الضمادات. كانت "سميرة" ترتجف من التوتر. حاول الطبيب أن يخفف من قلقها فقال مازحًا:

" في تلك اللحظة ندرك قيمة النعمة التي منحها الله لنا"

غمغمت بصوت بائس:

"لولا أن فقدانها سيمنعني من تحقيق أمر بالغ الأهمية لما سعيت لإعادتها"

حدق الطبيب ومساعدته في وجهها، ثم بدأ الأول في إزالة الضمادات عن وجهها بلطف. ترددت "سميرة" في فتح عينيها خشية أن تكون العملية قد فشلت، وأن حلمها بالانتقام قد تبخر للأبد.

قال الطبيب بحزم:

"افتحي عينيكِ الآن".

بتردد وقلق، فتحت "سميرة" عينيها فغمرهما ضوء مباغت، سبب لها الضوء ألمًا حادًا فأغلقتهما سريعًا. كان هذا الألم إشارة إلى عودة بصرها. ابتسمت بسعادة غامرة وهي تفتح عينيها مجددًا، وتلتهم بهما كل ما حولها. قال الطبيب مازحًا:

"تلك الابتسامة تكذب ما قلتيه قبل قليل"

لم ترد "سميرة"، لم يكن سر سعادتها هو تنفيذ انتقامها فقط، بل شيئًا أهم، أن تلقي نظرة أخيرة على "عمر"، نظرة وداع.

بعد أن أنهى الطبيب فحص عينيها، حذرها قائلًا:

"إن سقطتِ مرة أخرى، فربما تفقدين بصركِ للأبد"

"أنا أخطط لأن أفقد حياتي كلها، وليس بصري فقط"

نظر إليها بدهشة وقال:

"لم أرَ من قبل شخصًا يعود إليه بصره بعد فترة طويلة من الظلام، ثم يكون بهذا الكم الهائل من اليأس"

لم تعلق. أضاف:

"تناولي هذه الأدوية بانتظام"

تناولت الروشتة الطبية بلا مبالاة، فأردف بجدية:

"عودة النور لعينيكِ هي الخطوة الثانية، أما طي صفحة الماضي فهي الخطوة الأولى"

قالت "سميرة" وهي تضع الوصفة جانبًا:

"هناك خطوة أخيرة يجب أن أنهيها، ثم أطوي كل الصفحات للأبد"

لم يفهم الطبيب مغزى كلامها، لكنه ابتسم لها بلطف وهو يغادر المكان.

لم تبقَ "سميرة" في سريرها دقيقة واحدة. ارتدت ملابسها وهرعت إلى منزل "چيهان". كانت روحها تتوق لرؤية "عمر" بعد تلك الفترة الطويلة من الحرمان. تعرف أنه لن يتعرف عليها، لكن يكفيها أن تلقي عليه نظرة.

شعرت بارتجافة قاسية تهز جسدها بينما تصعد الدرج. ما إن وقع بصر "چيهان" على وجهها حتى أطلقت صيحة مبتهجة. تلقفتها بين يديها كما لو كان الزمن عاد بهما إلى أيام الصداقة القديمة.

حاولت "سميرة" كبح مشاعرها وهي تتقدم ببطء إلى الداخل، ترمق بنظرات مرتعشة "عمر" الذي كان جالسًا يرسم شخصيات كرتونية.
اقتربت منه بخطوات مترددة، لمست كتفه برفق، التفت إليها، تفحصت وجهه للحظة، كان وجهه خاليًا من أي تعبير يدل على أنه يعرفها، شعرت بقلبها ينهار، لكن بغتة، ابتسم "عمر"، وكانت تلك الابتسامة بمثابة قبلة الحياة لقلبها المحتضر.
جثت على ركبتيها أمامه، تحسست شعره بأنامل بلسمية، قبلته على جبينه، تأملت ملامحه بلهفة، غاصت في عينيه السوداوين وانزوت داخلهما لا تريد أن تغادر مكانها، لكنها غادرتهما متشوقة لتنهل من باقي ملامحه، أمعنت النظر في وجهه بشغف عظيم، كأنها تراه لأول مرة.
نظرت "چيهان" إلى هذا المشهد بعينين اغرورقتا بالدموع، بينما لم تذرف "سميرة" دمعة واحدة، كأن آبار عينيها قد نضبت. مررت أصابعها بين خصلات شعره الأسود، وارتعشت شفتاها وهي تغوص في عينيه، كانت تقاوم حنينًا هادرًا إلى الماضي.
همست له:
"أعلم أنك لن تتذكر ما سأقوله، لكنني أريدك أن تسمعني، لم أحب في حياتي أحدًا مثلك، لكن القدر حكم علينا بالفراق الأبدي، أرجوك، سامحني على ما ضاع من عمرك، فأنا المسؤولة عما حدث لك، سأتركك مع عمتك لتعتني بك، كما لو كانت أمك، وداعًا يا "عمر"... للأبد".
وقفت "سميرة" دون أن ترفع عينيها عن وجهه، ثم نزعت نفسها من اشتياقها الهادر بمعاناة بالغة، واستدارت لتغادر.
لكن "چيهان" أوقفتها قائلة بقلق:
"إلى أين تذهبين بهذه السرعة؟"
"أشعر بالتعب وأريد أن أرتاح قليلًا"
حدجتها "چيهان" بنظرة مشككة وقالت:
"لن تتركيه إلا إذا كنتِ تخططين لفعل شيء ما"
قالت "سميرة" بابتسامة خفيفة:
"سأتركه معكِ اليوم، وسأمر لاصطحابه غدًا"

تفحصت "چيهان" وجهها وقالت:

"أرجوك، لا تُقدمي على أي خطوة قبل أن تُبلغيني بها أولًا"

أومأت "سميرة" برأسها، سارت نحو الباب، لكنها قبل أن تخرج، استدارت، وألقت نظرة عميقة على "عمر."

*****

سارت "سميرة" بخطوات حازمة في أروقة المستشفى التي شهدت عملية "نزع الحُصين" من قبل. وجهها يحمل على سطحه مزيجًا من الغضب والألم. عبرت الردهة الطويلة بخطوات مسرعة، ثم اقتحمت مكتب الدكتور "صلاح" دون استئذان. نهض الطبيب من خلف مكتبه، وقد ارتسمت على وجهه ملامح الانزعاج. رمقته بنظرة صارمة. تمالك أعصابه وسألها:

"ما الذي يحدث يا سيدة "سميرة"؟ هل طرأ على "عمر" أي تغيير؟"

علت وجهها ابتسامة هازئة وقالت:

"هل تقصد بالتغيير عودة ذاكرته أم فقد عقله بالكامل؟"

رد الطبيب متبجحًا وهو يلوح بيديه:

"الدكتور "جلال" كان يعلم كل شيء".

في لحظة خاطفة، أخرجت مسدسًا من حقيبتها وصوبته نحوه، هتفت بغضب أعمى:

"وهل يكفي أن صديقك الخسيس يدرك مخاطر العملية لتقوم بها، رغم معرفتك أنها ستدمر مستقبل طفل بريء لا يملك من أمره شيئًا؟"!

ارتعد الطبيب كريشة في مهب الريح وهو يرمق فوهة المسدس برعب كامل. بالكاد استطاع أن يتكلم:

"أعلم أنكِ غاضبة لما حدث، لكن "جلال" أكد لي أنكِ موافقة على إجراء العملية وعلى علم بمخاطرها أيضًا، لذا قمتُ بإجرائها دون تردد. أقسم لكِ أنني أقول الحقيقة"

لم تبعد المسدس عن وجهه، ظلت ترمقه بنظرة قاتلة. كان داخلها صراع عنيف بين الرغبة في قتله، وبين شعور يخبرها أنها هي التي تستحق القتل، لا هو. كانت على وشك الضغط على الزناد، لكنها تراجعت قائلة:

"يبدو أن نهايتك لم تحن بعد"

تنفس الطبيب الصعداء، لكنها أعادت تصويب المسدس نحوه قائلة:

"سأعفو عنك بشرط واحد"

هتف:

"ما هو؟"

جلست أمامه واضعة ساقًا على ساق، ثم قالت:

"ستكتب اعترافًا خطيًا تقول فيه إنك أجريت العملية للطفل "عمر فهمي" رغم علمك أنه لم يكن بحاجة إليها".

أشار بيد رافضة:

"لا، لن أفعل ذلك، سأخسر سمعتي كطبيب"

قالت بصوت قاسٍ:

"أليس ذلك أفضل من أن تخسر حياتك؟"

هز رأسه بعناد وصاح:

"أنتِ لا تفهمين، فقدان السمعة بالنسبة للطبيب يعني نهايته، أنتِ تحاولين تدميري قبل قتلي"

قالت ببرود:

"أنت أردت هذا بنفسك"

بقي صامتًا رغم هلعه الشديد، عندما أيقنت أنه لن يخضع خفضت المسدس وهي تفكر بعمق، ثم قالت بغيظ:

"لا أفهم لماذا تحرص على سمعتك كل هذا الحرص، رغم خستك"

"الموت أهون من أن تلوث سمعتي أمام أسرتي والمجتمع"

نظرت إليه بازدراء قائلة:

"تحرص على سمعتك كقديس، رغم كونك سفاح"

بعد لحظات من الصمت، قررت "سميرة" أن تظهر خطتها الأصلية، فقالت بلهجة تهديد:

"لولا أني أحتاجك لقتلتك في الحال، حسنًا، دعنا نتفق، ستفعل ما أطلبه منك وإلا غيّرت رأيي"

سألها بحذر:

" ماذا تريدين؟"

أخبرته بما تريده منه، ومهما شطح بخياله، لم يكن ليخطر بباله ما ستطلبه منه.

*****

كان الرائد "يوسف" يمسك بصورة فوتوغرافية، يطبق على ملامحه الوجوم، حين دخلت "چيهان" وسألته بصوت يعتريه القلق:

"ماذا حدث؟"

ناولها الصورة التي تحتوي على وجه امرأة مسنّة، وقال:

"هذه هي التي أخبرتني بقصة "جلال" وعلاقته بوالدته، وكيف قتل زوجها، فقد عاش معها فترة من شبابه، حتى أكمل دراسته الجامعية"

"هل ماتت؟"

"بل قُتلت"

منعها الذهول من النطق. قال بغضب:

"لقد ارتكبت خطأً فادحًا عندما أخبرته أن تلك العجوز كانت مصدر معلوماتي"

قالت وذهول عارم يكتنفها:

"هل قتلها لمجرد أنها ذكرت أمورًا عن حياته بعد أن احتضنته لسنوات؟ إنه شيطان ملعون"!

كان الرائد يبدو متأثرًا بشدة. غلّفهما الحزن لدقيقة، قطعتها "چيهان "قائلة:

" أخشى أن "سميرة" تستعد للانتقام من "جلال" بطريقة ما ويجب منعها بأي شكل"

" وكيف ستنفذ انتقامها؟"

"لا أعلم، لكنها تبدو وكأنها اتخذت قرارًا نهائيًا في ذهنها، حتى أنها بدت كأنها حضرت فقط لتوديع ابنها"

"توديع ابنها! كيف تأكدت من ذلك؟"
"كانت عيناها تخبراني بالوداع، وهو شعور أعرفه جيدًا"
صمت يفكر، ثم قال:
"لا أدري من يمثل خطرًا أكبر على الآخر، هي أم هو"
قالت "جيهان" باستنكار:
"هي التي في خطر، يجب أن تفعل شيئًا قبل أن ينقض عليها ذلك الوغد ويقتلها"
رد بثقة:
"هو يحبها، ولن يستطيع إيذاءها أبدًا"
"لا تثق أبدًا بهذا الشيطان"
"سأرسل أميني شرطة لمراقبتها على مدار الأربع والعشرين ساعة القادمة، اطمئني"
لم يبد عليها الاطمئنان رغم محاولاته تهدئتها، إذ كانت تفكر برعب في ما ستفعله "سميرة" خلال الساعات المقبلة.

*****

غابت الشمس في الأفق، وبدأ الظلام يشتد رويدًا رويدًا، شرعت السماء تغمض جفونها متثائبة في تكاسل وخمول، متأهبة للدخول في سباتها الأزلي، حتى عودة الشمس من رحلتها الأبدية مع انبعاث اليوم الجديد.
وبينما تغلق السماء دفاترها، كانت "سميرة" تنطلق بسيارتها استعدادًا لغلق آخر دفاترها في حياتها المعهودة، حتى وصلت إلى الشارع المنشود. أوقفت سيارتها في ركن منزوٍ وجلست تنتظر بصبر وتؤدة خلف عجلة القيادة، تراقب مدخل عيادة للطب النفسي تقع على الناصية المقابلة. وعندما أشارت الساعة إلى التاسعة، نزلت من السيارة وعبرت الطريق بخطوات متمهلة.
استقبلها المساعد الذي رحّب بها بمجرد أن وقعت عيناه عليها. منحته ابتسامة هادئة، طلبت منه العودة إلى منزله دون أن يخبر "جلال" بمجيئها، ورغم حيرته، أطاعها دون نقاش.

انتظرت حتى خلا المكان، ثم تبدلت ملامحها وهي ترمق باب غرفة الكشف من مكانها، كانت تبدو كلبوءة أضناها الجوع وقد حاصرت خنزيرًا بريًا أنهكها بعد مطاردة طويلة، طرقت الباب برفق لتضمن أن يكون وقع المفاجأة عليه بالغًا. بلغها هتافه:

"ادخل يا "قدري"

فتحت الباب بهدوء، وخطت إلى الداخل. لا يدري "جلال" لما أصابه الهلع عند رؤيتها، لا سيما أنها لا يبدو عليها ملامح الغضب المتوقعة. هبّ من مقعده هاتفًا بترحاب زائف:

"سميرة، لقد أسعدتني رؤيتكِ للغاية"

دار حول المكتب لاستقبالها، لكنه توقف فزعًا حين وجدها تصوب نحوه مسدسًا كبيرًا. اكفهر وجهه وتوقف قلبه، لم يستطع التماسك وهو يهتف:

"ماذا تفعلين بهذا المسدس يا حبيبتي؟"

قلبت شفتيها باحتقار وقالت:

"هذا مسدس زوجي الراحل الذي قتلته... استعرته لأقتلك به"

كانت العبارة كزلزال عنيف هز كيانه، تفحص وجهها بعناية، وأدرك أنها بلغت الغاية في التصميم على قتله، لام نفسه ألف مرة لأنه لم يتوقع منها تلك الخطوة. سألها مذعورًا:

"أين قدري؟"

قالت بنبرة تهكمية شديدة:

"أنا قدرك، أم أنه لا يعجبك؟"

تأمل فوهة المسدس المصوبة نحو جسده، تخيل الرصاصة الملتهبة بنار جهنم تغادر فوهته كالشهاب، تندفع نحوه عازمة على إرساله إلى الجحيم الذي قدمت منه، تخترق جسده ممزقة لحمه ومحطّمة ضلوعه بقسوة هائلة، فيشعر حينها وكأنها تنتزع روحه المتشبثة بالعروق والأوردة، وهو يدرك تمامًا أين سيكون مثواه الأخير.

عجز عن ابتلاع ريقه الجاف كصحراء قائظة، غادرت عيناه فوهة المسدس الذي يحدقه بنظرة قاتلة شامتة، وصعد بهما إلى وجهها الذي لا تقل نظرته

قسوة وشماتة، وتشبث بخيط واهن من الرحمة، خيط قد يتمزق بفعل جذبة هينة، لكن يأسه لم يترك له رفاهية الاختيار.

قال بضراعة:

"أعترف أنني قتلت زوجك و"شاهندا" و"نجلاء"، لكني لم أفعل ذلك شراهةً للقتل، بل كان من أجلك أنتِ، من أجل أن تكوني سعيدة".

قالت بنبرة تنطق بالوحشية:

"هل طلبت منك أن تقتلهم لأجلي؟"

أسرع يقول:

"نعم فعلتِ، عندما جئتِ تشكين زوجك لأنه سيهجركِ طواعية من أجل تلك المرأة، ثم ينتزع منكِ ابنك مستغلًا حبه له. لذا قتلتُهما لأرحمك من العذاب، ولأعيد إليكِ سعادتك"

"ولماذا فعلت ذلك من أجلي؟"

هتف بانفعال:

"لأنني أحببتكِ. لم أحب أحدًا في حياتي سواكِ"

هزت رأسها بحيرة ساخرة، ثم سألته:

"ولماذا أحببتني كل هذا الحب؟"

همّ بالسير نحوها، لكنها هددته بسلاحها فتوقف مرغمًا، قال بصوت متهدج:

"لأنكِ كنتِ تشبهين أمي"

رددت بدهشة حقيقية:

"أشبه أمك"!

تنهد تنهيدة عميقة، ثم قال:

"قد تعتقدين أنني أكذب عليكِ، وخاصة أنني لا أملك في تلك اللحظة صورة لوالدتي الراحلة، لكنكِ تبدين لي كأنها هي في شبابها، كأن الله قد أعادها إليّ من قبرها"

رمقته بريبة واضحة. أسرع يقول، وهو يختلس النظر إلى المسدس الذي ما يزال يحدقه بنظرته القاتلة:

"أقسم لكِ أن ما أقوله هو الحقيقة"

"وما علاقة هذا بقتلك هؤلاء؟"

ظهر الألم على وجهه وهو يسترجع بذاكرته لحظة بعينها. طال وجومه، فصاحت:

" أنت تهدف فقط إلى إضاعة الوقت"

اتسعت عيناه وكأنما استفاق من حلم وقال:

"كنت أظن أن الرائد "يوسف" حكى لكِ ما حدث لوالدتي، لكن يبدو أنه فضل إخفاء الأمر عنكِ"

زفرت بنفاد صبر، فأردف:

"بعد موت والدي، اضطرت أمي للزواج من أحد أصدقائه، لتبدأ معاناتها مع قسوته وتعنيفه المستمرين، وفي يوم امتنعت عنه، فأراد الاعتداء عليها غصبًا، وعندما سمعت صراخها، خرجت أهرول من غرفتي، ورأيت منظرًا بشعًا جعلني أفقد صوابي، فركضت نحو المطبخ وتناولت منه سكينًا، ثم عدتُ وغرزته في ظهره حتى المقبض، شهق ذلك الخنزير شهقة خرجت معها روحه الملعونة، جذبته من فوقها وألقيته جانبًا، ثم سترت جسدها بملابسي، كان وجهها يبدو عليه أثر عضات دامية، وامتلأ جسدها بكدمات وسحجات.

بقيت إلى جوارها أشاركها البكاء، ثم أمرتني بالفرار قبل أن تأتي الشرطة. وعندما رفضتُ، أقسمت أن تقتل نفسها إن لم أرحل، ففعلت مرغمًا"

سكت قليلا ثم أردف في حسرة:

"كنت أزورها في سجنها كل أسبوع، ولم أنقطع عن زيارتها حتى وافتها المنية"

بدا في عيني "سميرة" تساؤل مستنكر، فأضاف:

"ما حدث لأمي أشعل غضبًا هائلًا بداخلي، لكنه كان مكبوتًا ولم يظهر حتى قابلتك، رأيت فيك شبهًا كبيرًا منها، كأنك نسخة عنها، وعندما شكوتِ لي من قسوة زوجك ومعاناتك معه، أقسمت أن أقتل من تسبب لكِ بالأذى"

غمغمت بنبرة قاسية:

"هل تعتقد أن هذا يكفي لتغفر لك جرائمك؟"

هتف:

"لقد قتلتُ كل من جلب لكِ التعاسة"

تمتمت وهي تهز رأسها بمرارة:
"أنت جعلتني تعيسة بطريقة لا مثيل لها بين النساء"
"لقد حاولت أن أجعلكِ سعيدة قدر الإمكان"
قالت، والغضب يندفع من بين شفتيها كلسان من نار:
"كان يمكن أن يحدث هذا لولا ما فعلته بـ'عمر"
صرخ منافحًا عن نفسه:
"لقد قلتِ بنفسك إنه لم يكن ليسامحكِ أبدًا"
رفعت إحدى حاجبيها وقالت:
"أنا لا أنكر مسؤوليتي عما لحق به، لذا اخترت لكل منا نهاية تليق به"
تمتم وهو يراقب المسدس بخوف، كأنه اشتمّ منه رائحة الموت:
"وما هي؟"
استلبت من أعماقها نفسًا عميقًا، وقالت:
"القتل لك.. والنسيان لي"
تمتم باستغراب:
"لا أفهم ماذا تقصدين؟"
قالت بعد أن اقتربت منه خطوة:
"أنت قتلت 'فهمي' و'شاهندا' و'نجلاء' بدم بارد، لذا يجب قتلك قصاصًا لهم. أما أنا، فكما كنت السبب في ضياع ذاكرة 'عمر' للأبد، فالعدل يتطلب أن تمحى ذاكرتي أيضًا"
هتف "جلال" مذعورًا:
"أنتِ مجنونة، لا تفعلي ذلك"
قالت، وابتسامة مريرة تغلف وجهها:
"لم أكن يومًا أكثر عقلانية من الآن"
ثم، ودون تردد، وكأنها اتخذت هذا القرار منذ زمن سحيق، ضغطت الزناد، وانطلقت الرصاصة، التي اخترقت صدره بسهولة، كأنما تؤدي عملًا روتينيًا.
ارتد جسده إلى الوراء بشكل مذهل، اتسعت حدقتاه عن آخرهما، سقط على مكتبه بعنف وتدحرج منه إلى الأرض، وبدأت الدماء تنزف من صدره بغزارة، بينما خيط رفيع من الدماء يخرج من فمه.

اقتربت منه "سميرة" وألقت نظرة على الجثة المحدقة في السقف بدهشة، كأنها ترى فيه كائنات عجيبة.
دارت ببصرها في أرجاء المكتب وقالت برهبة:
"هنا بدأت المأساة... وهنا كان يجب أن أنهيها"
ثم غادرت المكان استعدادًا لتنفيذ مهمتها الأخيرة.

*****

اقتحمت الشرطة عيادة الدكتور "جلال" برفقة الرائد "يوسف"، عبروا الردهة الواسعة، فتحوا الباب ليجدوا جثة "جلال" تحدق في السقف.
تفحص بعينيه الجثة الملقاة أسفل المكتب، مال عليها ولمس بقعة الدم بإصبعه، وهمس:
"لم يمر على موته سوى ساعة واحدة"
هتف وهو يركض عائدًا إلى سيارته:
"اتصلوا بالإسعاف فورًا"
سأله مساعده:
"ألم يمت بعد يا سيادة الرائد؟"
"لا، الرجل لا يزال في الرمق الأخير"
بالرغم من أن الجثة قد شبعت موتًا، إلا أنه كان يحمي من قامت بقتله بإتلاف بصماتها بأيدي المسعفين.
انطلق بالسيارة إلى منزل "سميرة" مباشرة، وفي الطريق اتصل بـ"چيهان" وسألها:
"هل توصلتِ إلى مكانها؟"
"كلا، أنا أبحث عنها في كل مكان يمكن أن تذهب إليه".
قال آسفًا:
"لقد قتلت 'سميرة' 'جلال' في عيادته"
حملت موجات الهاتف صرختها المذهولة، ثم تمتمت بحسرة:
"هذا ما كنت أخشاه"

هتف :
"المهم الآن هو أن نعثر عليها، فنحن لا ندري ماذا تنوي أن تفعله تلك المجنونة في الساعات القادمة"
أغلقت "چيهان" الهاتف وراحت تبكي بحرقة. غمغمت من بين دموعها:
" لماذا يا 'سميرة'؟ لماذا؟"
*****

وقفت "سميرة" أمام الدكتور "صلاح" تحدجه بنظرة صامتة. لم تكن بحاجة إلى كلام؛ فهو يعرف ما يجب عليه فعله. أراد أن يدفعها للتراجع عن قرارها المجنون، لكن المسدس المصوب إلى صدره ذبح عزيمته.
سار إلى غرفة العمليات التي كان قد أعدها مسبقًا لإجراء العملية. فحص سكرها وضغط دمها، تأكد من مؤشراتها الحيوية، ثم أشار إلى الفراش قائلا:
" تمددي هنا"
تمدّدت على الفراش بهدوء عجيب، كأنها تخضع لجلسة تدليك على يد خبير دولي. قال وهو يجهز حقنة المخدر:
"كان من المفترض أن يكون معي طبيب التخدير الآن، لولا رفضكِ تدخل أي شخص آخر"
ردت بغير اكتراث:
"أنا لا أخاف الموت، بل أخشى الحياة"
قال محذرًا:
"ما أنتِ موشكة على فعله أشد قسوة من الموت نفسه"
أغمضت عينيها وقالت:
"لو لم يكن الانتحار كفرًا، لقتلت نفسي، فلقد فقدتُ كل ما يستحق الحياة من أجله"
"ابنكِ لا يزال يحتاج إليكِ"
قالت بنبرة ساخطة وهي تفتح عينيها:
"لن أستطيع نفعه بعد أن سلبت منه ذاكرته وجعلته يحيا كالجمادات، أيها الملعون"!

سألها محتدًا:

"وهل تعتقدين أن محو ذاكرتكِ هو الحل المناسب؟"

أجابته بنبرة غُمست في وحل اليأس:

"ما دمت لا أستطيع الموت، فلأحيا دون أن أتذكر شيئًا عن جريمتي الشنيعة، إنه القصاص العادل؛ النفس بالنفس والعين بالعين. فكما مُحيت ذاكرته، فلتمح ذاكرتي أيضًا"

"من يستحق أن تُسلب ذاكرته هو الدكتور 'جلال'، وليس أنتِ"

لدهشته، وجدها تبتسم في ارتياح قائلة:

"كنت أتمنى أن أسلبه عقله وأتركه يعيش كالحيوانات السائمة، لكنه خطر على الأحياء ذَاكِرًا وناسيًا"

سألها بنبرة متوترة:

"ماذا تعنين؟"

تجاهلت إجابته عمدًا. جهز حقنة المخدر وحقنها بها، وقال:

"عندما تستيقظين، لن تتذكري شيئًا عن حياتكِ السابقة، أما أنا، فسأقدم مسدسكِ الذي يحمل بصماتك، بالإضافة إلى اعترافكِ المكتوب بخط يدك، كدليل على أنني أجريتُ العملية بالإكراه"

التقطت نفسًا عميقًا لتسيطر على توترها، ثم غمغمت:

"هذا أفضل للجميع"

قال يترجاها:

"يمكن أن تتراجعي عن تلك العملية وتسامحي نفسكِ. فأنتِ لم تقصدي أن...

قاطعته غاضبة:

"هل تستطيع إعادة ذاكرة 'عمر' إلى ما كانت عليه؟"

أجابها بنبرة متخاذلة:

"كلا"

قالت بمنتهى الصرامة:

"إذاً، اخرس واجر لي العملية، لعلك تستطيع التكفير عما فعلته في حق ابني"
هز رأسه في إذعان، انتظر لحظات حتى أغمضت عينيها. نظر إليها مليًا بعد أن راحت في سبات عميق، ثم غمغم:
"أم وابنها فقدا علاقتهما بالزمن"
كان من الممكن ببساطة أن يتراجع عن إجراء العملية، لكنها هددته مسبقا بتسجيل صوتي له وهو يعترف بإجراء العملية ل"عمر" بالاتفاق مع "جلال"، لذا التقط من الهواء نفسا عميقا، وشرع في إجراء العملية، بمزيج من المهارة، والأسف الحقيقي.

*****

فتحت "سميرة" عينيها ببطء، حدقت في السقف لبرهة، كأنه عالم كامل من المخلوقات السابحة في فضائه، لم تشعر بالملل، كأنها خُلقت لتحدق.
التقطت أذناها أصوات شهقات قوية تختلط ببكاء مرير. هبطت عيناها إلى مصدر الصوت، طالعها وجه امرأة تبكي كأنها فقدت شيئًا ثمينًا، وسمعت تلك المرأة تناديها بصوت مختنق بالدموع:
"لماذا يا سميرة فعلتِ ذلك؟ لماذا؟"
لم تفهم سبب بكائها، ولا من هي التي تدعوها بهذا الاسم. أرسلت لها نظرة حائرة، أردفت "جيهان" بأسى:
"كان بإمكاننا أن نحيا حياة طيبة، منتظرين أن يفاجئنا العلم بعلاج لحالة 'عمر'، لكنكِ لم تصبري على محنتكِ، فقتلتِ 'جلال' ونزعتِ 'الحصين' من رأسكِ، لماذا فعلتِ ذلك يا سميرة؟ لماذا؟"
انهمرت الدموع من عينيها كشلال هادر، مرارة هائلة اجتاحت قلبها، جعلتها ترى العالم بلون أسود. التفتت إلى الصبي الواقف بجوارها، وقالت:
"هذه أمك.. هل تذكرها؟"
لم يبدُ على وجه "عمر" أي تعبير. سألتها "جيهان" وهي تشير إليه:
"هل تذكرين ابنكِ 'عمر'؟"

نظرت "سميرة" إلى الصبي الواقف بجوارها بحيرة وجمود، كأنها تراه لأول مرة، فعادت "چيهان" للنحيب مرة أخرى.
تدخل الرائد "يوسف"، الذي كان يراقب المشهد من مكانه في صمت، قال بأسف عميق:
"لقد حدث ما كنا نخشاه يا 'چيهان'، ولم يعد يجدي البكاء"
هزت رأسها ذاهلة، وقالت:
"أشعر كأنني أحيا في كابوس يسيطر على عقولنا ويمزق مشاعرنا، دون أن يسمح لنا بالاستيقاظ"
وافقها "يوسف" قائلا:
"أنا أيضًا أشعر بذلك، لكنها حكمة الله وإرادته، ومن يدري؟ قد يكشف العلم عن حل قريب"
قالت "چيهان" ووجهها يغمره بحار من الدموع:
"إنه الطوق الذي أتمسك به للنجاة من دوامة اليأس"
تطلع إلى "عمر" و"سميرة"، ثم غمغم:
" هذا ما نتمسك به كلنا"
غمغمت "چيهان" بصوت محروق:
"الوداع يا 'سميرة'.. الوداع يا 'عمر"

****

النهاية

"بعد أسبوعين ".

تأملت "چيهان" الثنائي الجالس على مقعدين متجاورين يشاهدان فيلمًا معًا. كانت قادرة على تقبّل أي حقيقة مهما كانت غريبة، إلا هذه الحقيقة التي تجسدت أمامها، على هيئة أم وابن، انفصلا عن عالم الواقع، وعن بعضهما. بدت لها أكثر من مجرد حقيقة صادمة، أشبه بأسطورة.
زفرت بحرارة وغمغمت:

"لماذا فعلتِ ذلك؟"

في تلك اللحظة حضر الرائد "يوسف"، وعلى وجهه ابتسامة رزينة.

دعته "چيهان" للدخول. سألها:

"كيف حالهما؟"

أجابته بحزن وعيناها تذهبان بعيدًا:

"يشاهدان نفس الفيلم للمرة الثالثة دون أن يبديا أي تبرم".

"هل تسمحين لي بإلقاء نظرة عليهما؟"

أشارت بيدها إلى الباب المغلق وهي تبتسم ابتسامة غائبة. تطلع إلى "سميرة" و"عمر"، اللذين بديا في عينيه كأنهما يجلسان في دار عرض يشاهدان فيلمًا دون أن يعرف أحدهما الآخر. أطلق تنهيدة خافتة للغاية، لكنها كانت كافية لأن تلتقطها أذن "چيهان"، التي كانت تقف إلى جواره.

عاد إلى الردهة وجلس على أريكة صغيرة. قالت "چيهان":

"سأعد لك مشروبًا ساخنًا"

هب واقفًا وهو يقول:

"لا داعي لهذا"

نظرت إليه مستغربة، فاستجمع شجاعته قائلا:

"لقد أتيت خصيصًا لمقابلتكِ"

استحال الاستغراب إلى تساؤل، فقال باسمًا:

"هل سنتحدث ونحن واقفان؟"

جلسا متقاربين. مضت فترة من الصمت، ثم قال:

"لقد استغرقت بكل جوارحي في تلك الوظيفة المرهقة، فلم ألحظ أنني في خضم انشغالي بمهامي، لم أقابل الفتاة التي تدفعني نحو الاستقرار والزواج... حتى رأيتكِ"

انتشر اللون الأحمر في وجه "چيهان" كأنما سُكب عليه صبغة حمراء. طأطأت رأسها خجلًا. قال "يوسف"، وأمواج الحب تتقاذفه برفق:

"كنت أراكِ دائمًا حادة الطباع، لكني كنت أدرك أن وراءها شخصية نادرة من الحب والإخلاص، تأكدت أنني عثرت على الفتاة التي يبحث عنها

قلبي منذ زمن، ربما لا أستحق فتاة بقيمتك، لكن يكفيني أنني أحببتكِ بقلب صادق"

حاولت "چيهان" النطق، لكن لسانها تجمد في حلقها. أدرك "يوسف" خجلها، فقال مازحًا:

"من يراكِ وأنتِ تقتحمين مكتبي في كل مرة صانعة زوبعة عنيفة، لا يمكنه أن يتصور خجلك الآن"

هبت واقفة تريد الفرار، لكنه أمسك يدها وقال:

"أنا أحبك يا 'چيهان'.. أحبك من كل قلبي"

لم تتمكن من أن تأمر يدها بالانسحاب، كأن قلبها لم يشأ ترك مكانه بعد أن احتل ساحة قلبه وثبت قدميه في أركانه. رفعت رأسها لتنظر إلى ملامحه القوية وعينيه الواثقتين، ثم التفتت إلى الغرفة المغلقة وقالت:

"لكن لدي مسؤوليات ثقيلة لا أستطيع تركها"

بدا على وجهه الإعجاب وهو يقول:

"لهذا أحببتكِ"

صمتت وهي تنظر إليه مشدوهة. قال:

"لن تحملي تلك المسؤولية بمفردك، دعيني أشاركِك حياتك بحلوها ومرها"

"لكني لا أستطيع أن...

قاطعها:

"اتركي لقلبك القرار، فهو يعرف ما ينبغي عليه فعله"

أضاء وجهها بابتسامة كالشمس، أنارت قلبه الذي أضحى قمرًا لامعًا في سماء الحب، بددت تلك السعادة ما في قلبها من أتربة الحزن الكثيفة، والمرارة التي ربضت على روحها وتشابكت كخيوط العناكب.

تمت